حواريات إسلامية

أ.د. عماد الدين خليل

حواريات إسلامية

أ.د. عماد الدين خليل

حواريات إسلامية

تقـــديم

في أواخر سبعينيات القرن الماضي وأوائل ثمانينياته كنت قد كتبت عدداً من الحواريات الإسلامية ، رحبت بها ونشرتها مجلة (الدوحة) القطرية ، واسعة الانتشار ، والتي ما لبثت أن أقفلت ، فتوقفت عن الاستمرار في كتابتها ، ثم ما لبث معظمها أن تعرض للضياع في أعقاب ما شهدته الموصل ، وبضمنها داري ، من فتن وويلات.

الآن بعد مرور ما يقرب من الأربعين عاماً على كتابة الحلقات الأولى من الحواريات إذا بي أجدني فجأة أمام هاجس ملح في الاستمرار على انجاز جملة من الحلقات الأخرى ، فأشمر عن ساعد الجدّ وأتفرغ لتلبية النداء ، وأواصل الكتابة في الموضوع حتى تحقق في ثلاثين حلقة هي هذه التي يجدها القارئ الكريم في مؤلفي هذا الذي يحمل عنوان : (حواريات إسلامية).

أدرت الحوار على جملة من الموضوعات التي سبق وأن انجزتها لعدد من مؤلفاتي ، فأضفت إليها من خيالي ما وسعني أن ابتكره وفق صيغ شتى ، وأخرجت بالتالي هذا الكتاب الذي يستهدف عبر حواریاته كافة ، اقناع المتشككين وأنصاف المؤمنين بمصداقية كل ما يقوله هذا الدين المعجز بكتابه الذي لا تنقضي عجائبه ، وسنة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وبرصيده التاريخي الذي ينطوي على جملة من الكنوز قلّ نظيرها في المذاهب والفلسفات والأديان الأخرى.

أغلب الظن أن ما طرحته من شواهد وأدلة عبر حواریاتي هذه ، قد أتى ثماره وساق معظم الذين تمت محاورتهم ، إلى الحق الذي ليس بعده ومعه وقبله سوى الضلال.

اعتذر لقرائي الأعزاء عن هذا الذي فعلته في كتابي هذا باعتمادي على عدد من مؤلفاتي لإدارة الحوار ، وما ذلك إلا بسبب من الضرورات الفنية التي الجأتني إلى هذا الأسلوب.

ومن الله وحده التوفيق وإليه وحده نتوجه بالكلمات والأفعال.

أ.د. عماد الدين خليل

(١)

اعتدت أن أغادر داري عصر كل يوم إلى مقهاي المفضل : (الصحاري) المطل على شارع الدوّاسة الأنيق في مدينتي الموصل ... اخلو هناك إلى القراءة والكتابة الساعات الطوال ، واضعاً النظارات والقلم جانباً بين الحين والآخر ، لكي آخذ قسطاً من الاسترخاء اللذيذ وأنا أحدّق عبر زجاج المقهى الواسع إلى الشارع الذي يجتازه المارة والسيارات والباعة ... شارباً كوباً من العصير أو القهوة أو الشاي ، لكي ما ألبث أن أنكب على القراءة أو الكتابة ، حيث تمضي الساعات سريعاً ، فإذا بي فجأة ازاء موعد العودة إلى البيت حيث يكون الجوع قد اعتصرني ، لتناول العشاء وقضاء الأمسية مع الأهل والزوار حيناً ، أو العودة ثانيةً إلى العمل والقراءة حتى ساعة متأخرة من الليل.

صديق من ذوي الشكوك والهواجس يخترق علي جلستي في أحد الأيام ... يسحب كرسياً دونما موعد مسبق مني ، للجلوس قبالتي وهو يقول كالمعتذر : لا بأس ، فانما هي كما تعلم همومي مع معضلة الايمان ، جئتك لكي تخفف عني وطأتها الثقيلة على نفسي ... فلا بأس !!

كنت قد خبرته جيداً ، يبحث عن الحقيقة التي يطمئن إليها عقله الشكاك ، ويسلّم بها لحظة اقتناعه بمعطياتها ، ولكن مشكلته أنه يمارس قدراً كبيراً من الإلحاح في الجدل والنقاش وكأنه يدافع عن قناعاته التي تقض مضجعه ، ولا مانع لديه من مواصلة الجدل الساعات الطوال.

وأقول في نفسي : لا بأس ، فإنما هي فرصة لدحض افتراءاته التي ينفخ فيها الشيطان فيزيدها أواراً ... ومن يدري فلعلي اقدر في نهاية الأمر على إعادته إلى الصراط !!

قبل أن أبدأه الكلام قال : لسوف أبدأ حواري معك ، أو بعبارة أدق استفزازي لقناعاتك بالعبارة التي طالما رددها الملاحدة والشكوكيون : لا أخاف الله !!

أجبته وأنا أحاول أن أتمالك أعصابي ، وأن أضعها في الثلاجة كما يقول المثل ، متذكراً أنه من أولئك الصنف من الناس الذين لا يهمهم سوى الوصول إلى الحقيقة التي يطمئنون إليها: لا بأس أيها الصديق الكريم ، ولكن ماذا لو قلت لك بأن هذه العبارة التي كثيراً ما يطلقها أدعياء خرافة الإلحاد ... يقولونها كلمات ... أو يفرزونها سلوكاً وممارسات ... وفي كلتا الحالتين يشير رفضهم السالب ، بما يتضمنه من شحنات التحدّي المتوتر ، والإنكار الخادع ... إلى أن ثمة في أعماق قلوبهم ، في قاع فطرتهم التي تكدّس فوقها التراب ... اعتراف بشكل من الأشكال ... إقرارٌ ما ... بهذه القوة العلوية التي يخافونها ، ويتجاهلونها ، ثم يتحدونها ، منفعلين متوترين ...

تلك هي الله (سبحانه وتعالى) ... لكأنهم يؤكدون بموقفهم هذا – ومن حيث لا يشعرون – إيمانهم المسبق ، المطموس بخالقهم.

لقد قالها القرآن الكريم ... إن حقيقة الإيمان مركوزةً في جبلة ابن آدم ، مدونةً على شهادة ميلاده ، محفورةً على صفحات فطرته : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴿ ١٧٢ ﴾ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴿ ١٧٣ ﴾ (سورة الأعراف ، الآيتان ١٧٢– ١٧٣).

ولكن التعامل مع هذه الحقيقة العميقة يختلف بين إنسان وآخر ... حيث تركت حرية اتخاذ المواقف للإنسان نفسه ... فمنهم من يفتح عقله ، وقلبه ، وروحه ، ووجدانه ، لحقيقة الإيمان ، فيزداد توحداً ، وامتلاءً ، وسعادةً ، وقدرةً على الفعل التاريخي في الزمان والمكان ... فينال نعيم الدنيا والآخرة ... ومنهم من يسد بعض المنافذ ، ويفتح بعضها الآخر ، أو يتركها نصف مفتوحة فيهتز إيمانه ، ويومض بين الحين والحين كلما انزاحت ستارة مسدلة عن هذه النافذة أو تلك ... ومنهم من يردم عليها التراب أو يتركه يتراكم فوقها ... برْين على القلب ، وغشاوه على البصيرة، وصدأ على الفؤاد ... ويبعد عنها أو تبعد عنه ... حتى يأتي ذلك اليوم الذي يتصوّر فيه أنه ليس ثمة ما يربطه بالإيمان ... ويفقد القدرة على التواصل ، بأي شكل من الأشكال ، مع تلك الحقيقة التي طمست في أعمق أعماقه ، وراء طبقات كثيفة من الصدأ والتراب ، حتى إذا ما أعلن يوماً أنه لا يخاف الله ... أو مارس فعلاً يعلن به عن ذلك ، فإنه إنما يفعل ذلك في محاولة منه لاقتطاع آخر جذر في فطرته يمكنه من استئصال حقيقة الإيمان بالله ، المتأصلة هناك ... ولن يستطيع ...

إنه ، إذا ما استخدمنا مصطلحات الفقهاء ، واللغويين ، نوع من (مفهوم المخالفة) الذي يقود ضمناً إلى معنى نقيض للمعنى المعلن قولاً أو فعلاً ...

وسواء كان هذا الذي يتخذ موقف الرفض إنساناً عادياً ، أم مثقفاً على مستوى كبار المفكرين الوجوديين القائلين بالحرية بعيداً عن رقابة الإله والزاماته الفوقية المسبقة ... فإن الأمر الذي لا ريب فيه أن موقفهم هذا يمثل إعلاناً بشكل ما عن حقيقة أصيلة وكبيرة يسعون لتجاهلها وإنكارها ...

وما أكثر ما عاد هؤلاء ، بعد لجاجتهم تلك ، وعنادهم ، وغرورهم ، إلى الحقيقة التي سعوا لاغتيالها ... فعانقوها ... وأصبحوا حينذاك ... وحينذاك فقط ... سعداء حقاً ...

وجدته ينصت إلي بكل جوارحه وما يلبث أن يقول : أرجو أن أكون منهم ... ولكن !!

قبل أن يتم عبارته واصلت حديثي : أعرف ما ستقول ، كأنني اقرأ ما يدور في خلدك ، فثمة فرق كبير بين الوقوف – متحدين – مع الله وبين الوقوف في تحدٍ معه (جلّ جلاله) !

الأديان السماوية جاءت لكي تضع الإنسان والبشرية في الحالة الأولى ، والمذاهب الوضعية ، في أغلبها ، استهدفت وضعهما في الحالة الثانية.

والحالة الأولى تعني بوضوح ربط أسباب الإنسان الفاني بالخلود ، ومد رؤيته لكي تكون بالمدى الذي يليق به كإنسان ومنحه القدرة المتفوقة المستمدة من إرادة الله ، ووضعه في حالة وفاق مع سنن العالم ونواميس الكون والوجود ، ولمّ شتات نفسه وتمكينه من التحقق بالوحدة والانسجام ، واستئصال بذور السلبية واليأس من أعماقه ودفعه إلى ساحة العالم مطمئناً ، متفائلاً، فاعلاً وسعيداً ...

والحالة الثانية تعني – بوضوح كذلك – تقطيع الأسباب بين الإنسان وبين السماء ، وتضييق الخناق على رؤيته إلى المدى الذي يحيله إلى ما يشبه الحشرات التي لا تعرف غير تأمين حاجاتها الغذائية ، وتمتين مساكنها كي لا يقتلعها البرد والجوع !!

وتعني الحد من قدراته الفاعلة من خلال وضعه في حالة تضاد وتصادم مع سنن العالم ونواميس الكون والوجود.

وتعني تدمير توحده النفسي وائتمانه الذاتي ، وشله بعوامل اليأس والسلبية ، ودفعه إلى العالم خائفاً ، قلقاً متشائماً ، مشتتاً وتعيساً ...

فرق كبير والحق يقال ... ولن تغُرّنا المظاهر الخادعة التي توحي – اليوم على وجه الخصوص – بانحسار المؤمنين على كل المستويات ، وانتشار أتباع المذاهب الوضعية وتمكّنهم في الأرض.

فما هي إلا القشور التي تحجب العفن والتفكك والفساد الذي ينخر في الداخل ، وتغطي على القلق والخوف والتمزق واليأس الذي يُحْكِمُ قبضته على خناق الإنسان الذي لم يقدر على تجاوز الكفر صوب الإيمان.

وهؤلاء " الأتباع " هم الذين يقولون هذا ويعيدون فيه القول دراسات وأبحاثاً وكتباً وتقارير ومناقشات وندوات وخطباً ... وهم ليسوا بالناس العاديين ، ولكنهم زبدة المجتمعات وطلائعهم المتفوقة عقلياً ، ومن ثم فإن شهاداتهم تحمل قيمتها ابتداء ...

وليس هنا بطبيعة الحال مجال استعراض هذه الشهادات ، ولكننا نشير إليها مجرد إشارة للتدليل على صدق المقولة التي تصدرت هذه الكلمات.

إن ثمة خسارة كبيرة تلحق بالإنسان عندما يختار أن يكون في موضع المتحدي لله (سبحانه وتعالى) ... طبعاً فإن الله (جلّ جلاله) لن يضيره أن تقف البشرية كلها متحدية إياه ، ولن يزيد في ملكه أن تقف البشرية كلها معه !!

والحديث القدسي الشريف واضح الدلالة في هذا المجال : (**... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر ، يا عبادي إنما هي اعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ...**).

ولكن الربح والخسارة إذا جاز لنا أن نستخدم مصطلحات التجارة ستلحق بالإنسان نفسه ...

ومن أجل ألاّ يضيع الإنسان ويخسر نفسه ، بل من أجل ألاّ يخسر دنياه قبل آخرته ، جاءت الأديان لكي تدله على الحقيقة وتقوده عبر الطريق الطويل ، وكان الهدف النهائي لهذه الأديان جميعاً ومحصلتها الأخيرة أن تحرر الإنسان من قبضة الأرباب والكهنة والطواغيت الذين يسعون من خلال وضعه في حالة تحدٍ مع الله إلى استعباده ، ومن ثم تدميره كي يغدو أداة طيعة في أيديهم ، ووسيلة مجرد وسيلة ، لتطمين مصالحهم ونوازعهم.

جاءت الأديان لكي تحرره ، وتعيده إلى الوضع الصحيح العادل المنبثق عن طبيعة وجوده في الأرض ومهمته في العالم ؛ الوقوف مع الله ، مع تعاليمه ، مع سننه في العالم ، مع نواميس الكون والوجود.

وحينذاك يتحقق الإنسان بالتوافق المنشود مع الخلائق والموجودات ، وقبل ذلك يتحقق بالتوافق المرتجى مع ذاته ، ومع غيره من بني آدم على مدار الأزمنة وتغير الأماكن ...

وحينذاك يكون بمقدور الإنسان ليس أن يحيا سعيداً فحسب ، وليس أن يفعل المعجزات فحسب ، بل أن يضمن الآخرة وهو الهدف الأسمى ، لأنها الحقيقة المطلقة التي تعلو على نسبيات الأرض ومتغيراتها ...

طريق واحد مستقيم هو الصراط ... وإنسان متوحِد ، مطمئن سعيد ، مترع انسجاماً وتفاؤلاً وقدرة على الإبداع والعطاء ...

وتوافق فذ بين بني آدم وبين ما يحيط بهم ويعايشهم من خلائق وسنن وموجودات ...

والهدف واحد هو الله. وذلك معنى أن نقف – بالدين – متحدين مع الله ، وذلك – أيضاً – معنى أن نقف في تحدٍ معه (سبحانه وتعالى) ...

إنه جلّت قدرته يستطيع بكلمة (كن) أن يقتلع الموقف الخاطئ ، لأنه الخالق ونحن المخلوقون ، وهو المالك ونحن المملوكون ... وهو القادر ونحن الضعفاء العاجزون.

ولكنه (سبحانه وتعالى) شاء أن يمنح الإنسان حريته التي تليق به ، وأن يعلمه الطريق ، ثم يتركه لكي يختار بنفسه.

تُرى هل قَدِرّ الإنسان على اجتياز الامتحان بنجاح ؟!

يلتفت صديقي ذاك ذات اليمين وذات الشمال وكأنه يبحث عن شيء ، عن المزيد من الشواهد القاطعة التي تؤكد حقيقة الايمان ودوره الفاعل في حياة الإنسان ، وكل ما سمعه مني لم يقده إلى المطلوب ... إلى القطع الجازم بوجود الله (سبحانه وتعالى) ، وبضرورة الايمان به إذا أردنا أن نحيا حياة سعيدة متوازنة آمنة مطمئنة ...

قلت له : أعرف ما تريد ، وسأجيبك عن كل ما يدور في واعيتك التي انفتحت نوافذها المشرعة على الوساوس والأوهام ...

أراد الرجل أن يردّ فسارعت إلى القول : بأنني سأجيبك عن كل ما يعتمل في نفسك ، فمن يدري ؟ لعلي أقود سفينتك التي تتقاذفها الأمواج إلى برّ الأمان !!

فيوماً بعد يوم يتزايد التكشف المذهل لآيتين معجزتين في كتاب الله تتضمنان بعداً زمنياً يشير إلى أن " مرور " الأيام والسنين والقرون سوف يحقق مزيداً من الكسب لمواقع " الإيمان " في العالم ، والخسران والاندحار لمنابع الكفر والإلحاد ، هنالك حيث تتعرى سنن الطبيعة وحقائق الحياة ونواميس الوجود لكي تدلّ بما لا يقبل أية لجاجة أو اعتراض على خالقها الواحد ، المبدع، واجب الوجود ، سبحانه وتعالى.

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ... ﴾ (سورة يونس ، الآية ٣٩).

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سورة فصلت ، الآية ٥٣).

فيما يبين شهري نيسان " أبريل " وتموز " يوليو " من عام ١٩٨٣ م كان بمقدور القارئ العربي " على الأقل " أن يضع يديه على ثلاثة أنباء وردت في عدد من الصحف والمجلات العربية ، وهي جميعاً تؤكد ، بمنطق صارم واضح كنور الشمس ، هذا الذي ذهبنا إليه.

إحدى الصحف الخليجية الصادرة في نيسان تطرح تحت هذا المانشيت " شارلز دارون " هزيمة جديدة لنظرية دارون ، وعالِمٌ يعترف بأنه زوّر وثائق لإثبات نمو المخ !

النبأ التالي : شارلز دارون صاحب نظرية التطور التي تدعي بأن القرد أصل الإنسان يواجه هزيمة جديدة في الولايات المتحدة. فبعد القرار التاريخي الذي أصدرته محكمة لوس

أنجلوس في ولاية نيويورك في مطلع هذا العام ضد نظرية التطور ، والثغرات العديدة في استنتاجاتها ، والتوصية بأن يتم في المدارس تدريس الحقائق الدينية عن خلق الإنسان ، وإضافة فقرات إلى منهج دارون بأن نظريته افتراضية ، دخلت ولاية أركنساس أيضاً في الصراع ضد دارون ، وبدأت المحكمة في نظر دعوى مماثلة ضد نظرية التطور ... ".

الدكتور محمد جابر الأنصاري يترجم عن الفرنسية " المحاورة الأخيرة بين سارتر ودي بوفوار "[١] ؛ حيث يرد هذا الاعتراف الخطير على لسان سارتر زعيم الوجودية الملحدة : " أنا لا أشعر بأني مجرد ذرة غبار ظهرت في هذا الكون ، وانما أنا ككائن حسّاس تم التحضير لظهوره وأحسن تكوينه. أي بإيجاز ككائن لم يستطع المجيئ إلا من خالق ".

ويعقب الأنصاري : " هذه العبارة تنسف فلسفة سارتر الإلحادية من الأساس " ، ثم يختم مقاله بهذه الكلمات : " وبعد ؛ فهذا هو موقف سارتر في ساعة الحقيقة من الفلسفة ومن فلسفته الوجودية وكتبه الفلسفية التي كانت غذاء فكرياً هاماً لبعض مثقفينا قبل هزيمة حزيران ، والتي ما يزال البعض يكتب الآن تحت تأثير منطلقاتها العبثية ".

ثم ها هو الدكتور أحمد أبو زيد يذكر في مقال له بعنوان : " هل مات دارون حقاً "؟[٢] كيف أنه صدر في إنكلترا منذ شهور قليلة وفي أواخر عام (١٩٨١ م) كتاب يحمل عنواناً طريفاً هو (التطور من الفضاء) Evolution From Space ، قام بتأليفه عالم الفلك السير فريد هويل Sir Fred Hoyle وعاونه في ذلك أستاذ هندي يدرس الرياضيات في جامعة كارديف. ويعترف الأستاذان بصراحة في ذلك الكتاب بأنهما ملحدان ولا ينتميان لأي دين أو عقيدة ، وأنهما يعالجان أمور الفضاء وحركات الكواكب بأسلوب علمي بحت ، ومن زاوية عقلانية خالصة لا تحفل ولا تتأثر بأي موقف ديني. ويدور الكتاب حول مسألة احتمال وجود الحياة على الكواكب الأخرى ، ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات التطورية عن ظهور الحياة تلقائياً من الوحل الأولى (Primeval Soup) نتيجة لبعض الظروف والتغيرات البيئية.

ومع أن هنالك نظريات معارضة لهذا الاتجاه ؛ وهي نظريات ترى أن احتمال ظهور الحياة من هذه الوحل أو الطين الأولى لا تزيد عن ١٠:١ فإن هويل يرى بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة ، أن هذا الاحتمال لا يزيد عن ١٠:١: ٤٠٠٠٠٠ أي : واحد إلى عشرة أمامها أربعون ألف صفر ، مما يعني أنه لا تكاد توجد فرصة ظهور الحياة عن طريق التوالد التلقائي

---

(١) مجلة الدوحة ، عدد ٧٧ ، مايو ١٩٨٢ م.

(٢) مجلة العربي ، عدد ٢٨٤ ، تموز ١٩٨٢ م.

من هذا الطين ، وبالتالي فإن الحياة لا يمكن أن تكون قد نشأت عن طريق الصدفة البحتة ، وأنه لابد من وجود عقل مدبر يفكر ويبدل لهدف معين. وعلى الرغم من اعتراف المؤلفين الصريح – كما قلنا – بإلحادهما ؛ فإنهما لا يجدان أمامهما مفراً من أن يكتبا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان : (الله – God).

هل ثمة من داعٍ للتوضيح ، أو حتى للتعليق ، على الأنباء الثلاثة ؛ سوى أنها معاول أخرى تشهدها العقود الأخيرة من هذا القرن ، من بين عشرات ومئات ، وهي تنقض لكي تفتح الثغرات في جدار الإلحاد الأصم ، القاتم ، فتمنح الإنسان المعاصر الذي يغوص في الظلمة ، فرصة أكبر لمعانقة نور الله ، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها !؟

حدّقت طويلاً في ملامح وجهه لعلي التقط إشارة ما إلى تقبله هذا الذي ذهبت إليه ... فإذا بها وقد تغيرت ... تغيرت تماماً وكستها موجة من الأريحية والرضا ، وفارقتها حالة التوتر والانقباض الي جاءني بها في بدء لقائنا هذا ، فأحسست بقدر كبير من السعادة والارتياح ، حتى قبل أن اتلقى جوابه القاطع وهو يهم بالنهوض لكي يتركني مع أوراقي وكتبي ... وإذا به يقول : لقد حسمت الأمر أيها الأخ والصديق ، فليس ثمة بعد هذا السيل من الأدلة العلمية من زيادة لمستزيد ... لقد قطعت جهينة – كما يقول – المثل – قول كل خطيب ... سأرجع إلى داري وأبدأ رحلة جديدة مع الحياة ... رحلة لا تعكرها الشكوك والأوهام ، ولا تخترقها شياطين الإنس والجان ... رحلة سأعرف كيف أحياها آمناً مطمئناً سعيداً متوحداً ، وقد انقلبت على ماضي المترع بالتعاسة والشقاء !!

أردفت : ليس قبل أن نشرب كوبين من العصير أو الشاي نرطب بها حلوقنا التي جفّت من طول النقاش ...

رحب الرجل ... إذ ما لبث أن جلس ثانيةً لكي يلبي دعوة التوافق تلك !

(٢)

كنت كعادتي بين الحين والآخر ، التقي أحد أصدقائي فأمارس معه رياضة التخطي التي نقطع فيها المسافات الطوال ... نجتاز جسر الحرية الذي يربط جانبي الموصل ، ونوغل بعيداً باتجاه الجانب الآخر وقد أخذنا الحديث فأنسانا أنفسنا ، وأذهلنا عن كل ما يحيط بنا ويمّر حوالينا من مخلوقات !!

يبدو أن صديقي ذاك قد قرأ كثيراً في معطيات الفكر الغربي في جانبيه الرأسمالي والشيوعي ، وتأثر إلى حد الاقتناع الكامل بالنظرية الديالكتيكية التي ترى تاريخ الكون والعالم

صراعاً وتناقضاً من بدئه حتى منتهاه ، فراح يحدثني عن قناعاته تلك ، ضارباً الأمثلة المتلاحقة على صدق هذه الحقيقة ، التي يراها مؤكدةً ، كمفتاح لتفسير الحركة التاريخية على مستوى الكون والإنسان !!

انصت إليه طويلاً ، حتى إذا ما توقف قليلاً لالتقاط أنفاسه ، قلت له : لقد منحتك الوقت الكافي لتقديم قناعاتك هذه ، ألاّ يتحتم أن تمنحني شيئاً من الوقت لأن أحكي أنا أيضاً عن قناعاتي ؟

كمن يفاجأ قال : وهل ثمة ما يخرج عن هذا الذي قلته ؟

أجبته : بالتأكيد ، فنحن دائماً إذا أردنا أن نصل إلى الحقيقة ... إلى النتائج الصحيحة والعادلة لنقاشنا وجدلنا ، فعلينا أن نعطي الفرصة لوجهات النظر كافة ...

كمن أسقط في يديه قال : لا بأس ، فقل ما تشاء ، ولكنك لن تؤثر على قناعاتي هذه !!

أجبته : ليس من مهمتي أن أخرجك عن الدائرة التي اخترت أن تضع نفسك فيها ، ولكن أن أوضّح المسألة في جوانبها كافة كي لا يقع غيرك في أسارها ...

قبل أن يرد عليّ واصلت حديثي :

ليس تاريخ الكون والعالم صراعاً وتناقضاً كله ... كما تريد (الديالكتيكية) أن تقول ... فهنالك ما هو نقيض التصادم والصراع ... هنالك – أيضاً – حركة باتجاه الانسجام والتوحد والتوافق ... وهي تغطي مساحة واسعة في حركة الكون والعالم.

إن الرؤية الأحادية التي تأسر المنهج الديالكتيكي تقف عند جانب واحد ... صحيح أنه يحتل مكاناً واسعاً من التاريخ ، ويفسر مساحة كبيرة من الحركة ، لكنه ليس الجانب الأوحد ... فهنالك جوانب أخرى ، قد تكون نقيضة تماماً لمفهوم الصراع ، لكنها تشترك معه في تحريك العالم ... وتفسيره كذلك.

ومأساة الفكر الغربي ... والمعطيات الوضعية عموماً ... هي هذا التشبث بالكشف الأحادي ... هذا التشنج على جانب من المعرفة ، التي يتوصل إليها هذا المفكر أو ذاك ، والادّعاء بأنه الجانب الأول والأخير ... الجانب النهائي ...

فعلها ماركس ... وفعلها دركايم ... وهيغل ... وفرويد ... ودارون ... إلى آخره ... وسيفعلها عشرات بل مئات غيرهم ... ما دام أن من طبيعة السايكولوجية الوضعية – إذا صحّ التعبير – أن يتضخم إحساسها بالكشف المعرفي حتى يصبح ورماً خبيثاً يحجب الرؤية الموضوعية العادلة إلى جوانب المسألة كلها ...

ومهما يكن من أمر فإن ما يقوله الديالكتيك الماركسي ، إنما هو عرض لجانب واحد ، أما الجانب الآخر فيتمثل بالوفاق ، والتناغم ، والتعاطف ، والالتئام ، والانسجام ، أي : – باختصار – بتحرك متقابل ، وليس بتضاد متقابل ...

في الكون ... على مستوى السدم ، والنجوم ، والمجموعات الشمسية ، والمجرات ... يوجد الانشقاق والصراع ... والتفتت. ويوجد كذلك التجاذب ، والتجمع ، والتكاثف والدوران المتناغم ، والانسجام ... والحركة في الحالتين يمكن أن تجد تفسيرها وفق هذه الصيغة أو تلك ...

وفي المادة ... في صميم التركيب الذري للأشياء ... يوجد الانشقاق والصراع والتنافر والتفتت ... ويوجد كذلك التجاذب ، والتوازن ، والتناغم ، والانسجام ... وتجد الحركة في الحالتين تفسيرها كذلك ...

أما في الحياة البشرية ... في التاريخ البشري ... فإن الأمثلة كثيرة جداً بحيث يصعب على المرء أن يختار نماذج منها ...

فالحياة البشرية وفق مسارها الطويل ، والتاريخ البشري عبر تدفقه الدائم ، تجد مفاتيح حركتها ليس بالصراع المتضاد وحده ... بل ، وربما في مساحات أوسع ، في التجاذب والتجاوب والالتئام والانسجام ... والشدّ ... إن الانتماء إلى الدعوات أو المذاهب الكبرى ، التي غيرت التاريخ وصنعته في الوقت نفسه ... إنما هو مثل من عديد على قدرة التوحد على تحريك التاريخ ...

إن حركة الكون والعالم والطبيعة والحياة والتاريخ ... لهي – بشكل ما – أشبه بسيمفونية عظيمة ... لا تصنعها ألحان متغايرة ، متضادة فحسب ، أو متناغمة متآلفة فحسب ... ولكنها نتاج مرسوم للنمطين معاً ...

لمحت في موقفه شيئاً من الاقتناع بتحليلي هذا ، إلاّ أن تشبثاً بقناعاته سرعان ما أدار الحديث ، على ما يتناقله بعض الناس فيما يسمونه خطأ بجمود الإسلام ، أو بعبارة أخرى رجعيته. وتلك هي طبيعة الإنسان ، فعندما يجد نفسه وقد هزم في جانب من معركة الجدل ، سرعان ما يدير الحوار باتجاه ما يعتقده المناطق الرخوة من معطيات الطرف الآخر ... والغرض في كثير من الأحيان هو تأكيد (الذات) وليس تأكيد الحقيقة ! قلت :

يمثل الإسلام موقفاً في قمة حركة التاريخ ، لأنه دعوة لاكتشاف قوانين الحركة والتوافق معها ... ليس مع حركة التاريخ فحسب ... كما تسعى الماركسية ، ولكن مع نواميس الكون والعالم كله ...

ولو شعر المسلم الجاد أنه يقف في موقع ساكن ، أو رجعي ، لغادره مباشرة بمجرد أن يملك ذرة من ذكاء ... لكن قناعته تنبثق من كونه ينتمي إلى العقيدة التي تجعل له الإرادة الفاعلة في العودة بذاته وبمجتمعه وبالبشرية عموماً ... إلى طريق التوافق العظيم ، والتقدم – من ثم – بزخم كبير يتولد بالضرورة من التقاء الطاقات الإنسانية والمادية في إطار التوافق ... وليس تصادمها ... وتقاطعها ... وتفتتها ... التقدم إلى كشف أعظم ... وخطوات أوسع ... وبنيان أكثر ديمومة ورسوخاً يقام على هذه الكشوف ...

لو أن المسلم الجاد يشعر لحظة بأنه يقف في موقع رجعي أو ساكن ، لتخلى عنه توّاً ... لكنه يحسّ أنه يتحرك في قمة المسيرة التاريخية ... دائماً ... لأنه ملبّ لكلمة الله التي تقوده وتحدوه ...

ومن ، غير الله (سبحانه وتعالى) ، مَنْ يقدر على تحديد مواقع الرجعية ، والسكون ، والتقدمية ، الله الذي يعلو على مواضعات الزمان والمكان النسبية ، ويستشرف بعلمه المحيط صيرورة الكون ... والتاريخ ... والطبيعة ... والحضارات ؟

لقد تحدّث عشرات الوضعيين ، بل مئاتهم ، منذ عهد أرسطو وسقراط وأفلاطون ، وحتى عصر برغسون وديوي وتوينبي وسارتر ... مروراً بماركس وأنغلز وهيغل وبلاييف وغيرهم ... تحدّثوا عن مفاهيم الحركة ... وكل اتخذ موقفاً ازاءها ، وحدد على ضوء موقفه ما هو رجعي ، وما هو ساكن (ستاتيكي) وما هو حركي (ديناميكي) ... موقف يختلف بدرجة أو بأخرى عن مواقف الآخرين ... فمن منهم يا ترى يكون مصيباً ؟! ولماذا يكون ادّعاء العلمية والصواب المطلق حكِراً على هذا المفكر أو الفيلسوف ... أو ذاك ما داموا أنهم جميعاً أعملوا عقولهم ، من خلال قدرات نسبية ، ومعرفة غير كاملة بالحقائق ، ثم أصدروا حكمهم بعد هذا ؟.

ليس ثمة قول فصل في هذا المجال ... كما هو الحال في أي من مجالات الفكر الوضعي فيما يسمى بدائرة العلوم الإنسانية ، والتي يحلو لرجالاتها ادّعاء العلم المطلق ، واعتبار ما يطرحونه من فلسفات بمثابة كشف نهائي لسنن العالم والحياة ... على العكس من رجال العلم المختبري الذي علمتهم مناهج بحثهم العلمية حقاً أن يتواضعوا فلا يقعوا في مظنة الادّعاء !!.

والمسلم الجاد يرفض وصاية أحد من الوضّاعين ، ويرفض تصنيفهم الناس إلى رجعيين وسكونيين وتقدميين. كما يرفض تصنيفهم للحقائق والسنن والنواميس ، لأنهم كما يصفهم القرآن الكريم : ﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ... ﴾(سورة النجم ، الآية ٢٣).

والمسلم الجاد مقتنع حتى آخر قطرة من دمه ، وأعمق خلية في دماغه ... أنه يختار ، بإسلامه ، أكثر المواقع حركية وتقدمية في مسار التاريخ ونواميس الكون وخرائطه ... وأن

جهاده ، الذي هو بمثابة ثورة دائمة ، انما هو استراتيجية الحفاظ على هذا الموقع ، ودعوة الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها ... إلى اختياره ... وصدق الله العظيم : ﴿ ... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿ ٥٢ ﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴿ ٥٣ ﴾ (سورة الشورى ، الآيتان ٥٢-٥٣).

كالمندهش قال : ما كنت أتصوّر مطلقاً أن الإسلام يقدم هذه الرؤية التقدمية للمنتمين إليه ... لعل قراءاتنا في جانب واحد من الفكر البشري ، دون أن نولي أي اهتمام لقراءة ما يقرره الإسلام ، أصابتنا بما يشبه عمى الألوان ... منحتنا عيوناً عوراء تنظر دائماً إلى الجانب الواحد من الحقائق والأشياء ... وعلى أية حال فلقد منحني نقاشنا هذا فرصةً طيبةً للعودة ثانيةً إلى توزيع قراءاتي على جانب الفكر الغربي والإسلامي معاً ، فلعلي استرجع قدرتي على الابصار بعينين وليس بعين واحدة !

أجبته وأنا أحسّ بسعادة غامرة : هذا ما كنت أخمنّه فيك ، فانه ليصعب على الكثير من المثقفين أن يتنازلوا هكذا عن مواقفهم ، بحثاً عن الحق والتزاماً به ، وعلى أية حال فأنا أشكرك أجزل الشكر على موقفك الموضوعي هذا من جدلنا الطويل.

(٣)

كان صديقي معجباً أشد الاعجاب بالمعطيات والكشوف التقنية المدهشة للحضارة الغربية ، تلك التي زادت من تيسيرات الحياة في جبهاتها كافة ... وهيأت للناس سبل الحصول السريع على المعلومات والأشياء ، واختزال الزمن في الوصول إلى النتائج الضرورية ، ليس فقط لاستمرار الحياة ، وانما لسعادتها ، وتطوّرها ، ومضيها قدماً صوب ما هو أكثر صلاحية للحياة البشرية.

وطالما ضرب مثلاً مما يقدمه الاحصاء من نتائج منضبطة في هذا السياق ، ويحقق بقوة الأرقام والمعادلات الرياضية ما يشبه المستحيلات ، وما يمكن الإنسان المعاصر من الامساك جيداً بخيوط الرقي والتقدم على المستويات كافة نفسية واجتماعية ، بل وحتى قانونية وسياسية ...

ليس ذلك الصديق وحده من اتخذ من الاحصاء إلهاً يعبده من دون الله (جلّ في علاه) ... وانما هو خط طويل من أولئك الذين أسرتهم مفاهيم الاعلام المضللة فقادتهم إلى هذه الزاوية الضيّقة في النظر إلى الأمور !

قلت له يوماً ونحن ننتظر تناول غدائنا حيث كنت قد دعوته إليه : أحب أن أسألك يا هذا سؤالاً واحداً قد تكون الاجابة عليه إضاءة لما يعانيه العصر الراهن من تعاسة وشقاء رغم تقدمه التقني المدهش ... بأيهما يجب أن تكون البداية ، نقطة الانطلاق في صياغة الحياة : الاحصاء أم العقيدة ؟

أجابني بقدر كبير من عدم الاكتراث : لا علاقة مطلقاً بين الاثنتين !

قلت : أبداً ... فذلك هو مفتاح الموضوع بجملته.

قال : كيف ؟

أجبته :

في كل يوم تقوم أجهزة الإحصاء وشعبه المتخصصة في الدول المتقدمة ، بحملة علمية شاملة لإحصاء هذه الظاهرة أو تلك ، في مجرى الحياة المعاصرة الواسع ، المعقد ، العميق ... مستخدمة أدق الأجهزة الكهربائية (الكومبيوتر) ، وأحدث النظريات الإحصائية ، وأكثر الرجال تفرغاً وتخصصاً.

تجمع النتائج ... وتتعرض للفرز والفحص والدرس والتبويب والتحليل ... ثم تركز المحصلات النهائية للحملة الإحصائية في خطوط أو رسوم أو أرقام ، وتوزع على المؤسسات لكي تفيد منها في دراساتها ، أو تعلن على الناس لكي تيّسر لهم سبل الحياة ...

والناس ، رغم هذا كله ، ليسوا سعداء !!

عشرات الحملات الإحصائية تجري في السنة ... ومئات الحقائق يكشف عنها النقاب ... وآلاف المؤشرات تطرح ... وعشرات الآلاف من الأرقام توزع ... في محاولة من الأجهزة والمراكز الإحصائية لخدمة الحياة المعاصرة ، وترقيتها ، والكشف عن مناحي نقصها ، واضطرابها ، وعذابها ... بهدف العلاج ... ومع ذلك فأبناء هذه الحضارة المعاصرة ليسوا سعداء ...

اليوم تقوم حملة إحصائية في هذه الدولة أو تلك ... في هذا الإقليم أو ذاك ... في هذه المدينة او تلك ... للكشف عن عدد المدخنين ! ومقدار التبغ الذي يحرقونه في رئاتهم ... وأنواعه ... ومنحنيات الزيادة والنقصان في استهلاك السجائر لدى كل واحد منهم ... والأنماط الأكثر شمولية لهذه المنحنيات ، تلك التي تمنحنا عينات اجتماعية يقود فحص تعاملها مع الدخان إلى الكشف عن نتائج محددة ، ذات بُعد اجتماعي ، أو نفسي ، أو ... إلى آخره ...

تعلن النتائج ... وتوزع على كل من يهمه الأمر ... وتتلقفها الصحف والمجلات وأجهزة الإعلام ... فماذا تكون النتيجة الأكبر والأخطر ؟.

إن الناس يدخنون لأنهم ليسوا سعداء ، وإن المحاولة الإحصائية لم تفعل شيئاً سوى أن وصفت الظاهرة وحللت معطياتها ... أما الطرائق الجادة للتعامل مع الظاهرة ، وتحقيق نتائج نوعية لصالح الإنسان ... فهي مسألة صعبة للغاية ، يعترف الإحصائيون أنها ليست من اختصاصهم ... ويظل الناس ، من ثم رغم الحملات الإحصائية ، ليسوا سعداء ...

" قدمت حكومة ألمانية الاتحادية لبرلمانها منذ عدة سنوات – كما يحدثنا محمد الحديدي في كتابه : نماذج من الرواية العالمية – مشروعاً بتحديد شخصية كل مواطن ألماني بعدد يتكون من اثني عشر رقماً ، السنة الأولى هي تاريخ مولده باليوم والشهر والسنة ، والرقم التالي لذلك يدل على نوعه (ذكراً كان أو أنثى) ، والقرن الذي ولد فيه (طبقاً لجداول تحدد لذلك) ، ثم تأتي بعد ذلك أربعة أرقام تميز هذا الشخص بين من يشتركون معه فيما سبق من بيانات ، ثم رقم أخير للتصنيف. وذلك حتى يمكن استخدام الحاسب الالكتروني إلى ما بعد وفاته بثلاثين سنة حين يلفظه الحاسب الالكتروني ...

وينتظر أن يتم الأخذ بهذا النظام في سنة ١٩٧٥م[١] (!!) وقيل تعليقاً على ذلك : لقد سبقوا جورج أرويل بسبع سنين ، وذلك إشارة إلى الرعب الاجتماعي ، وانتهاء عصر الفرد الإنساني في رواية أرويل الشهيرة (١٩٨٤م). التي ينتظرها العالم بقلب خافق !! وهناك رواية مستقبلية جديدة لإيري ليفين الأمريكي ، تتناول المجتمع الإنساني عندما يبتلعه الحاسب الالكتروني في دوائره وتحويلاته وملفاته العديدة ، وقد أخذت الدول الاسكندنافية بهذا النظام فعلاً ".

وحاولت الولايات المتحدة يوماً أن تحرّم الخمر في طول البلاد وعرضها ، وحشدت لحملة التحريم طاقات إعلامية ، ومالية ، وبوليسية هائلة ... وكانت النتيجة أن فشلت الحملة وتراجعت الحكومة عن قرارها ...

وعندها انشغلت أجهزة الإحصاء بمقادير الورق التي استهلكت في الحملة الإعلامية ضد الخمر وأنماطها وصنوفها ، وفي عدد المعتقلين والمعاقبين ، ومدد محكومياتهم ، وأنماط سلوكهم ، والعينات الاجتماعية التي ينتمون إليها ... ثم ماذا بعد ؟ لا شيء ...

ظل الأمريكي يتناول الخمرة ... ثم تجاوزها إلى الحشيش والأفيون ثم تجاوزهما إلى الحقن والعقاقير ... ثم إلى أن يرمي بنفسه من الطوابق العليا لكي يغادر الحياة التعسة التي يحياها ... نشوان فرحان جذلاً ... ثم تجيئ موجات الدنس والقذارة الجماعية التي تكتسح الشباب في عواصم العالم الكبرى ... البيتلز والهايبيز والبانكيز ... و ... و ... إلى آخره ...

---

(١) ألف الحديدي كتابه المذكور قبل هذا التاريخ ، ونشره في العام نفسه (١٩٧٥م).

إن الإحصاء لا يفعل سوى أن يسلط الضوء على الظاهرة ... وأسارع فأقول إنها حقاً خطوة لها أهميتها الكبيرة ... ولكنها وحدها لا تكفي.

لابدّ من العقيدة أولاً ... وبعدها يجيئ دور الإحصاء ... والإحصاء وحده لا يفعل شيئاً ولا يعني شيئاً ...

أسمعتم عن رأي (توينبي) ، المؤرخ البريطاني المعروف ؟ إن أحد عوامل إعجابه بقدرة الإسلام الفذة على الفعل والتغيير هو تمكنه من تخليص أمة بأسرها من ظاهرة تعاطي الخمر ، تلك التي تمتد جذورها آلاف السنين ، وهو ما لم يستطع قانون أو دين أو نظام أن يفعله كما فعله الإسلام ؟!.

أقرأتم من المعجزة نفسها كيف تحققت ؟.

ثلاث آيات من القرآن الكريم فحسب تحسم الموقف لصالح الإنسان ... لا أطنان من الأوراق ... ولا مئات الملايين من الدنانير ... ولا عشرات الألوف من المعتقلين ... ولا مئات من المؤشرات الإحصائية والبيانات العلمية والمنحنيات !!.

ثلاث آيات من القرآن الكريم فحسب ... والمفتاح يكمن في العقيدة ... لقد أعطى الإسلام أتباعه عقيدة جادة تغلغلت في عقولهم وشراييهم ، حتى أصبحت الهواء الذي يتنفسون ، والدم الذي يجري في العروق ... وحينذاك كان بمقدور الرسول عليه السلام وهو يتلقى أمر الله ، أن يقول للمسلمين " إن الله يأمركم أن تكفوا عن شرب الخمر " ... ويومها فقط شوهدت دنان الخمر وهي تكسر ... والصهباء وهي تنساب على الأرض مختلطة بترابها ووحلها ... وشوهد بعض من دخل الخمر جوفه قبل دقائق أو ساعات يسعى جاهداً إلى تفريغ جوفه من الدنس ... لكي يتطهر كما أراد له الله أن يكون ...

ومرةً أخرى ... العقيدة أولاً ...

وبدونها ... فإن ألفاً من محاولات الإحصاء لن تفعل سوى أن تصف الظواهر وتصنّفها ... أما الناس فإنهم سيظلون – في الطرف الآخر – ليسوا سعداء !!.

أنصت الرجل إليّ باهتمام بالغ ، على غير عادته ، لكأنه راجع موقفه فرأى فيه ثمة خلل في ما بعض نسيجه ... ومن أجل المزيد من الاقتناع ، طالبني بأن أمضي في تحليلي للمسألة، علّه يصل في نهاية الأمر إلى موقف أكثر موضوعية واعتدالاً !

وجدتها فرصة طيبة لمواصلة الحديث فأردفت :

في عبارة وردت في مذكرات " لويس فيشر " الكاتب الأمريكي اليساري الذي كان يعد نصيراً للاتحاد السوفيتي عبر عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته ، نلتقي بالبعد الحقيقي للمشكلة التي تعانيها الحضارة الغربية في جانبها الشيوعي.

وأبادر فأقول بأنها حضارة واحدة ، ذات أسس واحدة ، ونسيج ذو خيوط واحدة ، وربما أهداف مادية واحدة ، وليس ثمة من فارق بين الجناحين الرأسمالي والشيوعي سوى في سياستي المال والعلاقات الدولية ، أي : استراتيجية العمل على نطاق العالم.

والآن فإننا نجد حتى هذه الفروق تتضاءل يوماً بعد يوم ، بل إن نقاط التماس والتشابه تزداد عدداً واتساعاً على خارطة العلاقات الديناميكية بين المعسكرين.

ويبقى نسغ الحضارة الغربية في الجانبين واحداً وإيقاعها واحداً ...

يقول " فيشر " وهو يعلق على مشاهداته الميدانية في الأرض السوفيتية : " لقد بدأ فكري يزعجني ، وبدأت أتساءل : ألم أكن أُمَجِّدُ الفولاذ والكيلو وات وأنسى الإنسان ؟ إن كل الأحذية والمدارس والكتب والجرارات والضوء الكهربائي والأنفاق الأرضية التي في الدنيا لا تساوي شيئاً إذا كان الجهاز الذي ينتجها فاسداً شريراً ".

وهذا الاستنتاج الذي يكثف خبرة أكثر من عقد من الزمن ، ويتمخض عن مشاهدات عالم شيوعي بأكمله ، ليس جديداً ، ونحن نعرف جميعاً ذلك المثل المعروف المنحدر إلينا – ربما – من عصور اليونان والرومان : " ماذا ينفع الإنسان إذا كسب العالم كله وخسر نفسه ؟! ".

ويتساءل المرء : هل ثمة " مستحيل " في تحقيق التوازن بين طرفي المعادلة ؛ العالم والإنسان ؟

ويتساءل للمرة الألف : لماذا يُصِرُّ الغربيون ، في النظرية والتطبيق ، على مبدأ " إمّا هذا أو ذاك "؟ إما الإنسان أو العالم ؟ لماذا لم يتجاوزوه إلى مبدأ آخر أكثر منطقية وعدلاً : هذا وذاك ، العالم والإنسان ؟

ها هنا في التجربة التي خبرها " فيشر " واستخلص من خبراتها استنتاجه ذاك ، نلتقي بإنتاج متزايد ومتطور للأحذية والفولاذ والجرارات والكتب ، وبتوسع مذهل في بناء المدارس والعمارات والمصانع والأنفاق الأرضية ، وفي اعتماد الكهرباء ... ولكن أين الإنسان ؟

إنه يكاد يضيع على خارطة التجربة المكتظة بالمطارق والمداخن ، والمصطكة بأزيز المكائن والآلات.

أداة من هذه الأدوات المنتشرة في المدن والأرياف تبذل جهدها المتواصل من أجل إنتاج مساحة أوسع من النسيج ، وعدد أكبر من قطع الغيار لتصديرها للخارج.

إنهم يقولون في واحد من شعاراتهم ذوات البريق : " الإنسان أثمن رأسمال " وعلى ما في العبارة من خطيئة بحق الإنسان لأنه لا يمكن أن يكون " رأسمال " بأية صيغة من الصيغ ، فإن الذي يحدث يناقض في الأساس هذا الشعار.

فمنذ اللحظة التي يقضى فيها على حرية الإنسان ... منذ اللحظة التي يصير فيها رغيف الخبز بديلاً عن الحرية ، منذ اللحظة التي يرغم فيها المواطن على التخلي عن أشواقه ومطامحه ، والتنازل عن ملامحه ونسيجه الخاص ، والتحول إلى مجرد رقم من الأرقام أو كائن مجرد ينتج ويأكل لكي يواصل مهماته الإنتاجية ... اللحظة التي يسهل أن يحل فيها " س " محل "ر " دون أي تغيير في إيقاع ماكنة الحياة اليومية ... منذ هذه اللحظة يكون الإنسان قد خسر نفسه ، حتى لو أنتج في اليوم الواحد ألف زوج من الأحذية ، أو نسج مئة ألف متر من القماش !!

والذي يخسر نفسه لا يمكن أن يساوي شيئاً ، فإن الحضارات يصنعها أولئك الذين " يجدون " أنفسهم ويعرفون كيف يضعونها فوق مستوى الماديات والأشياء ، أولئك الذين يقدرون في اللحظة المناسبة على اتخاذ القرار الحر الذي يتناسب ودورهم في العالم ككائنات متفردة تعلو على الضرورات وتتجاوز منطق الانقياد الأعمى ، والقطيعية والتسطح ...

ويعود السؤال الأبدي الذي يطرح نفسه مرةً أخرى : " ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟!".

ويكون الجواب ما سبق وأن قاله " فيشر " وهو يتجول في انحاء العالم الجديد الذي قيل : إنه يبنى من أجل الإنسان : " إن كل الأحذية والمدارس والكتب والجرارات والضوء الكهربائي والأنفاق الأرضية التي في الدنيا ، لا تساوي شيئاً إذا كان الجهاز الذي ينتجها فاسداً شريراً ".

ما لبث صديقي أن قال : لقد دعوتني لتناول الغداء في بيتك العامر ... وما كنت أظن أنني سأتناول غدائين في وقت واحد :

– كيف ؟

– ها أنت ذا تقدم لي قبل تناول الغداء الشهي أطباقاً أكثر إثارة للشهية من الطعام ... ولسوف ارجع إلى بيتي فأقول لهم انني قد تناولت ظهر اليوم وجبتين دسمتين من الغداء ... فبارك الله فيك !

(٤)

قررت يوماً أن أقوم مع ثلة من الأخوة والأصداء في رحلة ربيعية إلى منطقة الشلالات شمالي مدينة الموصل ، حيث يحلو لسكان المدينة أن يقضوا فيها أيام الجمع في موسم الربيع ... ينطلقون على سجيتهم فيلعبون ويتحدثون ويتناولون الطيبات ... ويتبادلون المقالب والنكات ، حتى إذا آذنت الشمس بالمغيب قفلوا عائدين إلى دورهم.

إنه التقليد الاسبوعي للموصليين عبر موسم الربيع كلّه ، ليست منطقة الشلالات الجميلة فحسب ، بل مناطق أخرى لا تقل عنها روعةً وجمالاً : دير ماركوركيس ، الجيلة ، جسر مندان، بعشيقة ، الشيخ عادي ، الحضر ، الخضر بساطلية ، النمرود ، بادوش ، الصيرمون وحمام العليل.

آه على تلك الأيام والمواسم المترعة بدفء المحبة والسعادة والفرح والانسجام ، ليس بين الإنسان وأخيه الإنسان فحسب ، بل بينه وبين الطبيعة والعالم والظواهر والأشياء ... انها كما أحب أن أسميها (الالفة الميتافيزيقية) التي تخرجنا عن دوّامة الحياة اليومية وروتينها القاسي ، وماديتها ، وتكاثرها بالأشياء ... إلى السماء الكبيرة ، والفضاء المفتوح ، ونبض الروح ، وخفقان الوجدان ... وتفتح الفكر والاحساس على كل ما هو جميل يومض بالتألّق والانبعاث !!

قلت لأصدقائي ، ونحن نفترش مكاناً ظليلاً تحت الأشجار الباسقة المنتشرة في منطقة الشلالات : لسوف نمارس هذا اليوم فنوناً من اللعب ، وألواناً من التسلية ، ونتناول أنواعاً من الطعام الموصلي اللذيذ ... ولسوف نتبادل الأحاديث والنكات ، ونقوم بجولات من التخطي الطويل على حافات البحيرة ، وعبر حدائق المنطقة الخضراء ... ولكن هذا كله لن يكفي ، فلابد من موازنة رياضة الجسد والحس ، برياضة الفكر والروح !!

قبل أن يسألني أحدهم عن قصدي أردفت : لسوف يحدثنا الأخ (.....) عن جانب من جوانب فكرنا الإسلامي الأصيل ، بما ينسجم تماماً مع البيئة الرائعة التي اخترناها لرحلتنا الشهية هذه.

أعرب الجميع عن سعادتهم بما عرضته عليهم ، وقالوا بلسان واحد : ما جئنا إلاّ لنستمع إلى هذا الأخ الذي يعرف كي يدهش الآخرين بكلماته !

لعبنا وتخطينا وتبادلنا الأحاديث والنكات البريئة والمقالب ، ثم انكببنا ، بعد أن قرصنا الجوع على ألوان من الطعام فالتهمناها التهاماً ، لكي ما نلبث أن نسترخي قليلاً تحت أشعة الشمس الدافئة ونتناول الشاي والمرطبات.

ها قد جاء دور غذاء الفكر والروح أيها الأخوة الأحبة ، بعد أن شبعنا من غذاء الحس والجسد ... أليس كذلك ؟

قالوا جميعاً بلسان واحد : بلى لقد آن الأوان ...

أشرت إلى الأخ (.....) أن يبدأ حديثه ، فما لبث أن اعتدل في جلسته قائلاً : ما دمنا نعيش ساعاتنا الممتعة هذه في أجواء رحلة ربيعية رائعة ، فليكن حديثي متوافقاً مع هذه الأجواء ...

نظرنا إليه جميعاً مستعجلين أن يبدأ حديثه ، فقال : حين تغدو الفيزياء تلاوةً وذكراً !! وما لبث كعادته التي ألفناها منه على مدى سنوات ، أن راح يتدفق في الحديث قائلاً :

هناك في طبقة أعمق من المعرفة أو الثقافة البشرية التي يحظى بها ويتألق عدد من المفكرين حيث يحدث – أحياناً – وأنْ يلتقي العلم بالمنطق بالإيمان بالفلسفة وفق نسب موزونة ، متداخلة ، فتكون كل كملة تقال أو عبارة تكتب ، ويكون كل حديث يروى أو كتاب يؤلف ، علماً ومنطقاً وفلسفة وإيماناً ... ويكون اللقاء الفذ بين المعادلة الرياضية والقانون الطبيعي والتعليل العقلي والتصور الذهني والنزوع الروحي ...

ويكون التعاشق ، المتفرد ، بين العقل والقلب والروح والوجدان ...

ويكون التقابل المؤثر ، الفاعل ، بين الله والإنسان ...

هناك في تلك الطبقة العميقة التي لا يسبر غورها إلا العقول الكبيرة التي تتجاوز خداع الحواس ، وتتأبى على الأسْر في حيّز المنظور والملموس ... العقول الكبيرة التي تعرف جيداً أن " المادة " لا تشكل جداراً نهائياً يصعب اقتحامه أو يستحيل ، وتدرك تماماً أنّ وراء الأسوار القائمة عالم وموجودات وحقائق لا تقل ثقلاً وحضوراً عما يتشكل ويتحرك عند أسفل الأسوار ، مما تراه الحواس ، إنْ لم تَفقهاً حضوراً وديمومة وفاعلية وتأثيراً ...

هناك في تلك الطبقة العميقة من المعرفة البشرية المستنيرة الكاملة يكمن ما يمكن اعتباره " الحكمة " العليا ، أي : حصيلة الجهد البشري في ميدان البحث عن الحق ... خلاصته المكثفة وجوهره المنتقى ...

حكمة ... لأن الحكيم يمارس من خلالها جمعاً لا تفريقاً ، وتوحداً لا تشتتاً ، وتوافقاً لا تبعثراً ، وشمولاً لا تجزؤاً ...

ولأن الحكيم يمتلك اللغة التي يستطيع بمفرداتها المتألقة أن يتعامل مع كتلة العالم المادية ونواميسها وسننها ، كما يخاطب في الوقت نفسه وبالمفردات ذاتها الجان والحيوان والملائكة والشياطين ...

ولأنه يعرف كيف يفجر ليس طاقات الإنسان والطبيعة ، وإنما طاقاته الذاتية المذخورة. فيحظى بما يبدو للوهلة الأولى عجائب ومعجزات وأسراراً ...

إنّ القرآن الكريم يقولها بصراحة : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾(سورة البقرة ، الآية ٢٦٩) فمن خلال المنظور القرآني القادم من عند الله العالِمِ ، المدبر ، الخّلاق ، القدير ، تبدو الحكمة قمة المعرفة ، ويظهر الحكيم كما لو كان بطل عصره ، لأنه المفكر المؤمن ... الفيلسوف والمتصوف : الرياضي والمتعبد ... لأنه الرجل الكامل الذي تعبر تجربته عن صيغة الوفاق المرتجى بين الإنسان وبين العالم والكون ، وهو الأمر الذي جاءت الأديان لكي تجعله أمراً مشهوداً في مجرى الحياة.

والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يقولها بوضوح : (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أّحقُ بها) ... ليست هذه المفردة أو تلك ، ولكنها كل المفردات محصلة العلم الشمولي الذي تكون فيه الكلمة رقماً رياضياً وتبتلاً ودعاءً وذكراً ...

إن المسلم ، انطلاقاً من البيئة الثقافية التي درج في أحضانها ... بيئة القرآن الكريم والحديث الشريف ، والمعطيات التي تمخضت عنهما في الزمان والمكان ، لا يحتمل – إن على مستوى التحليل العقلي أو الإحساس الوجداني – مأساة التفريق والثنائية هذه بين معطيات المعرفة ... لا يحتمل أن يكون العقل نقيض الإيمان ، أو أنْ يكون الجسد نقيض الروح ، أو أنْ يكون المنطق نقيض الدين ، أو أنْ تكون الفلسفة سلاحاً بوجه التقرب إلى الله !

إن المسلم ، عقلاً ، وروحاً ، ووجداناً يمتلك قدرة ذاتية عجيبة على تحقيق التوحّد ، والاندغام ، والتوافق بين هذه التكوينات المعرفية ذات المستويات المختلفة ، والتي حَوّلها الرجل الغربي ، ابن البيئة المادية ، أو العلمانية في أحسن الأحوال ، إلى أشتات وتفاريق ، وأّجج بينها الصراع والاقتتال.

واليوم يشهد التعامل الفيزيائي مع المادة ، والتوغل المختبري في تركيب الذرة ، ومحاولة السيطرة على كنه الطاقة ، والحركة ، يشهد هذا كله أمراً عجباً ...

لقد انهارت الأسوار وتساقط الجدار الصلب الذي اتكأ عليه العقل الغربي طويلاً ، وأدار ظهره للدين والغيب والماورائيات كافة ... انهار وتفتتّت حجارته المنظورة ، وطينه اللزج الهش اللبن ، فإذ بالتركيب المادي نفسه يقود إلى الغيب !! أو إلى ما يمكن اعتباره مدخلاً للغيب على أقل تقدير.

وإذا بالمعادلات الرياضية والفيزيائية تستحيل تعبداً وتلاوة وتسبيحاً وذكراً ...

وإذا بالذرات نفسها تعلن بلسان الحال عن تسبيحها للخالق المبدع ، المدبر (سبحانه وتعالى) ...

وإذا بفلسفة العلم التي هي حصيلة معطياته المستجدة ، وقانونه المكثف ، وتفسيره المركز، تعلن بوضوح لا تَّعلقُ به ذرة من غبار أننا أمام عصر سيعود فيه العلم لكي يرتمي في أحضان الدين ، بعد رحلة عذاب ونصب دامت القرون الطوال.

ولن يكون بعد اليوم سوى العقل المتدين أو الدين المتعقل ، فليس ثمة – بعد – ذلك الخصام والاقتتال بين تيارات المعرفة وطبقاتها ... ليس سوى التصالح والوئام ...

وتتألق " الحكمة " مرةً أخرى لكي تنير سبل العالم للمدلجين ، ويكون " الخير الكثير " الذي بشرت به كلمات الله !!

وما أن أتمّ كلامه حتى قلنا جميعاً بلسان واحد : بارك الله فيك على عرضك لهذه الرؤية الشفافة التي منحها هذا الدين للمنتمين إليه ...

قلت : لا يكفي إزجاء الشكر له على ما قدمه من عرض مبدع ، ولكن وكما يقول المثل : (من حرّك ساكناً لزمه) فلسوف نطلب منه عبر كل رحلة ربيعية قادمة أن يتحفنا بعروضه الفكرية هذه ...

ظل الرجل صامتاً وكأنه يخجل من موافقته على الاقتراح ... ولكننا الححنا عليه ، فما لبث أن أومأ برأسه وكأنه يعطينا الوعد بمواصلة الحديث ...

(٥)

دهشت وانتابني نوع من الاحساس بالقرف والاشمئزاز ، وأنا أتلقى رسالة من صديق عزيز يحضر للدكتوراه في احدى الجامعات البريطانية ، يرفق فيها صورة عن صحيفة (الصنداي ميرر) في عددها الصادر في الحادي والعشرين من مايس عام (١٩٧٨م) (الصفحة السابعة والثلاثون) تعلن بمانشيت عريض وخبر مفصّل عن استعداد الكنيسة الانكليكانية للقيام بإجراءات عقد الزواج المثلي بين أي رجلين يرغبان في ذلك ، وبدافع من شذوذهما الجنسي بطبيعة الحال.

كان مجلسا العموم واللوردات البريطانيين قد صوتا في أواخر الستينيات ، وبأغلبية كبيرة على شرعية الشذوذ الجنسي ، ثم ها هي الكنيسة تلحق بهما بعد عقد واحد فتبارك هذه الشرعية وتضفي عليها قداسة دينية !

قلت في نفسي : بعد اليوم لن تغدو العلاقة الشاذة بين رجلين ، أو شابين ، ساقطين ، مرذولة سافلة ، تقضي بالحكم عليهما بالموت ... جزاءً نكالاً ... بل أمراً مشروعاً معترفاً به قانونياً ودينياً ، ومن حق طرفيه – كذلك – أن يوثقاه لكي يصبح زواجاً أبدياً بين الرجل ... والرجل !!

هكذا ... وبهذه الوقاحة التي تدوس ، وهي معصوبة العينين ، شهوة وارتكاساً ، على بداهات القيم والأعراف الدينية والأخلاقية والاجتماعية ... والحضارية عموماً ...

وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى ... أن يصوّت مجلس العموم أو اللوردات البريطاني على شرعية الشذوذ الجنسي ... وأن تلحق بهما الكنيسة التي يفترض بها بداهةً أن تقاتل الدنس حيثما كان ، فتثور عليه ، وترفع السلاح بوجهه. وإذا كانت قد جُردت من أدوات القتال المادية ... فلا أقل من أن ترفع سلاح الكلمة بوجهه ... وما أكبر قوة الكلمة ، وقدرتها على الفعل ، والتحدي ، والتغيير ...

ولكن الذي حدث هو عكس هذا تماماً ... جاءت الكنيسة على غير استحياء لكي تعلن على الملأ في إحدى أكثر الصحف البريطانية شهرةً وانتشاراً ... وبالقلم العريض ... أنها تبارك زواج الرجال ... وبهذا تدخل ميدان المنافسة على توسيع نطاق الأنصار والمعجبين والأتباع ... بالخطيئة تريد أن تحقق انتشارها بين الجماهير ، وبهذا تبحر باتجاه مضاد تماماً لما فعله السيد المسيح (عليه السلام) وحواريوه الكرام ...

قد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى ... لكن المتتبع لأحوال ونزوات حضارة المادية والتكاثر ... حضارة الميل والظن والهوى ... الحضارة التي يصنعها ويقودها طواغيت العالم ومستعبدوه ، لن يجد في الأمر أية غرابة ...

إن الخطوتين المدنية الدينية ، للمؤسسات والتشريعات الكنسية لا تعدوان أن تكونا ثمرتين فاسدتين لشجرة قد تعفنت جذورها في الأرض ، والشجرة الخبيثة لا تنبت إلا خبيثاً ، ولا تعطي للناس إلا نكداً ... إن الأسباب كامنة هناك منبثة في كل مكان ... والنتائج مرهونة بأسبابها ... إن المرّ والعلقم لا يمنح حلواً طيباً ... لا يمنح إلا المرّ والعلقم ... وإن العمى لن يلد إلا ضلالاً ...

وإذا كنا اليوم نسمع بنبأ فاجر كهذا ، فقد كنا سمعنا من قبل بفضائح لا تقل فجوراً ، هزت يومها رئاسات وحكومات ومؤسسات كبيرة. ثم توالت حتى أصبحت إلفاً وتقليداً فلم تعد توصم بالفضائح ، ولم تعد تحدث هزات ولا ردود أفعال ... ولا سخطاً ... ولسنا ندري ما الذي سيحدث في مستقبل الأيام ، ولكن الذي سيحدث سيكون رهيباً حقاً ...

إن الحضارة الغربية اليوم ، أصبحت جسداً لا يملك روحاً ، ولا ضميراً ، ولا أخلاقاً ... أما الدين ... فسلام عليه ، والجسد الميت لن يحسّ أو يتألم حتى ولو انتهك شرفه في اليوم خمسين مرة !!

ومن قبل كانت الكنيسة الأمريكية ، وهي تدخل سباق التكاثر مع المؤسسات الدنيوية ، قد أدخلت إلى باحاتها وأروقتها الرقص والموسيقا والخمر والغناء ... إنها لا تريد أن يفلت الشباب المتعطش للمتعة والحياة من بين يديها ... لا تريد أن تمر عليها أيام الآحاد وليس في باحاتها إلاّ الآحاد !!.

أن المؤسسات الدنيوية تعجّ بالرواد والمتعاملين ... تقودهم إليها من بطونهم وفروجهم ... فلتستخدم الكنيسة السلاح نفسه ... وإذا كانت في الماضي القريب قد تقدمت لقيادتهم من بطونهم ... فها هي اليوم تتقدم لقيادتهم من [...] **ولا حول ولا قوة إلا بالله !!.**

قبالة هذا العفن والفساد الذي يكتسح العالم كله ، بمؤسساته الدينية والدنيوية ، مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم ، الآية ٤١) ، تنتاب الكثير من الناس نزعة طاغية من التشاؤم الذي يكتسح بعض المؤمنين أنفسهم وهم ينظرون إلى معطيات العصر الراهن ومعادلاته تتحرك باتجاه مضاد للإيمان ، بدءاً من صيغ الدمار والتحلل الخلقي ، وانتهاء بالنظريات والمذاهب والعقائد التي ترفض الإيمان ، وتلغيه من الحساب ، تسندها في ذلك المؤسسات والنظم والحكومات.

وهم يقولون بأن ضغوط التيارات المضادة للإيمان هائلة حقاً ، ساحقة بمعنى الكلمة ، وهي تسعى بإصرار وحماس إلى جر المؤمنين كافة إلى هاوية التفكك والتحلل والإلحاد ...

ولكن هؤلاء لا ينسون أن الإيمان يمتلك من نقاط الجذب والقوة وعناصر التحصن والصمود ، والقدرة على التأثير والكسب ما يجعله – بحق – يقدر على مجابهة تلك الضغوط المضادة ، يوازيها أحياناً ، ويتفوق عليها أحياناً أخرى ، ويمضي من ثم إلى هدفه ، غير مكترث بكل عوامل الإعاقة التي تضعها في طريقه معطيات العصر وفلسفاته ونظمه ومؤسساته وسلطانه ، جاذباً إليه باستمرار ، العناصر الشابة ، مانحاً إياها الثقة والتوازن واليقين الذي ما حصلت على عشر معشاره وهي تتخبط هناك ...

وحقيقة " الآخرة " وما يرتبط بها من " بعث " و " حساب " ، ثم " عقاب " و " ثواب " لهي واحدة من أشد نقاط القوة والتأثير والجذب في بنية الإيمان.

وإنه لتقابل مؤثر محسوب لصالح الإيمان ... تقابل بين الخلود وبين دنيا فانية ، زائلة تؤكد الأيام تفاهتها ، وانحسارها ، وعدم قدرتها على منح السعادة الحقيقية للإنسان.

تقابل بين النعيم والجحيم ... بين الجنة والنار ... بين رضا الله (سبحانه وتعالى) وثوابه وبين سخطه وعقابه ...

والإنسان الذي يملك ذرة من ذكاء يجد نفسه ازاء هذا التقابل بين الأبدي والفاني ، والامتداد والانقطاع ، والنور والظلمة ، والله والطاغوت ، مندفعاً لاختيار الموقع الأول الذي يتحقق من خلاله بما لا يمنحه إياه الموقع الثاني المُترَع بالملذات العابرة الرخيصة ، المنصرمة والتي لا تخلف وراءها سوى التعاسة والمرارات.

وليس هذا من قبيل الكلام الذي يقال لكي تتعزى به النفوس المتشائمة ، ولكنه التجربة المتحققة والواقع المشهود في كل مكان وزمان ، بل في عصرنا هذا الذي يتميز بحصاره القاسي لمواقع الإيمان ، ومطارداته العنيفة الشرسة للمؤمنين.

فبنظرة عابرة إلى الجوامع والمساجد ، عَبْر واحدة من الصلوات الخمس ، يمكن للمرء أن يلتقي بحشود من هؤلاء الذين تجاوزوا مواقعهم الدنيوية ، رغم بهرجتها وإغرائها ، وأووا أخيراً إلى حظيرة الإيمان ...

كيف ، ولماذا ، وهم بعد في عز الشباب حيث يخيل للإنسان أن الدنيا لا تزال بعد تعد بالكثير ، وإن التفكير بالآخرة لم يأن أوانه بعد ؟

والجواب يكمنُ ، ببساطة ووضوح يصلان حد التألق ، فيما يملكه الإيمان بمواجهة تحلل العصر وضياعه ، وفيما يقدر على تقديمه في دنيا أخذت تقدم هي الأخرى الكثير ، بعد أن أمدتها الحضارة المعاصرة بألف فرصة وفرصة لتقديم هذا الكثير.

والحق أن الإيمان يثبت يوماً بعد يوم أنه لا يقل قدرة على العطاء ، إن لم يفق ما تقدمه الدنيا ، وكل الذين يتذرعون بها لوقف حركة الإيمان في العالم.

إن زمننا الحديث ، رغم فرصه ومتعه وملذاته ، ورغم الأردية والديكورات المثيرة التي يتقدم بها للإنسان كي يضله ويغويه ، فإنه يسلط في الوقت نفسه من الضغوط التي تتميز بالعنف والقسوة ما يستل من الإنسان كل فرص السعادة ويسوقه إلى التمزق والتفتت والدمار.

ويجيئ الإيمان لكي يعد الحيارى والضائعين باسترداد توحدهم المفقود ، ولكي يقدم لهم – فيما يقدمه – التوازن والأمل والاطمئنان واليقين ...

يجيئ لكي يفرمل اندفاعهم المجنون ؛ فلا يتهافتون كالذباب على كل ذي لزوجة ويموتون هناك متخمين ، ضائعين ... لكي يقول لهم : هذا حلال وهذا حرام ، فيحفظ طاقاتهم ، ويكفهم عن اللهاث الأعمى وراء الملذات ...

يجيئ لكي يقودهم ثانيةً إلى حمى الله ، إلى أمنه ومحبته وخشيته ورضاه ، فيمنحهم الفرح الحقيقي والسعادة التي تعلو على السعادات.

وإنها – بحق – لنقاط جذب مشعة لا يمكن لقوة في الأرض أن تطفئ نورها المتألق ، أو تعتم على جمرها المتوقد.

وبمواجهة ألف من ضغوط العصر الحديث ، بمواجهة كل عوامل الارتداد ، والتحلل ، والإلحاد ، يقف الإيمان منارةً مضيئة وسط ظلمة العالم لكي يدل الحيارى والتائهين على الطريق.

ولحسن الحظ فإن غريزة حماية الذات ، وتطمين المستقبل البعيد ، لا تزال ، وستظل ، تعمل عملها في سلوك الإنسان.

وهي التي تقول له : إنك إذا أردت ألا تضيع إلى الأبد ، فعليك بالمنارة التي على هدي ضوئها المتألق تنجو من الهلاك !

ولسوف تظل تلك المنارة ترسل أضواءها ، عبر هدير الأمواج ، وصخب البحار والمحيطات وظلماتها ، لكي تدل التائهين والحيارى على الطريق ، وتنقذهم ، بخطابها الايماني المؤثر ووعدها العميق ، مما يتخبطون فيه عبر مسالك الدنيا التي كاد أن يضيّعها الوضاعّون من شياطين الإنس الذين يمسكون اليوم برقبة العالم وأعناق البشرية في كل مكان ، فيسوقونها إلى زرائب الحيوانات وحظائر الأغنام والأبقار ، ويدفعونها دفعاً إلى الانكباب كالسوائم والعجماوات على التهام أكداس من التبن والشعير ، ومسافدة بعضها بعضاً ، لكي ما تلبث أن تغط في نوم عميق !!

(٦)

عبر جلسة حوار هادئ في ستينيات القرن الماضي مع أحد أساتذة التاريخ الإسلامي في كلية الآداب التي أمارس تدريسي فيها ، ادّعى الأستاذ قدرة الإنسان التي لا يصدها شيء عن معرفة سرّ الحقائق والأشياء ، وضرب لنا مثلاً بالكشوف المدهشة التي حققها العلم الحديث ، ثم ما لبث أن راح يؤكد مصداقية رؤيته بعلمية الفكر الماركسي ، ورفضه المطلق للغيب والضبابيات التي تلبست بها جملة الأفكار والمعطيات الدينية التي تقف والعلم الصارم على طرفي نقيض !!

أنصت إليه طويلاً وهو يصب في رأسي قوالب الماركسية المعهودة ، رغم أن دراسته كانت في احدى الجامعات الأمريكية ، فيما يدفع إلى التساؤل عن مصداقية موقفه وألا يكون من قبيل التمثيل الذي يحاول به عملاء الولايات المتحدة أن يضللوا به خصومهم في كل مكان !

كانت مداخل الردّ على مقولاته حاضرة في ذهني ، وهي كثيرة النوافذ والأبواب وكلها تدحض بما لا يقبل لجاجةً ولا جدلاً مقولات الماركسية ، التي ما لبثت أن تبيّن بعد عقدين من الزمن تهافتها ورجعيتها وعدم توافقها مع المعطيات المتجددة للعصر الحديث ، ولذا انسحبت من التاريخ وأصبحت خبراً من الأخبار ...

لكني أردت أن أدلّل على عجز الفكر البشري عن معرفة المطلق ، وقدرته على الكشف عن الحقائق كافة ، فاخترت أن انطلق في حواري معه من واقعة موسى (عليه السلام) والخضر لتأكيد هذا الذي ذهبت إليه.

ففي حوار موسى والخضر (عليهما السلام) – الذي نطالعه في سورة الكهف – عرض مؤثر للعجز البشري ... لعدم قدرة الإنسان على معرفة المطلق ، وإدراك ما يخبئه له الغيب ، وسبر طوايا المجهول ... أياً كان هذا الإنسان ... نبياً ... أم بشراً عاديّاً ...

فها هو موسى النبي ، الذي اختاره الله لأداء رسالته ، وأنزل عليه الألواح ... ها هو ذا يعلن عن عجزه عن معرفة المطلق ، واختراق جدار المجهول ... بل يتواضع أكثر من هذا ويطلب مزيد علم من الرجل. قال له موسى : ﴿ ... هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ (سورة الكهف ، الآية ٦٦) ، يجيبه الرجل : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴿٦٨﴾ (سورة الكهف ، الآيتان ٦٧–٦٨) ويرد موسى وهو يتلهف للمعرفة: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ (سورة الكهف ، الآية ٦٩) الصبر على التعلم ... والالتزام ... تلك هي القيم التي يعلن موسى أنه سيأخذ نفسه بها. فينصحه الرجل: ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ (سورة الكهف ، الآية ٧٠).

وتبدأ التجربة ... ويمارس الرجل أمام عيني موسى أفعالاً تبدو في ظاهرها خطأً فادحاً ، وعملاً لا معقولاً منافياً للحق والعدل : خرق السفينة ... قتل النفس ... إقامة الجدار في القرية التي رفضت أن تضيفهما ... وفي أعقاب كل عمل يتجاوز موسى حدود الصبر الذي قرر أن يأخذ نفسه به ويصرخ معترضاً على أفعال الرجل ... لأنه عاجز من معرفة الوجه الآخر للعمل ... المغزى الحقيقي الغائب عن النظرة الأولى ... وفي كل مرة يذكره الرجل : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً ﴾ (سورة الكهف ، الآية ٧٥) حتى إذا أوشكت التجربة على الانتهاء ، بين رجلين يعرف أحدهما الكثير مما علمه الله ، ولا يعرف ثانيهما ، رغم كونه نبياً ، سوى القليل مما يعرفه الأول ... يقول أولهما : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾

(سورة الكهف ، الآية ٧٨) وما يلبث أن يكشف له عن الأسباب الحقيقية لأفعاله تلك : الإغراق ... القتل ... إقامة الجدار ... ويختتم حديثه قائلاً : ﴿ ... وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾(سورة : الكهف ، الآية ٨٢) ثم يختفي.

كثيرة هي القيم والتعاليم التي منحنا إياها هذا العرض المركز ، الموحي ، المثير ... إن علينا أن نتواضع فلا ندعي الإحاطة بعمل كل شيء ... وعلينا أن نصبر على مشقة السير في طريق المعرفة المتعرج الطويل الذي لا يمنح أسراره بسهولة بالغة ... وبالمجان ...

وعلينا ، قبل هذا وذاك ، ألا نتسرع في إصدار أحكامنا على الظواهر والممارسات والأفعال ... أن نصبر على دراستها وفهمها ، وأن نطيل الوقوف حواليها ، لكي نتبين الأوجه الأكثر خفاءً للظاهرة ، والأسباب الأبعد والأعمق للفعل ... فلا نقع في خطيئة الحكم بالظن وما تهوى الأنفس ...

إن القرآن الكريم يريد أن يضرب مثلاً بواحدٍ من الأنبياء المعلمين الكبار أنفسهم ... لكي نطامن من كبريائنا ، ونعرف حجمنا الحقيقي ، ونقلل من ادعاءاتنا ... وصلفنا ... وغرورنا ...

وبمجرد التفاتة إلى عدد من (كبار) الفلاسفة الغربيين ، وإلى الادعاءات التي أحاطوا بها نظرياتهم فجعلوها حقاً مطلقاً ، وعلماً شاملاً ، وإحاطة كاملة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وبمجرد أن نتذكر أساليب القسر الفكري والمادي التي سعت بعض السلطات لتنفيذ هذه الفلسفة أو تلك عن طريقها ...

بمجرد أن نتذكر هذا وذاك ... نعرف ماذا يريد القرآن الكريم أن يقوله لنا ... وكم من المآسي والمصائب والويلات يريد أن يجنبنا إياها بكلماته المعجزة ...

قال الأستاذ : وقد أحرجه تحليلي هذا : مع ذلك ... مع ذلك ... فان ما يقوله القرآن ليس بالضرورة حقائق مطلقة !

أجبته وقد اكتسى وجهي ملامح السخرية : وما يقوله ماركس هو الحقائق المطلقة ؟

أجاب مدارياً موقفه : لا ... ليس إلى هذا الحدّ ، ولكنه على أية حال ينطلق من زاوية علمية تعرف كيف نضع النقاط على الحروف !

نهضت قائماً وأنا أقول له : انكم يا ادعياء الماركسية اعتقلتم أنفسكم وعقولكم في إسار عقيدة فاسدة ستكشف الأيام والسنين عوارها ، ورحتم ترددون كالببغاوات كلائشها ومقولاتها ، رغم أن هذه الكلائش والمقولات إذا كانت صالحة للقرن التاسع عشر ، فانها غير صالحة على

الاطلاق للقرن العشرين ... وتركته وأنا أردد مع نفسي : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبصَارَهُمْ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴿٢٤﴾ (سورة محمد ، الآيتان ٢٣-٢٤).

(٧)

جمعتني في احدى مقصورات القطار الذاهب إلى بغداد بمسافر آخر ، لحظت في ملامح وجهه قدراً من القرف والاكتئاب وعدم الارتياح ، فقلت في نفسي لاستدرجه إلى حديث متبادل لعلي أخرجه من دائرة كآبته تلك.

عرّفته بنفسي فإذا به يقول : وأنا كذلك أمارس التدريس ولكن في الاعداديات ...

- وفيما تخصصك ؟
- تخصصي فرض علي فرضاً بسبب معدلات القبول ، فأنا لست من عشاق الجغرافيا ولكنها الاقدار التي ساقتني إليها ...

أردت أن أجامله لكي اقترب منه أكثر فقلت له : أبداً فان الجغرافيا تخصّص رائع ، ألم تسمع المقولة المعروفة بأن الجغرافيا توجه التاريخ ؟

- بلى سمعتها كثيراً وطالما ضرب المثل على مصداقيتها بالهزائم النكراء التي أصيب بها كل من نابليون بونابارت وهتلر على أيدي البرد والجليد والزمهرير حيث قضي على نصف مليون جندي لأولهما وثلاثة ملايين لثانيهما !
- جيّد ... فإذن هنالك مجال واسع لتحويل دروس الجغرافيا إلى ابداع متواصل ... ونحن في تاريخنا الإسلامي نجد كيف أن الجغرافيا ، وليس الصراع على الغنائم كما توهم المتوهمون هي التي أودت بمحاولة عبد الرحمن الغافقي من الوصول إلى باريس ...

لحظت شيئاً من الانفراج على ملامح وجهه ، واستمر الحوار بيني وبينه عبر مسالك متشعبة كلها ترتبط بالعلاقة بين التاريخ والجغرافيا ، أي بين الزمن والمكان ...

وما لبث الرجل أن توجه إليّ بالسؤال التالي : ولكن قل لي من ينصع التاريخ ؟

فاجأني بسؤاله ، وقبل أن أرتب أفكاري للإجابة عليه ، بادرني بقوله : أليس ما يقوله الماركسيون صحيحاً من أن الذي يصنع التاريخ هو الجماهير وليس القادة أو الزعماء.

وجدتها فرصة مناسبة لاختراق هذه المقولة الخاطئة كالقول – في المقابل – بأن البطل هو الذي يصنع التاريخ ، وان استمد من كتاب الله الموقف الأكثر مصداقية في تفسير الوقائع التاريخية ... ولكني ما لبثت أن تذكرت نزقه واكتئابه وقلة صبره ، فقلت له : لسوف أجيبك على

سؤالك هذا شرط أن تعطيني الفرصة الزمنية التي قد تستغرق عشر دقائق أو ربما أكثر قليلاً ، وألا يزعجك ذلك ...

أدهشني أن أجده يبش بوجهه وهو يقول : لك كل الحرية في أن تستغرق من الوقت ما تشاء فأنا أريد أن اسمع منك شيئاً عن الموضوع !

﴿ ... وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾(سورة المؤمنون ، الآية ٧٠).

تلك هي مقولة كثيراً ما نقرؤها في كتاب الله ... ومعنى هذا – بالمقابل – أن القلة هي التي تتخذ – في معظم الأحيان – موقف (الحق) فتلتزمه ، وتدفع عنه ، وتبشر به ... ومعنى هذا – كذلك – أن هذه القلة الرائدة ، طليعة الحق ، هي التي تغير التاريخ ، وتصنع التاريخ ...

هل هو موقف بورجوازي أو طبقي يقف ضد الجماهير ، ويغمط دورها الكبير في حركة التاريخ كما يحلو للتفاسير المادية أن تقول ؟.

أبداً ... فالكثرة الكارهة للحق غير محددة الانتماء الطبقي في القرآن الكريم ، والقلة الرائدة غير محددة طبقياً هي الأخرى ... والإنسان هو المعني أولاً وأخيراً ، سواء كان في هذا الصفّ أو ذاك ، وبغض النظر عن انتماءاته الطبقية على الاطلاق ...

على العكس ، إن القرآن الكريم يشن حملته المعروفة على الأغنياء المترفين ، ويصمهم بأنهم طليعة من يقف بمواجهة الحق في كل زمان ومكان : ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴿٢٥﴾(سورة الزخرف ، الآيات ٢٣–٢٥) ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴿٣٥﴾ (سورة سبأ ، الآيتان ٣٤–٣٥)، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾(سورة الإسراء ، الآية ١٦).

ويعلن – في المقابل – في أكثر من مكان عن أن الكثيرين ممن انتموا للإسلام ، أول الأمر كانوا من المنبوذين والمستعبدين ، فليس ثمة اعتراض في هذا المجال : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ... ﴾(سورة سبأ ، الآية ٣٣) ، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ... ﴾(سورة سبأ ، الآية ٣٧) ،

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾(سورة الشعراء ، الآية ١١١) ، ﴿ ... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ... ﴾(سورة هود ، الآية ٢٧).

والسؤال الذي يبرز بدلاً من هذا هو : هل أن القلة الطليعية أو الرائدة ، التي تلتزم الحق وتبشر به ، هي التي تصنع التاريخ حقاً ، بما رُكب فيها من استعداد ذهني ونفسي وأخلاقي للانتماء إلى معسكر الحق ، والانضواء تحت لوائه ؟ هل إن الفئة التي تختار جانب الحق هي دوماً (القلة) إزاء حشود الكثرة التي ترفض الحق وتقاومه ؟.

إذا تجاوزنا التشنج المذهبي ، والتنظير المتوتر ، والادعاءات اللاعلمية التي تلبس لبوس المواقف العلمية ، لتحقيق كسب شخصي أو فكري ما ، وجئنا إلى التاريخ نفسه ، فإننا سنعرف من وقائعه المزدحمة ، وشواهده التي لا يحدها عدد أو حصر ، صدق المقولة القرآنية ... إنه ما من حركة في تاريخ البشرية ، بشرت بحق أو دعت إليه ، إلا كان المنتمون إليها ، أيام المحنة والعطاء ، أقل بكثير من رافضيها ومعارضيها ... ونحن لا نتحدث هنا عن الحركات أيام انتصارها حيث يختلط الأصيل بالدخيل ، ويلتبس الذهب بالتراب ، وتنضوي الآلاف المؤلفة رهباً أو رغباً ... ولكننا نتحدث عنها أيام العذاب والمطاردة ، والرعب والغربة والاضطهاد ... القلة هي التي تنتمي والكثرة ترفض وتقاوم ... حتى في تاريخ الحركات (الجماهيرية) نفسها ... فلولا القلة الرائدة ما أتيح لها أن تفعل شيئاً ، رغم أن الكثير من هذه الحركات قامت على الزيغ والضلال ، وسعت إلى تحقيق منافع شخصية أو مذهبية أو عرقية على حساب الجماهير ...

ثم إن هذه القلة هي التي تصنع التاريخ ... فالمسألة ليست مسألة أعداد وأرقام ، وإنما مسألة القدرة المكثفة على الفاعلية والتغيير. والرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) يحدثنا عن اليوم الذي ستغدو فيه الأمة الإسلامية قصعة للآكلين ، وقد غدت فعلاً ، ليس عن قلة ، فهم غثاء كغثاء السيل ، ولكن عن غياب لقوى الفعل والمجابهة والتغيير في نفسية الإنسان المسلم ... والقرآن الكريم يضرب مراراً وتكراراً قاعدة الأرقام هذه ويستبدلها بقاعدة الفعل التاريخي النوعي لا الكمي : ﴿ ... إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾(سورة الأنفال ، الآية ٦٥) ، ﴿ ... فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(سورة الأنفال ، الآية ٦٦).

حتى بعد حقبة الانتصار ... وانضمام الأكثريات الجماهيرية إلى الحركة التاريخية ، فإن قيادة الحركة ، وتوجيه الطاقات الجماهيرية للتغيير التاريخي ، تبقى مسألة مركزية تتمثل بالقلة الرائدة التي تبنت الحركة ، وكانت عمودها الفقري ، وفكرها وروحها ونسغها الصاعد ...

إن ثمة حقيقة كثيراً ما نلحظها في تجربة الحياة البشرية ، تلك هي أن بعض الظواهر والقوانين التي تسري في عالم الأشياء وتحكمها ، قد تنسحب إلى نطاق الحياة نفسها ، بهذا الشكل أو ذاك ... وها هنا ، بصدد الانتماء إلى الحق ، والاستعلاء به ، ورفض العرف الجاري والعادات المتواضع عليها والأخلاقيات السائدة ، نعرف لماذا يكون : ﴿ ... وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾(سورة المؤمنون ، الآية ٧٠) إنه قانون الجاذبية ، الشد إلى أسفل ، ميل الأجسام الثقيلة إلى الهبوط والالتصاق بالأرض ... ففي عالم الأشياء تميل الأجسام الثقيلة إلى الهبوط ، وكلما ازدادت ثقلاً كانت أسرع في هبوطها وأشد التصاقاً بالأرض ...

إن الدعوات الجديدة هي بمثابة محاولات ناهضة للارتفاع إلى فوق ... للانشقاق على وضع تاريخي بكل ما يملكه من شد إلى أسفل ... بكل ما يمنحه من ثقل للجماعة البشرية يدفعها إلى الهبوط والالتصاق ... وقليل هم أولئك الذين يطيقون تجاوز الشدّ والأثقال ، والانطلاق من أسرها الباهظ إلى فوق.

أن تجعل قطعةً من الحجارة أو الورق تسقط من مكان عالٍ إلى الأرض أمرٌ في غاية السهولة ... لكن أن تصنع طائرة أو صاروخاً تتجاوز شد الأرض وجاذبيتها ، وتنطلق إلى أعلى لكي تحلق في الفضاء البعيد ، فذلك هو الأمر الصعب الذي لم يستطع تحقيقه إلا قلة من العباقرة والمهندسين.

في عالم العقائد والأفكار والدعوات ... فإن القلة فقط هي التي تستطيع تجاوز الأثقال والأوهاق ، وتحدي منطق الجاذبية ، والتحقق بالحرية ، والانطلاق إلى السماء ... أما الأكثرية الساحقة ، الأكثرية التي لا تملك ، لأسباب تاريخية ، نفسية وذهنية واجتماعية وأخلاقية ، يطول شرحها ، أن تبذل جهداً للانشقاق والصعود ، فتميل دائماً لأن تهبط ، وتلتصق بالأرض ، وتلوي رأسها لشدها وضروراتها ...

وليس شرطاً أن تكون القلة أو الكثرة ، من هذه الطبقة أو تلك ، ففي المنطوق الإسلامي ، تزول حواجز الطبقات وتتهاوى جدرانها ... والذي يتحرك تاريخياً هو الإنسان أياً كان موقعه ... فقيراً أو غنياً ...

في عصر الدعوة الإسلامية انتمى إلى النداء القرآني مجموعة من الرواد كان فيهم الغني وكان فيهم الفقير ... والمسألة ليست مسألة فقر أو غنىً ، ولكن مسألة قدرة بني آدم على تجاوز شد الأرض والانطلاق ، متحررين خفافاً ، إلى السماء !!.

ما أن أنهيت كلامي حتى وجدت الرجل يقول لي : لقد كفيت ووفيت أيها الصديق العزيز : ولسوف اعرف كيف أوظف تحليلك هذا في محاضراتي على الطلبة.

شكرته أنا الآخر على حسن اصغائه ، واستلقى كل منا على سريره ، بينما راحت عجلات القطار تعزف وهي تضرب سكة الحديد ، لحناً يعرف كيف يجلب النعاس إلى عيون المسافرين ...

(٨)

كان معي في قسم التاريخ بكلية الآداب زميل مختص بالآثار القديمة ، وكان من أولئك المنبهرين بمجال تخصصهم ، ويرى أن كلمة القطع والقول الفصل في الوقائع التاريخية انما هو لعلم الآثار باعتباره يعالج معطيات مادية منظورة في معظم الأحيان ، لا تقارن بما يقدمه علم التاريخ الذي يقوم في معظم مساحاته على الظن والتخمين والمرويات التي يصعب الوصول بشأنها إلى اليقين المطلق.

جمعني يوماً لقاء به كنت انتظره بفارغ الصبر لكي أناقشه في مقولته تلك ، وقبل أن يبدأ الكلام بادرته بالقول بأنني اعرف تماماً ما سيقوله ، فلقد نقله لي بصفة التواتر عدد كبير من الزملاء ... لقد كنت تتساءل دائماً عما تعنيه تلك الحملة الشاملة المتشعبة المؤكدة في أكثر من موضع والتي شنها القرآن الكريم في مساحات واسعة من سوره وآياته على اليهود ، وكنت ترى في ذلك أن القرآن الكريم قد عطف بذلك على اليهود وأعطاهم حجماً أكبر من حجمهم الحقيقي ، ودفعهم إلى نقطة الضوء بتمجيده أنبياءهم !!

أجابني بالاعتداد الذي عرف عنه : بكل تأكيد فلقد أعطاهم القرآن الكريم منزلة أكبر بكثير مما يستحقونه ...

قلت له : على رسلك يا هذا ، ودعني أناقشك في اثنتين من مقولاتك التي طالما رددتها بين طلابك وزملائك ... أولاهما موقف القرآن الكريم هذا من اليهود وثانيتهما يقينية علم الآثار !

أراد أن يقول شيئاً ولكنني ما لبثت أن أشرت له بيدي كي يمنحني الفرصة الزمنية الكافية لمناقشته في الاثنتين ، واستطردت :

أولاً : لأن القرآن الكريم يستمد موازينه العادلة وأحكامه الموضوعية من الله (سبحانه وتعالى) ، فهو لا يغمط أمة ما أو جماعة بشرية حقها ، ويطمس على دورها ، إن على مستوى القيادات أو على مستوى القواعد ... وما أكثر المؤمنين الجادين من بني إسرائيل ، فضلاً عن الأنبياء والملوك ، أشار إليهم القرآن الكريم بالبنان وكرمهم بما يستحقونه ...

وثانياً : لأن القرآن الكريم بتخصيص هذه المساحة الواسعة لبني إسرائيل لم يهدف إلى تضخيم دورهم بقدر ما سعى إلى تشريح خصائصهم النفسية والاجتماعية والأخلاقية ، كجماعة بشرية ، وتحليل الطرائق والأساليب الملتوية ، المنحرفة ، الضالة ، التي كانوا يعتمدونها ، إن مع

قياداتهم وأنبيائهم ، أو مع الأمم والجماعات والشعوب الأخرى ... وهذا يقودنا إلى ما أردنا أن نقف عنده قليلاً في بدء هذه السطور ...

إن هذه الحملة الشاملة ، المتشعبة ، المؤكدة ... كانت ، وستظل ، أشبه بدليل عمل للمسلمين ، وهم يشقون طريقهم عبر التاريخ ابتداء من فجر الدعوة الإسلامية في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحتى يقوم الحساب ... دليل عمل إزاء كتلة دينية منحرفة ، كان وسيكون ، لها دور كبير في مجابهة الحركة الإسلامية وعرقلة نموها ، والسعي لوقفها عن الامتداد ، وتدميرها بكل ما أمكنها من أساليب مشروعة أو غير مشروعة ، أخلاقية أو غير أخلاقية ، ما دام (التلمود) دستورها القديم ، قد أباح لها أن تفعل ما تشاء لسحق خصومها ، وما دامت الصهيونية ، باستراتيجيتها الحديثة ، قد رسمت لها طريقاً للعمل أباحت لليهود فيه ما لم يبحه التلمود نفسه !!.

ونظرة سريعة إلى وقائع التاريخ الإسلامي منذ مولده وحتى لحظاته الراهنة ترينا حجم الدور المضاد الذي لعبه اليهود إزاءه ، وطبيعته اللا أخلاقية المنافية لبداهات العمل البشري ...

لقد أراد كتاب الله سبحانه ، منذ لحظات العصر المدني الأولى ، حيث بدأ الاحتكاك ، أن يشن عليهم حملة (إعلامية) ، يفضحهم فيها ويضع أساليبهم ، وطرائقهم ، وأخلاقياتهم وتكوينهم النفسي في دائرة الضوء ، لكي يكون المسلمون ، وغير المسلمين ، على بيّنة من الأمر ويعرفون كيف يتحركون بحذر من لدغة الأفعى ...

ليس تمجيداً ولا تضخيماً للدور اليهودي في التاريخ ... ولكنه إعلام مرسوم ، واستراتيجية عمل يمنحها الله للعاملين على مدى التاريخ ...

وبمجرد أن نتذكر ما فعلته بنو إسرائيل منذ عهد موسى (عليه السلام) وحتى عهد زعيم الإرهاب الصهيوني مناحيم بيغن ، مروراً بكافة الفتن والفجائع والانشقاقات والانقلابات والحروب الطاحنة ... وبمجرد أن نتذكر ردود فعل الأمم والشعوب إزاء المكر والحقد اليهوديين ... وإحساس الأمم والشعوب قلما يخطئ ... بمجرد أن نتذكر هذا وذاك ، فإننا سنعرف لماذا خصّ القرآن الكريم هذه الفئة (الضالة) بتلك المساحات الواسعة من سوره وآياته.

ويبقى كل موقف من مواقف القرآن الكريم ، في أيما قضية أو معضلة ، إعجازاً بيناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ...

والحق أن الرجل اعطاني أذناً صاغية ، وكأنه كان يعيد النظر ، بينه وبين نفسه ، في مقولته تلك ... وما لبث أن سألني : وماذا بخصوص علم الآثار ؟

أجبته : إنه كأي علم من العلوم الانسانية ...

تساءل : كيف ؟

قلت : إنه علم مقاربة للحقائق وليس مطابقة لها ، فيما يطلق عليه الغربيون عبارة (Not Exact Science) بخلاف العلوم الصرفة والتطبيقية. ذلك أن ما وصلنا من آثار الأمم الغابرة ، وتواريخها ، أقل بكثير مما لم يصلنا منها أو نحن لا نستطيع أن نحكم على الكل حكماً يقينياً جازماً ، بالأجزاء المتفرقة المبعثرة مما وصلنا ، وبالتالي فلن نصل ، إلا في حالات محدودة إلى درجة القطع واليقين.

وعلى سبيل المثال فان ما يقوله المؤرخون عن العمر الحضاري للبشرية لا يتجاوز الخمسة آلاف عام ، بينما يمتد تاريخ الإنسان في عمق زمني موغل في امتداده لم نكد نتلقى عنه سوى القليل من الأضواء ، وكذلك الحال بالنسبة للمعطيات الآثارية ... فعلينا اذن أن نسلّم بهذه الحقيقة وألا يدفعنا ما يسمى بالغرور العلمي إلى جملة من المقولات التي لا تصمد للنقد في نهاية الأمر.

ثم ها هي ممارسات اليهود ، ووثائقهم وبروتوكولاتهم تؤكد ما ذهب إليه كتاب الله في تلك الحملة الشاملة التي شنها ضد خبثهم ومكرهم وإفسادهم في الأرض وإثارتهم للفتن والحروب واشعالهم للثورات الدموية التي حصدت آلاف الناس ...

أنست في الرجل شيئاً من القناعة فيما كنت أقوله ، لكن قدراً من الشكوك كانت تخترقها بين الحين والحين ، إذ ما لبث أن قال : منذ زمن بعيد عندما كان أحدنا يطالع في كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) المعروف ، فان الشعور الذي كان ينتابه هو الاحساس بالمبالغة التي قد تتجاوز حدود المعقول ، ويتصور بأن (الحكماء) يتعمدون هذه المبالغة لتحقيق غرض ما في نفوسهم ، فقد تكون صيغة من صيغ الحرب النفسية ، وقد تكون (البروتوكولات) في اطارها العام بمثابة حلم أو تخيّل لما يتمنى يهود العالم تحقيقه بأي أسلوب !!

أجبته : قد تكون البروتوكولات مجرد حلم أو تخيل ، كما تقول ، ولكن إذا أحلنا معطياتها على أرض الواقع فلسوف نجدها أمراً مؤكداً ...

– كيف ؟

بمرور الوقت أخذت الوقائع التي راحت تزداد كثافةً يوماً بعد يوم تؤكد بعض ما قاله الحكماء في مقرراتهم السرية تلك ، وكأنها – أي الوقائع – تجيئ بمثابة انطباق هندسي باهر بين المقولة وبين التنفيذ.

ليس هذا مجال الحديث عن " البروتوكولات " التي أشبعت بحثاً وتحليلاً منذ ظهورها وحتى الآن. ولكني أحب أن أقف ، لحظات ، عند واقعة تلفت نظر من يتابع مذكرات الشاعر التشيلي المعروف ؛ " بابلو نيرودا ".

يقول الرجل : " لقد تعرفت في الباخرة – المبحرة إلى الشرق الأقصى – على فتاة يهودية تدعى " كروزي " شقراء ، سمينة شيئاً ما ... قالت لي : إن لها منصباً جيداً في باتافيا ... اقتربت منها في اللحظة الأخيرة للرحلة البحرية ، بين كأس وكأس كانت تجرني للرقص. في هذه الليلة الأخيرة قررنا أن نمارس الحب في غرفتي بشكل ودي ... اعترفت لي " كروزي " من جهتها بالعمل الحقيقي الذي كان ينتظرها في باتافيا. كان ثمة منظمة فلندعها دولية (!) كانت مهمتها أن تشبك فتيات أوربيات في أسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو ألقاب مهمة. بالنسبة لها فقد كانوا أعطوها الحق في الاختيار بين " مهراجا " أو أمير من سيام أو تاجر صيني غني ، فقررت اختيار هذا الأخير لكونه شاباً وديعاً ..." [١].

وفجأة تذكرت بعض مقالات البروتوكولات : " من المسيحيين – يقول البروتوكول الأول – أناس قد أضلتهم الخمر ، وانقلب شبانهم مجانين بالمجون المبكر الذي أغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهرماناتنا في البيوت الغنية ومن إليهم ، ونساؤنا في أماكن لهوهم ، وإليهن أضيف من يسمين " نساء المجتمع " والراغبات من زملائهم في الفساد والترف "[٢].

" اليوم – يقول البروتوكول العاشر – سأشرع في تكرار ما ذكر من قبل ، وأرجو منكم جميعاً أن تتذكروا أن الحكومات والأمم تقنع في السياسة بالجانب المبهرج الزائف من كل شيء ، نعم ، فكيف يتاح لهم الوقت لكي يختبروا بواطن الأمور في حين أن نوابهم الممثلين لهم لا يفكرون إلا في الملذات "؟[٣]..

" ولكي نصل إلى هذه النتائج – يقول البروتوكول العاشر نفسه – سنتدبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة بفضيحة ... أو صفقة سرية مريبة ... إنّ رئيساً من هذا النوع سيكون منفذاً وفياً لأغراضنا ، لأنه سيخشى التشهير وسيبقى خاضعاً لسلطان الخوف الذي يمتلك دائماً الرجل الذي وصل إلى السلطة ، والذي يتلهف على أن يستبقي امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركزه الرفيع "[٤].

---

(١) ص ١٥٠ من الكتاب المذكور ، ترجمة محمود صبيح ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

(٢) ص ١١٧–١١٨ من الطبعة الرابعة ، ترجمة محمد خليفة التونسي. بشيء من التصرف.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٨.

(٤) ص ١٥٣ من الطبعة الرابعة ، ترجمة محمد خليفة التونسي بشيء من التصرف.

إذن ، فإن الأمر ليس كلاماً يقال ولا حلماً أو خيالاً ... إننا نلتقي – فيما يحكيه لنا الشاعر التشيلي – بكروزي " التي قالت بأن لها منصباً جيداً في باتافيا " ، ونلتقي بمنظمة دولية " كانت مهمتها ؛ أن تشبك فتيات أوربيات في أسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو ألقاب مهمة ".

والنتيجة بعد ذلك معروفة ، تفسرها وتزيدها إيضاحاً المقاطع التي مرت بنا قبل لحظات.

ويقيناً فإن " كروزي " ليست وحدها ، والمنظمة الدولية الأوربية ليست وحدها كذلك ... فهذه وتلك مما اكتشفه بالصدفة ، الشاعر التشيلي في عشرينيات هذا القرن ، فأما ما لم يكتشفه فهو مئات من " كروزي " وعشرات من منظمات القوادة العالمية ذات المستوى العالي ... إذا صح التعبير ان المسألة ليست حدثاً عابراً ، ولكنها ظاهرة لعبت ولا تزال دورها الخطير في سياسات الدول والحكومات.

تُرى ... أبمقدور قوة في الأرض أن تخترق أخلاق المسلم المحصنة بالإيمان العميق لكي تسوقه إلى هذا المصير المفجع فتجعله بالملذة وبالخوف من الفضيحة ، أداةً رخيصة بأيدي المنظمات الدولية ؟ ومن أجل أن تمضي " كروزي " اليهودية إلى هدفها ، وتجد المنظمة الدولية الطريق معبداً أمام عمليات الاصطياد اليومي ، كان لابد من تدمير حاجز القيم الخلقية وإزاحة ترسانة الإيمان ... وذلك ما تفسره وتؤكده بروتوكولات أخرى يعرفها الجميع ...

نهض زميلي قائماً وهو يقول ... اذن فان الكثير من مسلماتنا التي طالما رددناها على عقول طلبتنا قد لا تصمد للنقد ، ويجب ، في ضوء ذلك ، أن نعيد النظر فيها ...

– أحسنت أيها الصديق العزيز ، ولعل لقاءات أخرى تتح لنا إلقاء المزيد من الاضاءات حول الموضوع.

عرفت فيما بعد أن الرجل غادر كلية الآداب للعمل في احدى الجامعات الليبية في ثمانينيات القرن الماضي ، وأنه وهو يجلس يوماً هناك مسترخياً على شاطئ البحر المتوسط ، اقتربت منه موجة عاتية سحبته إلى الأعماق فلم يعثر له على أثر ، وأنه كان قبل ذلك قد فاء إلى ساحة الايمان وترك إدمانه على شرب الخمر الذي لم تكن رائحته تفارق فمه حتى وهو يلقي محاضراته على طلبته ، وأخذ يصلي ويصوم ... عليه رحمة الله !!

(٩)

في غرفة الأساتذة بكلية الآداب في جامعة الموصل ، كانت تجري بين الحين والحين جملة من المناقشات حول عدد من القضايا ، تبدأ هادئة لينة ثم ما تلبث أن تشتد ويحمي أوارها حتى تتحول أحياناً إلى ما يشبه الصراع والتضارب بالأيدي ... لكن هذا ما كان يحدث إلا نادراً ... بينما يمضي النقاش الهادئ ، في معظم الأحيان إلى هدفه ، حيث يطرح المناقشون كل وجهة نظره فيما يؤمن به ويعتقده ، وحيث تسود حرية الفكر أجواء الجدل بين الأطراف كافة.

ولا أدري ما الذي دفعني يوماً إلى استفزازهم بعبارة ازوالد شبنغلر (منظفو أتربة أكاديميون) وأنا أرى معظم الرسائل والأطروحات التي تناقش في الجامعة لا تعدو أن تكون رصفاً ميتاً للنصوص الحرفية المتعاقبة دونما أي هامش لحضور الباحث أو أي قدر من الابداع.

نظر الأساتذة بعضهم إلى بعض كأنهم يدينون أنفسهم بهذه التهمة وراحوا يتسابقون في الدفاع عن موقعهم ، حتى إذا ما قدموا كل ما عندهم من حجج ومعطيات لم تكن تفند مقولة شبنغلر من أن هؤلاء الباحثين ، بل أساتذتهم أنفسهم لا يعدون أن يكونوا منظفي أتربة أكاديميين!

قلت لهم : ألم يأن الأوان لكي تسمحوا لي بدقائق معدودات من وقتكم الثمين ، للدفاع عن وجهة نظري ؟

نظر بعضهم إلى بعض والتفتوا إليّ وملامح الغيظ تكسو وجوههم وقالوا : تفضل قل ، فلسوف تجدنا ننصت إليك !

قلت : يوماً بعد يوم ، ومن خلال النماذج المتزايدة ، للحاصلين على شهادة الماجستير والدكتوراه في العلوم الإنسانية ، وبخاصة الأدب والتاريخ ، يتأكد أن (الأكاديميات) بوضعها الراهن تخرج منظفي أتربة ، كما وصفهم أزوالد شبنغلر مؤلف كتاب " تدهور الغرب " ... تخرج راصفي طرق ، والمفروض أن تكون مهمتها تخريج مهندسي طرق ... وثمة فرق كبير بين الراصف والمهندس ... بين المنفذ محدود الرؤية ، وبين المخطط طليق الرؤية ... بين المتبع ، وبين المبدع ...

إنه يتوجب على الأكاديميات أن تضع حداً لتخريج الأسود والأبيض المتعلم والمثقف ، ولا أقول الأمي والمثقف ... رغم أن التعلم هو الخطوة التالية للأمية ... ومن ثم فهي لا تعني شيئاً !!

يتوجب على الأكاديميات أن ترسم من الضوابط ، وتضع من مناهج العمل ، ما لا يتاح معه إلا للمثقفين ... للباحثين الكبار ... لأولئك الذين يملكون رؤية متفلسفة شمولية الاتجاه وقدرة على الإبداع ... لا تتيح إلا لهؤلاء أن يحصلوا على شهادات التخصص ، ويدلفوا

إلى الجامعات لكي يتولوا العمل فيها ، من أجل كسر الحلقة المفرغة ، وتوجيه الطلبة الجامعيين – بالتالي – وفق منظور جديد يسعى إلى تخريجهم ، وهم أكثر كفاءةً وعلماً وثقافةً وإدراكاً ...

إن أكاديميينا هم أشبه بنساخ العصور القديمة ... يعرفون كيف يستنسخون الحقائق وينضدونها ، وتتمثل (العلمية) في نظرهم باستنساخ أكبر قدر من النصوص بأكبر قدر من الأمانة ، ثم عرضها مرصوفةً كشواهد القبور في بحث أو مقال دونما أي قدر من التحليل أو الإبداع ، دونما أية محاولة لتجاوز قشرة النصوص الخارجية من أجل استبطان معناها ، وإعطائنا صورة أكثر صدقاً وحيوية عن (شخصية) الحدث (التاريخي) ، وملامحه ، وتركيب نسغه الذي يمنحه القدرة على الحركة والحياة ... وهم يدافعون عن عجزهم بالقول بأن محاولات كهذه قد تبعدهم عن الروح (العلمية) ...

يستطيع أي منكم أن يجرب ... أن يقوم بعمل إحصائي لتبيّن منحنى (الإبداع) في معطيات أفواج الخريجين طيلة العقود الثلاثة الأخيرة ... عدد كبير ومحصول نادر شحيح ...

ولقد أصبح من المسلّم به أن مجرد قبول طالب ما في مرحلة من مراحل الدراسة العليا ، يعني حتمية حصوله على شهادة التخصص : الماجستير أو الدكتوراه ... بغض النظر تماماً عن حجم قدراته الحقيقية ، وعما يمكن أن يقدمه في المستقبل على مستوى البحث أو التدريس.

ويزداد الفصام النكد بين التخصص وبين الإبداع الحقيقي ، عندما يتعرض هؤلاء الأكاديميون الصغار بالدراسة والتحليل لجانب من كتاب الله أو سنّة رسوله (عليه السلام).

ولقد قرأت لأحدهم مقالاً عن القرآن الكريم في كتاب (القرآن : نظرة عصرية) وكنت قبلها بقليل قد أنجزت قراءة أحد أجزاء (الظلال) ... هنالك بدا واضحاً البون الشاسع بين الأسلوب الحي الذكي ، المتماسك المنطقي المتدفق المليء حرارةً وذكاءً وإخلاصاً ، وبين أسلوب بارد ، مفكك ، كأنه يخرج من فم يتثاءب أو إنسان ذاهب في طريقه إلى غرفة النوم ، فضلاً عن عدم ترابطه ، وما يتضمنه من تناقضات ، وما ينفعل به سلباً من ضغوط معاصرة ، تجعله يتعامل مع كتاب الله بطرائق التشريح المختبري المادي الميت ، ويسقط في أذهان الطلبة والدارسين حشداً من التصورات السالبة ، المهتزة ، عن هذا الكتاب العظيم ...

ذلك هو نموذج من بعض المعالجات الأكاديمية للقرآن الكريم ، ولا أقول جميعها ، لأن في بعضها الآخر أعمالاً إبداعية هي بمثابة القمم في ميدان علوم القرآن ... وتلك هي الجناية التي ترتكب في الجامعات بحق القرآن ...

إن الفرق بين صاحب (الظلال) ، وصاحب مقال (نظرة عصرية) هو أن الأول يتحدث حديث من يتهيأ للشهادة ، والآخر يتحدث حديث من يتهيأ للنوم !!

وشتان ...

لم يحر أحدهم جواباً ، وإن كانت نظرات بعضهم تدل على شيء من الاقتناع بهذا الذي طرحته ، فختمت النقاش وأنا أقول : لا بأس ... فهذا يكفي !

(١٠)

عبر دراستنا في كلية التربية بجامعة بغداد في بداية ستينيات القرن الماضي ، كان من بين مناهجنا على مدى السنوات الأربع : مادة علم النفس بتخصصاته كافة ، وأصول التربية والمشاركة ، وغيرها من المواد المفروضة على طلبة كلية يحمل اسمها هذا الالزام.

وكان أساتذتنا القادمون حديثاً من ديار الغرب يقف بعضهم بإجلال يصل حد القدسية ازاء علماء النفس الغربيين من مثل يونغ وأدلر وبافلوف ... وعندما يصلون إلى سيغموند فرويد يقفون لدى ذكر اسمه احتراماً وتقديراً ، فضلاً عن تسليمهم بمعطياته وكشوفه المعروفة في التحليل النفسي.

وكنا نحن ثلة من الطلبة ، بما نملكه من مؤونة علمية محدودة وقرارات سريعة ، نحاول ما وسعنا الجهد الردّ عليهم ... ولكن شتان بينهم وبيننا ، ومن ثم كنا في نهاية كل جولة من النقاش نكاد نسلّم ، أو نتظاهر بالتسليم على الأقل ، بما يطرحونه علينا.

حينما كبرت وتخرجت من أسر الدراسة الجامعية بسنواتها الأربع ، رحت أقرأ بنهم الدراسات الخاصة بعلم النفس ، فوضعت يدي على مفاصلها الأساسية ، حيث تبين لي أن :

المعاول التي وجهت إلى نظرية التفسير الجنسي للتاريخ ، التي قال بها سيغموند فرويد ، أخذت تزداد كثافةً ووقعاً ... وهي تصدر فيما تصدر ، عن تلامذة المدرسة التحليلية نفسها ... فثمة ضربة هنا وضربة هناك ... فإذا بالنظرية تغدو في العقود الأخيرة أشبه ببناء منهار أصابه رشاش من القنابل والصواريخ فغدا خرائب وأطلالاً ... وكان قبل نصف قرن ، بل قبل ثلاثين سنة فحسب عمارة سامقة تسلب واجهتها العقول ، وتبهر الأبصار ...

لقد قيل كثيراً في نقد النظرية : المنهج والمعطيات ، وبمجرد نظرة على الصفحات الأخيرة من الجزء الخامس من كتاب سوليفان القيم (حدود العلم) ، نعرف مدى تهافت النظرية ، واتساع ثغراتها ، وتأرجحها وظنيتها ، وبعدها عن اليقين ... هذا إلى أن البدائل التي طرحها يونغ وأدلر وغيرهما ، والتي لا تتجاوز هي الأخرى حدود الظن والتخمين إلى اليقين المطلق ... هذه البدائل تدل على أن ما قاله فرويد ليس هو الصواب المطلق ، وأنه ليس بمقدور أحد ، كائناً

ما كان في علمه وعبقريته ، أن يدّعي احتكار المعرفة في قطاع ما من قطاعات العلوم المختلفة.

هذا مع التحفظ الذي يتوجب أن يطرح هنا ، وفي كل نقد يوجه إلى نظرية ما من النظريات ، من أنها تتضمن جوانب ذكية باهرة ، وضعت في دائرة التصوّر والرؤية ، الكثير من معطيات الإنسان النفسية ، الغامضة ، المعقدة ، في طبقات وجوده البعيدة ، كما أنها عللت الكثير من سلوكياته أفعالاً وردود أفعال على السواء.

بعرض الفرويدية على الموقف الديني والإسلامي على وجه الخصوص ، من النفس البشرية ، تتعرض لمزيد من الضربات ، وتتهاوى من عمارتها حجرات وشرفات ... هنالك على سبيل المثال الرؤية الإيمانية النقيضة لرؤية فرويد للضمير الباطن ، والكبت ، التي ترى أن ضغط المشاعر والإحساسات الجنسية المخجلة في أعماق الذات ، وعدم إتاحة المجال كي تبرز واضحة للعيان ، وتصرّف في مجاريها الخارجية ، الطبيعية ، المكشوفة أمام المجتمع ، إنما يتحقق لأنها (عيبٌ) غير مقبول ... هذا بينما تؤكد الرؤية الإيمانية ، على أنه ما دام الله (سبحانه وتعالى) ، وهو أحق من يُستحيا منه ، يطّلع على السرّ وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويحضر إزاء تجربة كل إنسان بشتى أبعادها الظاهرة والباطنة ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، ما دام الله (سبحانه وتعالى) يطلّ على أعماق السرائر حيث تتعرى أمام علمه الشامل ، وتنداح ستائرها ... فإن الإنسان ، بدلاً من أن يكبت ويغطي ويتأزم ... يسعى إلى التنّظف والتخفّف والتوحّد في أعمق طبقاته النفسية ... فهو لا يهمه أن تبرز عيوبه ، أو ما يظنه كذلك ، للناس ، أو لا تبرز ، لأن الله ، السلطة الوحيدة التي يخافها ويخشاها ، يعرفها وهي في لحظات تمخضها الأولى ... إن (التجربة) ها هنا تأخذ بُعداً آخر يختلف كلية عما تطرحه الفرويدية.

وثمة مسألة أخرى ... إذا كان قد ثبت تجريبياً (معملياً) ، كما ترى نظرية التحليل النفسي ، أن اللا شعور ، أو اللا وعي ، هو تجاوز للزمان والمكان ، وتحدٍ للموت والتآكل الذي تعانيه الخلايا المادية ، فلماذا لا تكون الروح كذلك ... كياناً مستقلاً ، فوقياً ، متجاوزاً ، متحدياً، غير قابل للفناء ، ولا متأثر بعمليات التعرية والتآكل التي تصيب الجسد ؟ ما الذي يمنع النظرية من تقبل فكرة الروح ... أو بالأحرى حقيقة الروح ؟

وغير هذا وذاك ، الكثير مما تستطيع أن تعثر عليه بمجرد الاطلاع على كتابي محمد قطب القيمين : " الإنسان بين المادية والإسلام " ودراسات في النفس الإنسانية " ويعد الأخير – بلا ريب – أكثر الدراسات الإسلامية عن النفس الإنسانية عمقاً نضجاً ...

ويوماً ، بعد أن انقضت عشرات السنوات على زمن دراستي الجامعية تلك ، سافرت إلى بغداد لمتابعة اللجان الخاصة بإحالتي على التقاعد ، فإذا بي التقي بأحد أساتذتي الذين تلقيت عليهم دروس علم النفس ، وقد خط الشيب شعر رأسه ، وهو في طريقه إلى السابعة والثمانين من عمره ، فأعجبني أن أتحرّش به فأسأله عن موقفه من نظرية التحليل النفسي التي كان متشبثاً بها في شبابه ، وبعد كل هذه الرحلة الطويلة من الزمن التي ألحقت بالنظرية الكثير من المثالب والشروخ ، فإذا به يجيبني بصراحة بالغة أثارت دهشتي !

– تلك كانت نزوة الشباب العائد حديثاً من ديار الغرب ، لكن الإنسان ما أن يوغل في العمر، وينفسح أمامه الفضاء المعرفي ، حتى يتمرد على قناعاته الأولى ... وها أنا ذا أنجز كتابي الجديد الذي سيصدر قريباً بإذن الله (سبحانه وتعالى) بعنوان : (خرائب العمارة الفرويدية) ...

احتضنته بقوة مقبلاً إياه من رأسه وقائلاً : لسوف أكون بإذن الله (عز وجل) أول من يقرأ كتابك هذا بشغف كبير ... فمع ألف سلامة أيها الأستاذ الجليل.

(١١)

جرّنا الحديث ، عبر جلسة هادئة في مقهى أنيق يطل على نهر دجلة في منطقة الغابات الجميلة في مدينتي الموصل ، إلى مناقشة الأطروحات والنظريات التي قيلت في الخلق الكوني ... عرض أحد المتحدثين وجهات نظر الفلاسفة اليونانيين في (متناهي الأول) و (واجب الوجود) ، وقدّم آخر وجهة نظر المادية الديالكتيكية بالمتغيرات النوعية المترتبة على التراكمات الكمية ... ومضى ثالث لكي يحكي عن النظريات الكوزمولوجية الأكثر حداثةً والتي تشكلت على أيدي بور واينشتين وبرغ وهايزنبرغ ... وغيرهم ...

حتى إذا أفرغ كل واحد منهم ما في جعبته من معطيات بعضها غامض مهوّش ، وبعضها الآخر لا يستقيم والمنطق ، وبعضها الثالث حقق بالفعل طفرة مذهلة بخصوص الموضوع ، جاء الدور علي فبدأت حديثي بالقول بأن القرآن الكريم يختصر بآياتٍ ثلاث ، وبإعجاز بالغ ، قضية الخلق الكوني العظيم بدءً وصيرورة وانتهاءً.

نظر بعضهم إلى بعض وكأنهم يتساءلون : وهل ثمة في القرآن الكريم شيء عن الموضوع ، بينما واصلت حديثي قائلاً :

في البدء شاءت إرادة الله (جلّ وعلا) أن يخلق الكون ... وهو يحدّثنا في كتابه الكريم عن لحظات الخلق في أكثر من موضع ، ونختار منها هاتين الآيتين : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴿ ١١ ﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴿ ١٢ ﴾ (سورة فصلت ، الآيتان ١١-١٢).

وفي آية أخرى يحدثنا عن الاتساع الكوني المستمر ... عن صيرورته الماضية إلى الامتداد : ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾(سورة الذاريات ، الآية ٤٧).

وفي الآية الثالثة نلتقي بلحظات النهاية : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(سورة الأنبياء ، الآية ١٠٤).

وكثيرة هي النظريات والقوانين العلمية التي جاءت لكي تؤكد ، وتوضح ، بمنطوقها الخاص ما قال به القرآن الكريم ... عن بدء الخلق ، وعن اتساع الكون ، ثم عن انكماشه وطيّه في نهاية الطريق الطويل ، ذي الملايين الهائلة من السنين الضوئية.

وسواء تغيرت تلك المعطيات العلمية ، كما عودتنا ، أو بقيت على حالها ، فإن ما يقدمه القرآن الكريم بإيجازه المعجز يكفي لكي يغطي حاجة السايكولوجية البشرية : ذهناً وروحاً ووجداناً ، وتطلعاتها حول المنشأ والصيرورة والمصير ...

تلك هي ميزة العقائد السماوية ، وميزة الإسلام على وجه الخصوص ، إنها تمنح أجوبتها عن المسائل الكبرى التي تجابه الإنسان ... بإيجاز بالغ ... وهذا يكفي ... فما يهم الإنسان هو فهم سنُن العالم المحيط ، لإعماره وتنفيذ مقتضيات خلافته في الأرض ، جاعلاً عبادة الله (سبحانه وتعالى) هدف هذه الخلافة ومبّرر وجودها واستمرارها ... وليس ثمة ضرورة بعد هذا لكي يكدّ ذهنه في البحث عمّا جرى قبل ملايين الملايين من السنين ، ولا عمّا سيجري بعد ملايين الملايين من السنين ، ولا عمّا هو جارٍ فعلاً في آماد شاسعة تفوق حتى قدرته على التصوّر والتخيّل ...

ولقد سعى كثير من الفلاسفة الميتافيزيقيين إلى خوض غمار هذه المجاهيل بأدواتهم الحسّية والعقلية المحدودة ... بحثاً عن متناهي الأول وواجب الوجود ، ونهاية الكون ... وعادوا بعد جولاتهم المضنية تلك بأكداس من الظنون والتخمينات ، التي لا تتضمن يقيناً مطلقاً ... وكان أحرى بهم أن يقفوا عند حدود ما قدمته لهم كتب الله المنزّلة ، ويتجهوا بطاقاتهم العقلية إلى ساحتها الحقيقية للكشف عن سُنن العالم وإعماره ...

وفرقٌ كبير بين جهود فلاسفة ظنّيين كهؤلاء ، وبين محاولات العلماء للكشف عن بعض جوانب الخلق الكوني بأساليبهم وأدواتهم الأكثر إقناعاً وتبصّراً ... ومع ذلك فبينما يتواضع

العلماء قائلين بأن ما يكتشفونه عبر أبحاثهم ، قد لا يكون يقيناً مطلقاً ، ولن يكون ... نجد الفلاسفة يطرحون ادّعاءاتهم في أن ما توصلوا إليه هو الحق المطلق ، وأن فلسفاتهم هي الكشف النهائي عن منشأ الكون ، وصيرورته ومصيره : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (سورة النجم ، الآية ٢٨).

ما كدت أختم حديثي حتى لحظت ملامح الرضا والاقتناع يكسو وجوههم وقال أحدهم : لقد اعتدنا أن نقرأ كتاب الله في معظم الأحيان وكأننا نتسرع ختمته معتقدين أن ذلك سيمنحنا الأجر الكبير عند الله (جلّ في علاه) ... ولشدة ما تباهى بعضنا بأنه يختم القرآن الكريم في الشهر الواحد مرتين وثلاثاً دون أن يدرك ...

قاطعته قائلاً : إنه لأجر كبير من يختم القرآن الكريم ولو هذّاً ، أي قراءة سريعة غير متمعنة في دلالة آياته ، ولكن الأجر الأكبر يتحقق يوم أن تكون قراءتنا لكتاب الله بالايغال المطلوب في دلالة الآيات ، وارتباط المقاطع عبر السورة الواحدة ، والمغزى النهائي للموضوعات التي تتطرق إليها ، لأننا حينذاك سنضع أيدينا على معجزة هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه ، وما سمعتموه اليوم عما قاله بخصوص الخلق الكوني هو احدى هذه العجائب.

نهضوا قائمين وهو يقولون : لسوف نبدأ رحلتنا مع كتاب الله بهذا الذي توصلنا إليه عبر مناقشتنا هذه ... ويقيناً فاننا سنعثر على العديد من الاجابات عند كل ما يؤرق ضمائرنا بخصوص الوجود ، والحياة ، والموت ، والمصير ... يقيناً !

(١٢)

كانت الطائرة المغادرة بغداد في طريقها إلى لندن تنساب بركابها ، دون أن يشعر أي واحد منهم بأنه معلّق في أجواء السماء البعيدة ... كانت تمضي بهدوء ملحوظ كبساط الريح الذي امتطاه فريد الأطرش وهو يجول به العواصم العربية فتأخذه نشوة الطرب ويغني بالكلمات ذاتها التي تعتمدها شعوب تلك العواصم !!

كنت ذاهباً إلى انكلترا تلبيةً لدعوة من مركز الدراسات الإسلامية في أكسفورد لإلقاء جملة من المحاضرات هناك في سياق مؤتمر عن المنهاجية شارك فيه عدد كبير من العلماء من ديار الشرق والغرب ... وفجأة تذكرت أن ثمة رجلاً يجلس إلى جواري تحمل ملامح وجهه قسمات عربية فالتفت إليه مجاملاً : حبذا لو أعرف من أي بلد أنت أيها الزميل العزيز ؟!

فوجئ الرجل بمداخلتي المباشرة ، وقال محاولاً أن يرسم ابتسامة باهتة على وجهه : من مدينة الدار البيضاء في المغرب ... وأنت ؟

– من مدينة الموصل في العراق.

– أهلاً ومرحباً بك.

– أهلاً ومرحباً.

قبل أن نواصل التعارف بيننا مرّت العربة الصغيرة التي تباع فيها السيكاير والعطور والخمور لمن يرغب في الشراء ، تقودها فتاة إنكليزية في مقتبل العمر ... ناداها صاحبي وقال مؤشراً على احدى قناني الخمر : بكم هذه ؟

أجابته الفتاة ، وقبل أن تستطرد في إجابتها بادرها الرجل بقوله : أريد واحدة منها ، وما لبث أن دفع ثمنها وأسرع بفتح سدادها ووضعها على فمه ورشف منها عدة رشفات ...

دهشت لتصرفه غير المعقول هذا ، إذ كيف ، وهو ابن بيئة إسلامية ، يتيح لنفسه أن يمارس عملاً كهذا ، وهو وكل من معه على متن الطائرة ، معلقة أرواحهم كما يقول المثل على كف عفريت ؟

ولم أشأ أن اسكت على تصرفه غير المقبول هذا فقلت له : ألا ترى معي أن تناوله ومعصية الله (سبحانه وتعالى) في لحظات كهذه أمر غير مقبول دينياً واجتماعياً ؟

نظر إلي بقدر كبير من عدم الاكتراث ، فأردفت : ثم ألا ترى انك في مخالفتك هذه تتحدى قوة هائلة ليس بمقدورك أن تصمد ازاء جبروتها ؟!

قال : أية قوة هذه التي تتحدث عنها ؟

– إنها قوة الله (سبحانه وتعالى) الذي لا راد لكلماته ...

وقبل أن أواصل حديثي إذا بالطائرة تتعرض لاهتزاز عنيف ، ومن بعيد يجيئنا صوت احدى المضيفات بضرورة التأكد من ربط أحزمة الأمان ، وينبهنا إلى الخطوات الوقائية التي يجب أن نعتمدها في لحظات الخطر !

كنت من جهتي قد اعتدت أمراً كهذا ، لكني عندما التفت إلى صاحبي ذاك الذي بدأت الخمر تلعب برأسه ، إذا بوجهه يتلقى دفقة من الصفرة الغامقة ، وعينيه تزوغان ذات اليمين وذات الشمال ، وكأنه يريد أن يستنجد بي من حالة الرعب التي أمسكت بخناقه !

أجبته سريعاً : لا بأس أيها الرجل ، ولكن ليس قبل أن تغسل وجهك من آثار الزفت الذي شربته قبل قليل ...

قال وكأنه يتوسل بي : كيف ؟

أجبته : أن تذهب ، بعد أن تستقر الطائرة إلى التواليت فتفرغ ما في معدتك ، وحينذاك سترى الأمور على حجمها المعتاد ، ولسوف تغادرك حالة الرعب المبالغ فيه التي أحاقت بك ...

ما لبث الرجل أن نفذ طلبي ، وعاد وقد استعادت ملامح وجهه وضعها الطبيعي ، وبادرني بقوله : أشكرك أجزل الشكر أيها الأخ الكريم على تعليماتك ، إنها – وأشار إلى القنينة التي لم يتبق فيها سوى القليل – من عمل الشيطان ! وانني أعدك ألا أعود لمثلها مرةً أخرى ، ليس هنا في أعالي السماء وانما هناك على الأرض أيضاً ...

كنت سعيداً بتراجعه عن خطيئته تلك ، وزادني سعادة أن يعود الرجل فيسألني عن سبب انتشار المفاهيم المادية في العالم هذا الانتشار الواسع ، وبجوارها الاقبال النهم على كل المحرمات بحيث أنه لم يبق شيء في العالم لم يمسه الفساد حتى النخاع.

وقلت في نفسي والله انها لفرصة طيبة لوضع النقاط على الحروف في هذه المسألة التي تؤرق ذوي الضمائر الحساسة وتدفعهم إلى التساؤل الملح عن أسبابها ، فاقتربت من كرسيه أكثر وأنا الحظ مدى تلهفه لسماع الجواب ، وقلت له :

إن انتشار المادية هذا الانتشار الواسع في بعض الفترات ، إنما يعني سهولة رفض ما وراء الحواس ... ورخصه ... ومجانيته ... ولذا يتحقق بين الطبقات الأمية من الناس ، ممن لا يحسنون القراءة والكتابة ...

ورغم أن بعض الفلسفات المادية على درجات كبيرة من الصعوبة والتعقيد ، فإن ما يجذب الناس إليها ليس هذا الجانب الصعب ، إنما هي محصلتها النهائية سهلة القبول : المادية والإلحاد ... إن من البساطة بمكان نفي أو هدم الوقائع الغيبية ، اللا مرئية ، كاشتراك الملائكة في القتال في معركة بدر على سبيل المثال ، والاعتقاد من ثم بكل ما هو مادي ، قريب ، سهل التصوّر ، بسبب قربه من خبراتنا ، كثيف الإقناع ، بسبب من تجاوبه مع معطياتنا الحسّية ، وهذا هو الذي يجعل النظريات المادية ، تستهوي هذا العدد الكبير من الناس لأنها تقدم لهم القناعات السهلة القريبة ، الواضحة ، الملاصقة ...

وتبقى القلة ، القلة الفذة ، هي التي تقدر على تجاوز المباشر ، السهل ، إلى الصعب غير المباشر ... والانتماء إلى الحق يقتضي دائماً القدرة على التجاوز ، والبُعد ، ومكابدة المشقات من أجل الوصول إلى قناعاته الصعبة ، غير المباشرة ، والتي لا تمنح نفسها بالمجان ...

وهكذا فإننا لو رسمنا منحنىً متوازياً أو خطاً بيانياً للعلماء المؤمنين والملاحدة ، فإننا سنجده يرتفع إزاء المجموعة الأولى وينخفض إزاء المجموعة الثانية ، وهذا لا يقتصر على فترة زمنية معينة ، وإنما يمتد إلى كل الفترات ...

وإذا كانت معادلة الإيمان والإلحاد ، تجنح باتجاه الأكثرية الملحدة على مستوى الجماهير ، فإن الأمر الذي يمنحها قدراً من التكافؤ ، ويعود بها بين الحين والحين إلى حالة التوازن هو أن

الإيمان نفسه ، مغرٍ بنفس القوة التي يملكها إغراء الإلحاد ، إن لم يفقها ، بسبب من تواجده هناك في أعماق الفطرة ... لكن علينا ألا ننسى أن التزام الإيمان الصعب ، وتحلل الإلحاد السهل ، كثيراً ما يعود بالمعادلة لغير صالح الطرف الأول ، لذا يكرر القرآن الكريم إحدى مقولاته بهذا الصدد : ﴿ ... وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾(سورة المؤمنون ، الآية ٧٠) وقد تكون هناك (أكثرية) من المؤمنين ، لكن الالتزام بالحق الذي يقتضيه الإيمان يبقى محصوراً في قلّة منهم ...

ومن أجل كسر الحصار ، وتحقيق قدر من التوازن بين الطرفين لصالح الحق ، وكسب الأكثريات الجماهيرية ... تسعى آيات الله البينّات ، ليس من خلال عرض لاهوتي صعب معقد عقيم ، ولا من خلال أطروحات نظرية تستتبع إرهاقاً ذهنياً قد لا يقدر عليه الجميع ، ولا من خلال جدل كلامي جاف لا يستثير وجدان الإنسان وكينونته ... بل من خلال تدفق حيوي مؤثر ... إلى توجيه الإنسان عقلاً وحسّاً ووجداناً إلى حقائق الكون والحياة المحيطة به ... الحقائق الواضحة ، البيّنة ، والتي لا يحتاج إدراك سرّها المعجز إلى بذل جهد ذهني أو نفسي كبير ... هذا التدفق الحيوي الذي يغطي مساحات واسعة من القرآن ، هو الذي يسعى إلى جعل المعادلة أقرب إلى التوازن ، وإلى كسب جماهير الناس ، مهما كانت درجة ثقافتهم ، إلى صف الإيمان ، ومن ثم ندرك كيف استطاع الإسلام ، ولا يزال ، كسب الجماهير ... وكيف تمكّن بهم من تنفيذ نظريته في الجهاد عبر التاريخ ...

لحظت انصات الرجل بجوارحه كافة لإجابتي هذه عن سؤاله الملح ، وأردت أن أزيده اقتناعاً فأردفت.

منذ أكثر من عام تناقلت الصحف نبأ إعلان المفكر الفرنسي الشهير " روجيه غارودي " إسلامه ! لم يكن حدثاً عادياً والحق يقال ، فغارودي عقل كبير متنوع الثقافة عميقها ... ليس هذا فحسب، ولكنه بتحركه المعروف عبر ربع القرن الأخير ، كان يمثل " تقليداً " ثقافياً على الساحة الغربية ، أو بعبارة أخرى " ظاهرة " لم يكن هو سوى واحد من نماذجها الكبيرة.

ففيما بين الحربين العالميتين على وجه التقريب كان التقليد السائد هو توجه العقل الغربي المبدع ، القلق ، الباحث عن اليقين ، إلى الماركسية.

ومنذ بدايات الحرب الثانية ، وطيلة العقود التالية ، بدأت عملية الارتداد بعد أن تبين لهذا العقل أن الماركسية لا يمكن أن تمنحه اليقين المنشود. وكلنا نعرف رحلة رجال من أمثال " أندريه جيد" و " آرثر كوستلر " و " ريتشارد رايت " و " اكناز سيلوني " و " ستيفن سيندر "

و " لويس فيشر" ... وغيرهم ممن انتموا للماركسية فكراً أو تنظيماً ، ثم ما لبثوا أن ارتدوا عنها ، أو بعبارة أخرى عجزت هي عن أن تلبي طموحهم للتحقق باليقين المرتجى.

فبعضهم عاد إلى مواقع الفكر الليبرالي المهترئ المُترّع بالتناقضات ، وبعضهم الآخر ظل يحلم بماركسية من نوع جديد فوجد نفسه يدلف إلى عالم اليوتوبيا والخيال الفكري الحالم مرةً أخرى ...

وفئة ثالثة ظلت تعاني القلق والاضطراب ، وتواصل سعيها من أجل العقيدة التي تطفئ ظمأها الملح في عالم قفرٍ غدا بالنسبة إليها أشبه بالصحراء التي لا أول لها ولا آخر.

فأما " غارودي " فقد قدر على اجتياز المحنة ، وتحقق باليقين المنشود ، وكانت كتاباته منذ " منعطف الاشتراكية الكبير " تومض بمصير متفرد ؛ تعود الروح فيه لكي تعانق الجسد الذي يختنق يأساً وإلحاداً فتبعث فيه الحياة والأمل من جديد.

من هنا يكسب إسلام " غارودي " أهميته من بين عشرات ، بل مئات بل ألوف يعلنون إسلامهم كل يوم في مشارق الأرض ومغاربها.

أتراه بدء تقليد جديد ستشهده العقود القادمة من الزمن ؟ وهل أقدر من (الإسلام) على منح الجواب للعقول الكبيرة التي لم يكن بمقدور المذاهب الوضعية أن تمنحها ما تريد ؟ وها هي العقيدة المنزلة من عند الله الذي يعلم من خلق ، والذي هو (سبحانه وتعالى) أدرى بخلقه ، تحقق الاستجابة وتقود الحيارى إلى المصير المتوحد الذي يتوقون إليه ...

لقد كان الإسلام دائماً قديراً على كسب أناس من مستويات حضارية متقدمة إلى صفه ، بل إن هذا التقدم الحضاري والنضج الفكري لهو واحد من العوامل التي تدفع المثقف إلى إدراك أعمق لميزة هذا الدين ، وتفرده وقدرته على الاستجابة لمطالب الإنسان الحديث.

وإنها لمعادلة واضحة الأبعاد ، متكاملة الأطراف ، أن يملك هذا الدين القدرة على الكسب في كل زمان ومكان ، وأن يلتقي مع مطالب الإنسان وأشواقه وحاجاته الأصيلة ، حيثما كان هذا الإنسان ، وأن يحمل قدرته على الحركة والامتداد في قرن تاسع عشر أو قرن عشرين.

وإذا كان الفارق كبيراً حقاً – في المستوى الحضاري – ما بين الإفريقي الذي انتمى للإسلام في القرنين الماضيين ، وبين الأوربي أو الأمريكي أو الياباني الذي ينتمي إليه في القرن العشرين ، فإن ثمة قاسماً مشتركاً أعظم تذوب معه الفوارق الحضارية والجغرافية والجنسية ، بل تذوب معه حواجز الزمان والمكان ، ذلك هو إنسانية الإنسان ، ولقد كان الإسلام وسيظل الصيغة الوحيدة للتعامل مع هذه " الإنسانية " ، ليس من قبيل الكلام الذي يقال ، ولكنها التجربة المعيشة التي شهدتها وتشهدها ، وستشهدها أقطار العالم الأربعة ...

فليس بدعاً من الأمر أن ينتمي عقل كبير كالمفكر الفرنسي المعاصر (غارودي) إلى هذا الدين ، الذي ظل وسيظل يتميّز بقدرته الأبدية على الاستجابة لمطالب الإنسان في القرن السابع الميلادي أو القرن السبعين !

حطت الطائرة بعد خمس ساعات من التحليق في مطار هيترو بلندن ، وكان علي أن أهرع لمصافحة الأخ الدكتور أنس الشيخ علي الذي جاء لاستقبالي في المطار ، فما لبثت أن ودّعت صاحبي ذاك وتبادلت معه العناوين قائلاً له : لعلنا عبر المراسلات المتواصلة نستكمل حديثنا هذا ...

قال وهو يمدّ عنقه لتقبيلي : إن شاء الله تعالى !

(١٣)

قال زميلي بشيء من الانفعال والعصبية ، ونحن نتجول في أسواق بيروت لاستكمال المشتريات والهدايا قبل أن نغادرها عائدين إلى العراق : ولماذا لا نفعل ما يفعله خصومنا من محاولاتهم الدائمة لكسب الرأي العام في صراعهم ضد حقوقنا وقضايانا المهضومة وعلى رأسها قضية فلسطين ؟

قلت له وأنا أحاول أن اسحبه قليلاً عن الممر المزدحم في سوق الطويلة ، واقف معه لحظات على جانب من الطريق : كيف ؟

– ليس أقل من احترام الرأي العام ... من مخاطبته بقضايانا الملحة ... من محاولة كسبه بتقديم بعض التنازلات !!

وإذ عرفت أن إجابتي على وجهة نظره هذه تتطلب قدراً ليس بالقليل من الوقت ، قلت : إن هذا المكان ليس مناسباً للحوار في المسألة التي أثرتها ، فما رأيك في مغادرة السوق إلى كازينو الحاج داود المطلة على البحر لكي نواصل الحديث حتى إذا ما عضنا الجوع بنابه طلبنا سمكتين مقليتين مما برع هذا الكازينو بتقديمه لزبائنه ؟

رحب الرجل بالفكرة ، وما لبثنا أن وجدنا أنفسنا نغادر المكان وندلف بعد مسيرة بضع دقائق إلى كازينو الحاج داود ...

قلت له : أرجو أن تنصت إليّ جيداً ، فان ما سأقوله قد يتحرك على النقيض من قناعتك ، ولكنه يحمل مبرراته على أية حال ...

أجابني : قل ما شئت ولسوف اصغي إليك !

قلت :

ما أكثر ما تتشبث أمتنا في قضيتها الكبرى (فلسطين) ، بالأعراف والمؤسسات الدولية ... وما أكثر ما تنحني لمؤشرات ما يسمى بالرأي العام العالمي ، وتصدر عن احتمالاته المتوقعة ... أما خصمنا الصهيوني فهو على النقيض منا تماماً ... طالما استخفّ بها واحتقرها ... وقد انتصر وخسرنا أكثر من مرة ... ومع ذلك لا زلنا نعض بالنواجذ على موقفنا المتحجر من مسألة الأعراف ، والمؤسسات ، واتجاهات الرأي العام هذه ...

فإذا ما عرفنا – كذلك – أن الأعراف والمؤسسات الدولية لا تخدم إلا الأقوى ... ولا تمنح تأييدها وإسنادها وتبريرها إلا للأقوى ... وأن معطيات الرأي العام ليست مسألة مسطحة ، أو حكماً عدلاً ، تقف دائماً إلى جانب المظلومين ضد الظالمين ... وإنما هي مسألة مركبة معقدة ، وحكم متحيز ميال ... أدركنا كم نحن مبالغين ، إن لم نكن مخطئين ، في إصرارنا على موقفنا هذا ...

نظرة إلى اتجاهات الرأي العام عبر ثلاثين سنة من الصراع مع بني إسرائيل ترينا كيف أن هذه الاتجاهات لم تنشد دائماً ، أو حتى غالباً ، صوب بؤرة الحق ، وأن عقربها كان يتراقص ذات اليمين وذات الشمال ، تحركه أهواء وعصبيات ومصالح وأحقاد وذكريات ...

إن الأوروبي ، وسليله الأمريكي ، لا يمكن أن ينسى أبداً هزائمه على يد العرب المسلمين، في حقب شتى من تاريخ الصراع بين الغرب والشرق ...

ولا أن يتجاوز عقدته الطائفية ، ومؤثراته البيئية والوراثية التي تنفخ في هذه العقدة فتزيدها ورماً وحجباً لمواقع الحق والباطل ...

والأوروبي ، وسليله الأمريكي ، لا يمكن أن يخترق حصار الثقافة الموجهة ، – رغم ما يدّعي من ليبرالية – ضد كثير من المذاهب والتيارات ، وعلى رأسها الإسلام ... وهو لا يمكن أن يتسامى على شدّ المصالح وإغراء المال والمناصب والشهوات التي يلوح بها اليهود في كل مكان ، ويتلاعبون عن طريقها بعواطف الناس هناك وعقولهم ... ونظرة خاطفة إلى ما يجري في الساحة الأمريكية تكفي شاهداً على ذلك ...

ثم إن الأوروبي ، وسليله الأمريكي ، ليس بقادر ، ببساطة ، على اختراق خطط المكر اليهودي وتنظيماته وأساليبه المرسومة لكسب الرأي العام ، وتوجيهه في اللحظات المناسبة ، إلى هدفه المرسم ...

ومن ثم نعرف لماذا لم نحظ ، إلا في القليل النادر ، بعطف هذا (الرأي العام) رغم أننا كنا الضحايا في معظم الأحيان ؟! ولماذا كانت حشود الأوروبيين والأمريكيين تخرج إلى الشوارع مؤيدةً السياسات الإسرائيلية ، منددةً بالعرب متجاهلة حقوقهم المشروعة ... ؟!

وما لنا ألا نرجع إلى تاريخنا لكي نلتقي واحداً من التعاليم التي منحنا إياها القرآن الكريم في مسالة كهذه : بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في السنة الثانية للهجرة سرية يقودها عبد الله بن جحش ، لمراقبة تحركات القوافل المكية ، فتوغلت السرية جنوباً ، واشتبكت هناك مع قافلة مكية ، وأسفر الاشتباك عن قتل قائد القافلة الوثني ، وأسر اثنين من أتباعه ... وحدث وأن جاء هذا الاشتباك في الشهر الحرام ، فقامت قيامة المكيين وقعدت ، كيف جرؤ أتباع محمد على اختراق حُرمة الأشهر الحُرم وتجاوز الأعراف القبلية المتبعة منذ مئات السنين ؟! والرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه لم يرتح لهذا التجاوز ، وأمر بتجميد التصرف بالأسرى والغنائم ... ولكن كلمات الله جاءت لكي تحسم الموقف ...

إنه لا أعراف دولية حيثما كانت هناك قوى باغية تتستر بها ، وتتكئ عليها ... لا أعراف والمسلمون يضطهدون ... ويطاردون ... ويفتنون عن دينهم في الأشهر الحرم وفي غير الأشهر الحرم : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ... ﴾(سورة البقرة ، الآية ٢١٧).

أتُرانا نتعلم من مغزى هذا المؤشر الاستراتيجي الخطير في كتاب الله ؟!

وما أن أنهيت كلامي حتى وجدت زميلي الذي انصت إلي باهتمام بالغ يتساءل : لماذا يجد الغربي الاستعداد التام للتعاطف مع اليهود ، حتى بعد ممارساتهم اللاانسانية في فلسطين ؟! أهو مجرد ردّ فعل ازاء موقف النازية من هؤلاء ، ذلك الموقف الذي بولغ فيه وفق سياقات مرسومة ، لكي تبنى عليه مكاسب مستقبلية لبني إسرائيل ليس قيام دولتهم المغتصبة سوى واحدة منها ؟

أجبته :

إن تفسير التعاطف بكونه مجرد رد فعل للاضطهاد النازي لا يكفي ، لأنه إذا منحنا القناعة بالنسبة لحشود الأوروبيين العاديين التي قد تتحكم عواطفهم في تصرفاتهم ومواقفهم وأحكامهم ، فإنه غير مقنع البتة بالنسبة لسلوك مفكري الغرب ، بل نخبة مفكريهم إذا أردنا الدقة.

لن يكون مقبولاً بحال أن ينساق هؤلاء وراء عواطفهم ، وألا يكون لديهم العقل المتبّصر الذي يكشف لهم عن الأسود والأبيض ، عبر مساحات التجربة كلها ...

لن يكون معقولاً أن تستسلم العقول الغربية الكبيرة لسلطان رد الفعل إلى الحد الذي يجعلها تقع في التناقض عندما توافق ، بل عندما تعلن ارتياحها وتأييدها ، للاضطهاد نفسه ، يمارسه اليهود هذه المرة ضد شعب عربي مسلم شاءت القوى الاستعمارية الكبرى أن يكون مشرداً في

الأرض ، مستضعفاً ، وأن تكون العلاقة بينه وبين يهود العالم في صيغة أشد قسوةً بكثير ، مما كانت عليه الحال بين النازي واليهودي !

تُرى كم من المفكرين الغربيين قدروا على إدراك حدود الأسود والأبيض ، والتزموا موقفاً إنسانياً لمجابهة الأسود وملاحقته ، بغض النظر عن الجماعة ، أو الشعب ، أو الأمة ، التي تقف هنا أو هناك ؟

قلة قليلة لا تكاد تتجاوز أصابع اليدين ، والأكثرية الساحقة من المفكرين الغربيين اندفعوا في السياق الخاطئ فظلوا يتعاطفون مع اليهود حتى وهم " يحولون " عقدة الاضطهاد النازي إلى سوط أبدي يدمي ظهور الفلسطينيين في كل مكان ، ويسعى إلى إبادتهم واستئصالهم.

إن المرء ليتساءل – كذلك – عن موقف هؤلاء المفكرين من صيغ اضطهاد شتى نزلت بشعوب أخرى ... نفذها الأقوياء بالضعفاء ، ومارستها القوى الاستعمارية التي كانت تمسك يوماً بزمام العالم وتتحكم بمصائر شعوبه وأممه ؟

قلة قليلة جداً رفعت صوتها على استحياء بمواجهة ممارسات الاضطهاد الجماعي هذه والتي لا يكاد يحصيها عدٌ على مدى القرن ونصف القرن.

وظلت الأكثرية الساحقة ملتزمةً الصمت إزاء ما يجري على ساحة العالم من ممارسات لا يقرها شرع ولا قانون ولا إنسان !! بل إن بعض هؤلاء المفكرين وضع فكره وقلمه لكي يكونا أداة بيد القيادات الاستعمارية لتبرير جرائمها ، وإضفاء طابع عقلاني مقبول على ممارساتها بحق الإنسان !!

لماذا ؟ مرةً أخرى ، أليس هو الاضطهاد الذي يفوق ما فعله النازيون بحسابات الكم والنوع؟ فأين هو رد الفعل ؟ أين هو التعاطف مع المغلوبين والمظلومين ؟

ويتذكر المرء بأنه ما من تظاهرة خرجت يوماً لكي تجوب شوارع هذه المدينة أو تلك من أوروبا وأمريكا ، معلنة تأييدها للممارسات اليهودية ، صابةً غضبها على الضحايا ، إلا وكانت تضم عدداً لا يستهان به من رجال الفكر هناك بما فيهم أولئك الذين خدع معظم مثقفينا بهم ، وانساقوا وراء دعاواهم الإنسانية وحولوا أقلامهم وعقولهم إلى أدوات صغيرة لخدمة هذه الدعاوى ، وتدمير كل ما يقف في طريقها من قيم دينية أو أخلاقية ... ثم إذا بهم يفاجؤون بأن آلهتهم تلك، قد خرجت من معابدها لكي تمنح بركاتها لبني إسرائيل ، وتصب ويلاتها وغضبها على كل كائن يقف في طريق أهدافهم المرسومة ، مهما كانت الأهداف.

ثمة إضاءة خاطفة قد تمنح المتسائلين ما يقنعهم بحقيقة الأسباب ... إضاءة قد لا يتسع المجال لأكثر من طرحها بصيغة سؤال ، ولكنه سؤال يتضمن – أغلب الظن – البعد الحقيقي لهذه الظاهرة الملتوية التي يبدو أنها تستعصي على التحليل.

ألا يتحتم أن نبحث عن الخلفية الصليبية التي يتحرك العقل الغربي في مجالاتها لكي لكشف عن حقيقة الأسباب ؟

الخلفية الصليبية ؛ عادات وتوجهات ، وممارسات ، وإسقاطات نفسية ، وتقاليد ثقافية ؟

الخلفية الصليبية كموقف نهائي يدفع الغربي حتى ولو كان في الظاهر من خصوم النصرانية ، إلى اتخاذ هذه الصيغة ؛ التعاطف مع المظلوم إذا كان يهودياً ، والتزام الصمت ، أو حتى الارتياح والتأييد ، إذا كان المظلوم عربياً مسلماً ... وإلا فما هي الأسباب ؟!

وإذ شعرت أن الجوع أخذ ينهشنا توقفت عن الكلام رحمةً بنفسي وبصديقي ذاك قائلاً له أنت اليوم مدعو على حسابي لتناول وجبة شهية من سمك الحاج داود الطازج ... أليس كذلك ؟

(١٤)

وهاكم واحدة من نماذج سوء الفهم في التعامل مع معطيات القرآن الكريم ... سوء الفهم الناتج عن ضيق الأفق ، وعدم القدرة على الاستشراف ، وانعدام الرؤية الشمولية ... ناهيك عن ترسبات العواطف الجانحة والقلق الفكري ... وهي – جميعاً – تقف كالجدران أمام فهم القرآن الكريم وتمثل عطائه المعجز الكريم ...

قال لي أحدهم يوماً ، وملامح الحيرة ، وشيء من الامتعاض !! يرتسمان على وجهه : ولكن هذه : وراح يتلو دعاء نوح (عليه السلام) : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴿٢٧﴾﴾ (سورة نوح ، الآيتان ٢٦-٢٧) هذه الآية تمثل تناقضاً صريحاً مع مقررات العلم ، وبداهات الوراثة ... لا بل إنها تمثل تناقضاً صريحاً مع معطيات القرآن الكريم نفسه ... فهل من المحتوم ألا يلد الكافر إلا فاجراً ؟ وهل من المنطق أن يتحمل الأبناء وزر الآباء ، بينما يؤكد القرآن الكريم في أكثر من مكان أن الإنسان يحمل مسؤوليته ، ولن يؤخذ بجريرة أحد ؟! فهو يقول : ﴿ ... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (سورة الطور ، الآية ٢١) ويقول : ﴿ ... وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ... ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٦٤) ويقول : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾(سورة النجم ، الآية ٣٩) ، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(سورة البقرة ، الآية ١٣٤) ويقول : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ

﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ... ﴾ (سورة الإسراء ، الآية ١٣) إلى آخره. فكيف به ها هنا يحمّل الأبناء وزر الآباء ، ويدفع نوحاً إلى الدعاء باستئصال شأفة الآباء كي لا تتسع قاعدة الكفر في العالم ؟

تركته يتحدث على حريته ... فلما انتهى من كلامه ... وهدأت انفعاليته ، وخفّ تشنجه الذي لم أجد له أي مبرر ، قلت له : إنك يا هذا لم تفهم الآية المذكورة ، ولم تتعامل معها بما يليق بك كمثقف واسع الاطلاع ...

عاد إليه تشنجه مرةً أخرى وأراد أن يتكلم ، فأسكته قائلاً : لقد أعطيتك مجالاً واسعاً للحديث فدعني أتم حديثي أنا الآخر .. إن نوحاً (عليه السلام) يدعو ها هنا من موقع الغضب والانفعال على قوم دعاهم للإيمان تسعمئة وخمسين سنة ، فلم يستجيبوا ... ومن ثم جاء رد الفعل عنيفاً قاسياً ... وأنت تعلم أن لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ، ويخالفه في الاتجاه ... وتصور كيف يكون غضب تسعمئة وخمسين سنة من دعوة أناس كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم كيلا يتسرب إلى عقولهم قبس من نور الكلمة التي جاء بها هذا النبي الدؤوب ...

إنه دعاء من موقع الغضب ... والقرآن الكريم لا يفعل أكثر من أن يخبرنا عما جرى حينها ... دون أن يبين ولو تلميحاً ، خطأ أو صواب هذا الدعاء ... لأن هذه مسألة أخرى ، ما دام أن القرآن الكريم في هذه السورة بصدد عرض تاريخي مكثف لنبوة نوح ... والإخبار شيء ، واتخاذ موقف إزاء الحدث التاريخي ، أو الرأي ، شيء آخر ...

هذه واحدة ... ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ... فلو أننا وسعنا أفق نظرتنا إلى المعطيات القرآنية ، وانتقلنا إلى سورة أخرى لمتابعة مواقف نوح (عليه السلام) ، لوقعنا على آية أخرى تكمل الصورة ، وتجلو أي غبش قد يساور الذهن أو الوجدان ... نوح وهو يدعو الله أن ينجي ابنه المارق من الفيضان المعروف : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة هود ، الآية ٤٥) فها هو نوح يدعو مرةً أخرى من موقع العاطفة الأبوية ، المعاكس تماماً لدعائه الأول ، أن يعينه الله وألا يجعل ابنه من الهالكين !!

موقع العاطفة مرةً أخرى ... ولكن مقتضيات النبوة وأخلاقياتها شيء آخر تماماً ... صارم كالأرقام ... أن يتجرد النبي عن كل ميل أو هوى ... وأن ينطلق إلى هدفه على خط مستقيم ... ومن ثم يجيبه الله (سبحانه وتعالى) بكلماته القاطعة : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (سورة هود ، الآية ٤٦).

ويتبدى العطاء القرآني بتكامله المتألق الفريد ... إن نوحاً في الحالتين يدعو من موقع الانفعال ، والقرآن الكريم يحدثنا بأمانة عن هذا الدعاء ... على سبيل الإخبار ... ولكنه في

المرة الثانية يكشف عن الجانب الآخر من الحدث ... وهو حكم القرآن الكريم في الموقف ... إنه الرفض القاطع ... فليس في معيار الإيمان علاقة ما بين الآباء والأبناء ... يختار الأب طريق الإيمان ويصر الابن على المضي في طريق العصيان ... وهنالك (يجب) ... نعم (يجب) أن يستل الأب من نسيج وجدانه أية محبة أو تعاطف مع ابنه المارق ، لأن في ذلك انحيازاً عن الحق إلى الهوى والضلال ... فالإيمان الجاد هو البديل عن كل العواطف والانفعالات ، والوشائج والصلات ... وإنه حقاً قادر على ملء الفراغ ، بل إنه ليطفح ، أحياناً بمحبة من نوع آخر ينوء بها كاهل المؤمنين !!.

قلت لصاحبي ذاك : وإننا لنلمح في الرد القرآني على دعوة نوح ، وفي الموقف عموماً ، شيئاً آخر غاب عن ذهنك وأنت تقرر التعارض الموهوم بين بداهات العلم والوراثة ، وبين معطيات القرآن الكريم ، إنه ليس ثمة على الإطلاق أبناء يجدون أنفسهم مسوقين بقدر لا حيلة لهم في دفعه إلى السير على خطا الآباء ... أن يكون الآباء كفاراً فليس ثمة حتمية تجعل من أبنائهم كفاراً ... أن يكونوا مؤمنين فليس ثمة من يرغم أبناءهم على الإيمان ...

فها هو نوح النبي الذي عايش تجربة الإيمان مئات السنين ... يبتلى بابن عاصٍ ... يصر حتى النهاية ... حتى وهو يرى بأم عينيه المصير الرهيب ... على المضي في طريق العصيان ... وما أكثر الكفار الذين التقينا بهم في عهد الصراع القاسي في مكة ... ينجبون أبناء يختارون طريق الدعوة الجديدة ... ويستمعون للنداء ... ونظرة سريعة إلى قوائم المجاهدين والشهداء في معارك الإسلام الأولى في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ترينا – أيضاً – كيف قاتل الأبناء آباءهم ، ولم تثنهم عن أهدافهم أيما عاطفة قد تنحرف بهم عن الطريق ...

ترى ... – قلت له في ختام حديثي – كم من الأخطاء قاد إليها سوء الفهم وضيق الأفق ... وعدم القدرة على الاستشراف ... في الحكم على معطيات القرآن الكريم ؟.

(١٥)

لحقني أحد طلبتي في كلية آداب جامعة الموصل التي كنت أعمل فيها في سبعينيات القرن الماضي قائلاً لي وأنا متجه إلى مكتبي في قسم التاريخ : أرجو أيها الأستاذ أن تمنحني دقائق من وقتك ... أعرف انك متعب بعد إلقاء أكثر من محاضرة صبيحة اليوم ، ولكنه السؤال الملح والمقلق الذي طالما دار في ذهني بحثاً عن الجواب المناسب الذي ألجم به تقوّلات بعض زملائي الشيوعيين الذين يتهمون الإسلام بتضييق الخناق على المنتمين إليه ، وبوضع القيود الصارمة في أيديهم وأرجلهم ، ومنعهم من تناول الطيبات ، فأية رجعية هذه التي ينادي بها هذا الدين ؟!

قلت له : الحقني إلى المكتب فلسوف أجيبك بالإيجاز المطلوب على ما تتوق إليه وقدر ما يسمح به وقتي الضيّق من دقائق الفرصة العشر ...

أردف الطالب قائلاً : لا تدري أيها الأستاذ الكريم كم أنا ممتن لك بتفضلك علي بوقتك الثمين، ولكنها – كما يقول المثل – الضرورات التي تبيح المحظورات !

أجبته على العكس تماماً ، فأنا ممن يرحّب كثيراً بأسئلة طلبته سواء داخل نطاق المحاضرة أم خارجها ، لأنها انما تدّل على تفاعلهم مع محاضراتي ورغبتهم الصادقة في استكمال جوانبها جميعاً ... ومهما يكن من أمر فها أنا أجيبك على سؤالك هذا الذي أرجو أن تنقله لزملائك الشيوعيين الذين طالما ضربوا في التيّه على غير هدى ، وأعمتهم دوغماتيتهم عن رؤية الحقيقة الناصعة كما هي بعيداً عن القوالب والكليشيهات الفكرية الصارمة التي أرادت الماركسية أن تأسرهم بقيودها !!

إننا نقرأ في كتاب الله هذه الآية ، من بين حشد كبير من الآيات في السياق نفسه :

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٤٥).

بهذا الصدق الرباني الذي علمنا إياه الإسلام ، يحدّثنا كتاب الله على لسان رسوله (عليه السلام) عن مسألة يومية تتعلق بالطعام والشراب ... بلمسات واقعية ، عفوية ، سمحة ، ترفض الدجل الديني الذي مارسته الأديان المنحرفة ، أو بعبارة أخرى محرفو الأديان وكهنتها ومرتزقتها ...

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ... ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٤٥).

بهذا الاطلاق السمح الذي يرفض القيود والتعقيدات والتضييق على الناس ... ويفتح أمامهم – بدلاً من ذلك – طريق الحياة السويّ عريضاً ... واسعاً ... ممتداً ...

إن القاعدة هي الاطلاق ... وأما التحريم فهو مجرد استثناءات محددة ، وضعت لصالح الإنسان نفسه ... وفرق بين استثناء محدد يجيئ لصالح الإنسان بعلم من الله ، وبين حشد من التحريمات والأغلال يريد مرتزقة الدين أن يطوقوا بها أتباعهم لكي يزيدوهم ذلةً وخضوعاً.

في الأديان المنحرفة ، يمارس المرتزقة لعبة مكشوفة ، ولكنها تدر عليهم الكثير : إنهم بتضييقهم الخناق على أتباعهم ... بتجهيلهم والالغاز عليهم ... بتجويعهم وإفقارهم ... بإخضاعهم وإذلالهم ... بوضع القيود والأغلال في أيديهم وأرجلهم ... يضمنون عبوديتهم المطلقة ، والكسب الحرام ، الذي هو مردود هذه العبودية ...

ولقد جاء الإسلام السمح في الوقت المناسب تماماً ، جاء لكي يكسر الحلقة المفرغة ، ويدمر على المرتزقة مواقعهم ، ويوقف لعبتهم الغادرة ، ويحرر المستعبدين من ربق الأوهام والأضاليل والخرافات ، التي أذلتهم طويلاً : ﴿ ... وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾(سورة الأعراف ، الآية ١٥٧).

وفي كثير من الآيات يؤكد القرآن الكريم رفضه للتحريمات المصطنعة ، وإطلاقه حرية الممارسة الضرورية في أصولها المعقولة : مأكلاً وملبساً وإشباعاً جنسياً ... بما يوازي حجم الإنسان ... وحجم ضروراته ... لا إفراط ولا تفريط : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(سورة البقرة ، الآية ١٧٢) ، ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴿ ٣١ ﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴿ ٣٢ ﴾ (سورة الأعراف ، الآيتان ٣١-٣٢) ، ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ... ﴾(سورة آل عمران ، الآية ٩٣).

وفي كثير من الآيات يسخر القرآن الكريم بأسلوبه الذي يرسم الصور ، ويجسّد المواقف ، من أضاليل كهنة الدين ومرتزقته ، ويكشف الهدف الحقيقي الذي يكمن وراء هذه الأضاليل : ﴿ ... وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٤٠)، ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٣٦) ، ﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴿ ١٣٨ ﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴿ ١٣٩ ﴾ (سورة الأنعام ، الآيتان ١٣٨-١٣٩)، ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٤٣).

ولكن ... إذا كان القرآن الكريم يرفض هذا الإفراط المتمثل بأغلال المرتزقة وتحريماتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وكبتهم لضرورات الإنسان وأنشطته الحيوية ... فإنه في

المقابل يرفض أي تفريط يقود إلى الإسراف في التعامل مع هذه الضرورات : مأكلاً وملبساً وجنساً ... بما يتجاوز حجم مطالبها المعقولة إلى نوع من البذر والاستنزاف يقود ليس فقط إلى تدمير الإنسان المفرط ، المسرف ... بل إلى تدمير المجتمع البشري بأسره ... المجتمع الذي يسمح للتفريط بأن يكون ممارسته اليومية ...

والآيات القرآنية كثيرة في هذا المجال ...

وشواهد التاريخ كثيرةً هي الأخرى ...

وأظن أن هذا يكفي وقد أوشكت الفرصة على نهايتها وآن لي أن أهرع إلى المحاضرة التالية.

فقال الطالب ، لا تدري أيها الأستاذ الكريم كم أنا مدينٌ لك بتفضلك علي بهذه الإجابة الحاسمة التي سأعرف كيف أقطع بها ألسنة السوء !!

(١٦)

إن الدعوة إلى وحدة الإنسانية ، وإلى القاعدة الواحدة التي تنبثق عنها الأديان كافة ، إنما هي سلاح ذو حدين ... يعتمدها الإسلام – إيجاباً – لتأكيد وحدة الأديان ، ومصدرها الواحد ، ووظيفتها المشتركة ، وهدفها الواحد ، ووحدة صيرورتها التاريخية ...

ويعتمدها هدّامو الإسلام ، كالباطنية في الماضي ، والماسونية وغيرها من الحركات ذات الطابع الإنساني المخادع في الحاضر ، (ويجب أن نلاحظ التشابه بينها جميعاً في أكثر من جانب على مستوى الأساليب والمضامين والأهداف) ... يعتمدونها لتدمير الحدود المتميزة بين الأديان ، وبخاصة الإسلام ، لإضعاف تأثيرها بالتالي بعد أن تفقد خصائصها المتميزة ، وملامحها المستقلة ، وشخصيتها المتفردة ... وتذوب ...

والذين يسهمون في تأكيد هذا الجانب (الهدّام) ، أحد اثنين : إما ماكر خبيث يعرف مسبقاً النتائج الخطيرة التي تتمخض عن دعوة كهذه تقوم على ما يشبه قاعدة الأواني المستطرقة، حيث تنحدر فيها المستويات العليا صوب الدنيا ، فتستوي جميعاً ... ولن يكون هذا إلا على حساب الأديان والمذاهب الأكثر تفوقاً ... والإسلام يقف في قمة هذه الأديان ... ومن ثم فستكون التضحية فادحةً تستحق أن تبذل من أجلها جهود وترسم برامج وتتخذ خطوات ...

وإما ساذج غافل ، يستهويه أن ينتمي بدينه وعقيدته إلى هذه الواجهة الإنسانية المفتوحة ، التي تحتوي أبناء جميع الأديان ، وتضعهم في صف واحد بمواجهة صف المادية والتحلل

والإلحاد ... سيما وأننا في عصر نحن في أمس الحاجة فيه إلى أن توحد طاقات العالم الإيمانية في معسكر واحد ، قبل أن يكتسحه معسكر المادية والإلحاد !!

ولكن هؤلاء السذّج الغافلون لا يدرون أن انتصاراً حقيقياً لن يأتي بدون تأصيل الذات العقائدية ، وتعميق ملامحها المستقلة ، وتعزيز شخصيتها ، وحمايتها من التفكك والذوبان ...

والعقائد كالحضارات ... ما لم تكن متميزة ، أصيلة ، تحمل خصوصيتها ، فلن يكون لها تأثير فعّال في مجرى التبادل الحضاري العام ... ومن ثم فإن الانتماء إلى دعوة كهذه سيجعلنا نخسر مرتين : نخسر عقيدتنا ، ونفقد احتمالات انتصارنا على الخصوم ... وهي خسارة مؤلمة حقاً لأننا – بذلك – كمن يختار أن ينفي نفسه من العالم ، أو ينزع عن وجهه ملامح وجهه ... فيغدو بلا وجه !!

وثمة آخرون من المهزومين نفسياً لا يقدرون على ذكر شيء من قيم الإسلام ومعطياته إلا وجدوا أنفسهم مسوقين لذكر شيء عن قيم المسيحية ومعطياتها خوفاً من أن يتهموا بالتمذهب ... أو الانغلاق الديني ... أو إلى آخره من هذه الاتهامات التي يعتمدها معسكر الخصم سلاحاً معنوياً لتدمير ثقتنا بعقيدتنا وأنفسنا ... أكثر من ذلك ... إنهم يبدؤون بالمسيحية ثم يعطفون على الإسلام ، ويذكرون – وهم المسلمون !! – السيد المسيح بالتبجيل الكامل ، ثم يعرجون على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) بشيء من التبجيل ...

وتبجيل الأنبياء جميعاً (أخلاقية) علّمنا إياها القرآن الكريم ... لكنها عندما تأخذ سياقاً كهذا فإنها تغدو هزيمة ونكوصاً !!

ولمن يريد أن يطلع على شواهد لهذا (النكوص) أن يلقي نظرة على تراثنا الأدبي المعاصر ... فهنالك سيلتقي بالكثير من العبارات والمصطلحات والأعراف المسيحية : من تكريس ... وتعميد ... وصلب ... وخطيئة ... وتخليص ... واعتراف ... إلى آخره ... تصدر عن أدباء مكتوب على دفاتر نفوسهم أنهم مسلمون ... ومقابل هذا لا نجد ثمة ما يوحي بانتمائهم – ولو شكلياً – للإسلام ... إن هزيمتهم التي صنعوها بأنفسهم ، والتي لا مبرر لها على الاطلاق ، تجعلهم ينسلخون ، بوعي وبدون وعي ، من كل ما من شأنه أن يذكر بالإسلام !!

وربما قلل هؤلاء من انهزاميتهم لو أدركوا ما يفعله الطرف الآخر ... إنه لا يتعاطف – بالمقابل – مع الإسلام ، ولو على نطاق الشكليات والمجاملات ... وتبادل المحبة بالمحبة والود بالود ...

بل على العكس يزداد هذا الطرف تشبثاً بمواقفه واستعلاءً بها ، واعتزازاً بمعطياتها ... وهو يرى هؤلاء المنهزمين يتمسحون بقيمه وطقوسه وأعرافه ، ومصطلحاته ...

والحق معهم ... فإن من لا يحترم نفسه لا يحترمه الآخرون ...

وثمة من يبلغ به الحقد على الإسلام والكيد له أن يكون على استعداد لنقد الموقف الديني كله والتشكيك بجدارته في عالمنا المعاصر ... إذا كان في نقده وتشكيكه ما ينسحب على الإسلام فيضعف موقفه ...

كنت في محاضرة يوماً لأحد أساتذة التاريخ المحسوبين على خط المادية ... وكان موضوعها يدور حول : (حي بن يقظان) ، لابن طفيل ونظرية المعرفة ... وقد كانت المحاضرة على درجة كبيرة من التهافت ، والسطحية ، والتناقض ... وراح المحاضر – بطريقة تتسم بالسذاجة والفجاجة – يسعى إلى جعل ابن طفيل من الماديين الديالكتيكيين ... كانت المحاضرة على درجة من الضعف جعلها تتعرض لنقدات عنيفة من قبل عدد من الحضور ... وإذ بدا تفوق الموقف الإسلامي عبر ساعات النقاش ... أعلن أحد أساتذة اللاهوت عن عدم ارتياحه ثم طلب الكلام ... وكان من المفروض أن يدافع – هو الآخر – عن الموقف الديني بمواجهة مناهج التبذل والتزييف المادية ... لكنه على العكس تماماً ، هاجم الموقف الديني ، وأكد على أن العصر الحاضر ... عصر العلم والتجريب ... والأرض ... لم يعد بحاجة إلى نظريات للمعرفة تأتي من فوق ... أو تتنزل من السماء !!

ألم أقل لكم ؟! إنه من أجل أن يقتلوا الإسلام ... هذا الدين القيم ... المتفرد ... مستعدين لأن يتنازلوا عن قناعاتهم الدينية أيضاً ، وفق المثل القائل : (اقتلوني واقتلوا مالكاً معي) ...

ولكن (مالكاً) ... هذا العملاق ذا الأربعة عشر قرناً من العمر تزداد قامته ارتفاعاً يوماً بعد يوم ... ولن تستطيع قوةً في الأرض ... دينية أم مادية ، أن تنال منه ... أو تبلغ كعبه !!

(١٧)

عبر أمسية حاشدة في بيت أحد الأصدقاء ، وبعد أن تناولنا طعام العشاء ، لا أدري من الذي أثار موضوع التفريط بفرصة خطبة الجمعة قائلاً أنها تمثل الإعلام الناجح بشروطه كافة. في تغطيتها الزمنية ، كل اسبوع على مدار العام كلّه ، وفي تغطيتها المكانية حيث لا توجد مكان في الأرض إلا وفيها مسجد تقام فيه صلاة الجمعة كل اسبوع ، وفي الزام الجماهير بالحضور ، وفي اعتبار الانصات للخطيب وهو يتحدث جزء أساسياً من المهمة الدينية للخطبة !

فأية فرصة إعلامية أكثر مواتاة من هذه التي كان يمكن أن تحرّك أمة بكاملها ، وتوقظها من سباتها العميق ، وتدفعها بقوة إلى الانطلاق للعمل الجاد بكل اتجاه ؟

فما الذي حدث – أيها الأخوة – لهذه الفرصة الذهبية التي – وأعوذ بالله – انقلبت علينا وبالاً ؟

تحدث كل أخ من المدعوين في محاولة منه لإضاءة جانب من الموضوع ، ثم ما لبث الدور أن جاء علي فقلت :

يمتلك المسلمون اليوم طاقات كبيرة وقدرات فاعلة لا تتوفر لغيرهم من الأمم ، ولكنهم لا يفيدون منها ، لا في حدودها القصوى ، ولا المتاحة ، ولا حتى في حدودها الدنيا ...

إنهم – للأسف – يمارسون إزاءها ما يمكن تسميته هدر الطاقة ، ويبدو أنه ليس ثمة أمة في العصر الحديث أبرع في هدر طاقاتها من الأمة الإسلامية وبضمنها العربية بطبيعة الحال.

ليس هنا مجال البحث عن الأسباب فهي أوضح من أن يُشار إليها ، كما أنه ليس هنا مجال استعراض الطاقات المهدورة ؛ فهي أكثر من أن تعد وتحصى ... ولكننا نقف وقفة سريعة عند واحدة فحسب من ممارسات الهدر ، كاد المسلمون بالإلف والاعتياد أن ينسوها تماماً ، تلك هي المنابر التي تُلقى عليها خطب الجمعة ، مرةً كل أسبوع ، في مشارق الأرض ومغاربها.

آلاف المنابر وآلاف الخطب الاسبوعية وملايين المستمعين ، والحصاد في معظم الحالات لا شيء !!

بل إنه يتجاوز اللا شيء هذه صوب ردود الأفعال السلبية التي تعبر عن نفسها بالملل حيناً ، وبالقرف حيناً آخر ، وبالسخط حيناً ثالثاً ، وبالهروب إلى النوم حيناً رابعاً ، وبمزيد من الجهل بالأمور حيناً خامساً ...

بل إنه يتجاوز هذه السيئات كلها إلى ما هو أمّر وأنكى : التضليل الذي يمارسه كثير من الخطباء في مواجهة المصلين من أجل أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ...

بل إنه يتجاوز هذا أيضاً إلى ما يمكن اعتباره خطيئة واضحة كالشمس ، تردد بعض المصلين في التوجه إلى صلاة الجمعة لهذه الأسباب جميعاً رغم أنّ هذه الصلاة فريضةً لا مجال فيها البتة لجدل أو نقاش.

لماذا هذا كله ؟ في وقت كان يمكن أن تتحول فيه المنابر إلى طاقة فاعلة تمنح المسلمين عطاءً حسناً متجدداً لا ينضب له معين ؛ من العلم والمعرفة والوعي بمجريات الأمور وطبائع الأشياء !

يمكن أن يكون المنبر أداة إعلامية للتحقق بالمزيد من الوعي والإحاطة بأطراف الوقائع المتجددة على مدى العالم كله فيما يعد فهمه والإلمام به ضرورياً لكل مسلم ومسلمة ، إن على مستوى السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الاجتماع ، أو العمران ...

ويمكن أن يكون المنبر أداة علمية ، ثقافية ، لمنح جماهير المسلمين المزيد من المعرفة في شتى الميادين وفي مختلف الحقول ، فيما ينمي المعطيات التي تلقوها عن المؤسسات التعليمية الأخرى ، ويربطها بأصولها العقيدية الإيمانية كي لا تتحول إلى سلاح مضاد يشهر ضد العقيدة والإيمان !

ويمكن أن يكون المنبر أداة تربوية تمنح المسلمين ، وبخاصة أولئك الذين يقفون على عتبات الوعي ولم يتجاوزوا بعد سني الصبا والشباب ، المزيد من القيم التربوية وتدلهم على الطريق.

ويمكن أن يكون المنبر أداة حركية يرسم الخطط التفصيلية ، ويحدد الأهداف المرحلية ، ويحفز جماهير الناس من أجل بلوغها بالاختزال الزمني المطلوب.

ويمكن أن يكون المنبر – كذلك – أداة موازنة لصالح الإسلام نفسه بمواجهة أجهزة الإعلام والثقافة والتعليم والتربية ... يمحص ويناقش ويفند ويثبت ويربط معطيات هذه الأجهزة بما يجعلها لا تمر إلى عقل المسلم إلاّ من خلال المنظور الإسلامي.

كثيرة جداً هي الإمكانات التي يمكن أن يتمخض عنها هذا التقليد الإسلامي الأصيل الذي أريد له أن يكون فاعلاً ، مؤثراً ، حاضراً في سدى الزمان ولحمة المكان ... أي بعبارة أخرى : معاصراً ، بمعنى الكلمة ...

إن المرء ليتساءل : لم يحاول معظم الخطباء أن يهربوا من مواجهة مشاكل العصر وتحدياته إلى موضوعات عفا عليها الزمن ، وأصبحت جزءاً من التاريخ ؟ لم يجبنون عن الدخول في حوار مثمر مع معطيات الساعة المتجددة لكي يقولوا فيها كلمتهم الأخيرة ، ويحيطوا جماهير المصلين علماً بكنهها وأبعادها ؟!

ألا يتحتم أن تكون خطبة الجمعة قناة تتفتح على الحياة التي يحياها المسلم اليوم ... على ما يتخلق في ساحاتها وأروقتها ... على ما يصير في جنباتها ؟!

ألا يتحتم أن يتحوّل خطيب الجمعة إلى صوت إعلامي ينقل للناس ما يجري على ساحة العالم مما يمس المسلمين من قرب ومن بعد ... بل إنه في زمن السرعة والاختزال والتواصل الجغرافي الخاطف ، ليس ثمة ما لا يهمهم ، ومن ثم وجب أن يكونوا على إلمام به لكي يسيروا

على بينة ، ويعرفوا جيداً المسالك التي عليهم أن يجتازوا ، والخرائط المعقدة التي ترسمها تحديات العصر والتي يضيع في شعابها من لا يتلقى الضوء والإشارة ساعة بساعة وأسبوعاً بأسبوع.

ويتساءل المرء كذلك : لم لا يتحول الخطيب إلى معلم أو أستاذ يجعل من ساعة اللقاء محاضرة علمية منهجية مرسومة تعالج فيها مسألة ما ... قضية محددة من كافة جوانبها ، وتشبع بحثاً وتحليلاً لكي يخرج المصلون وقد أضافوا إلى علمهم علماً ؟!

ولماذا هذا الصراخ الذي يصك الأسماع ويتلف الأعصاب فيما لا مبرر معه للصراخ ؟! أمن الضروري أن تكون خطبة الجمعة صراخاً مستمراً حتى والخطيب يعالج مسائل لا تقتضي هذا الضجيج المثير أحياناً للقرف والاشمئزاز ؟! ألا يمكن أن تخاطب جموع المصلين ، في عصر الأدوات الصوتية المكبرة والموصلة بأسلوب هادئ رصين ، قد يحقق ما لا يحققه الصراخ ؟!

أسئلة كثيرة تدور في ذهن المسلم ، واعتراضات شتى تحيك في نفسه وهو يجد هذه الممارسة المؤثرة التي منحها الإسلام أتباعه تهدر على أيدي وألسنة حشود الخطباء التقليديين ، وقد تتحول إلى سلاح مضاد ... فلماذا ؟!

أغلب الظن أن المدعوين كافة اقتنعوا بوجهات نظري ، إذ لم ترتفع يد في الاعتراض على هذا الجانب أو ذاك مما عرضته عليهم ... واغلب الظن كذلك أنهم قرروا فيما بينهم وبين أنفسهم ، العودة عبر أمسيات أخرى لتحليل الجانب الآخر من الموضوع ذلك الذي يبحث عن الحلول المقترحة لتفعيل هذا الخطاب الإعلامي ، وما أكثرها !

(١٨)

كنت وزميلي الفرنسي المسلم نتخطى بهدوء في شارع الشانزليزيه بباريس ، نقلب أنظارنا فيما نراه ونلحظه ذات اليمين وذات الشمال ، عبر ذلك الدفق الهائل من المارة من شعوب الأرض كافة ، رجالاً ونساءً ، بيضاً وسمراً ، شباباً وشيوخاً ... بعضهم كان يمضي وحده ، ومعظمهم كان يتأبط ذراع فتاة أو شاب أصغر منه قليلاً ، وينكب على زميلته أو زميله لثماً وتقبيلاً بين الحين والآخر ... وكان صديقي الفرنسي يلكزني في كتفي قائلاً : انظر انهم مثليون، فكنت أجيبه : دعنا منهم فان الناظر إليهم سرعان ما يصيبه التقزز والدوار ، خاصةً وهو يرى التميّع والتخنث لدى هؤلاء المثليين ، ووضع الأقراط الكبيرة في الآذان ، وصبغ الوجوه بأحمر الشفاه !!

وأردت أن انتهزها فرصةً لتقديم شيء عن الفارق الكبير بيننا وبينهم ، رغم الحاجز الحضاري الهائل الذي يفصلنا عنهم ... ولكن وكما يقول المثل : (ليس بالأشياء تحيا المجتمعات) !!

قلت له : أظنك قد سمعت أو قرأت شيئاً عن (الجنتلمان) ذلك الرجل الغربي الأنيق ، المرن في علاقاته الاجتماعية ، الناضج فيما يمارسه من أعمال ، والذي يملك قدراً من القيم الخلقية والسلوكية تعينه على كسب محبة الناس واحترامهم ؟

أجابني : نعم ... لقد سمعت عنه كثيراً ...

فقلت له :

وعندما ينزع هذا (الجنتلمان) بذلته الأنيقة بمجرد أن يجد نفسه بعيداً عن المجتمع الذي يسعى إلى كسب محبته ، ومعونته على النجاح ... يبرز لنا الرجل – وقد تعرى عن المظاهر المصطنعة – بشعاً حقاً ... كبيت جميل تهاوت (ديكوراته) الخارجية بفعل الزمن ، فأطل على الشارع بشروخه وبثوره ... دميماً ... مهدماً ... قبيحاً ...

فليس بين هذا (الجنتلمان) ، وبين الإنسان الكامل الذي حلم به الفلاسفة أيما صلة حقيقية ما دام أن الجوهر خراب ... وأن (الجنتلمانية) لا تتجاوز نطاق القشرة الخارجية ... وعندها حلم الأوروبيون بالإنسان الكامل ... فجاؤونا بالسوبرمان الذي أوقف عليه الأديب الألماني والفيلسوف المأزوم (نيتشه) الكثير من كتاباته ... وغير (نيتشه) كثيرون حلموا به ... حتى (برناردشو) الأديب الذكي الساخر ... حلم به في بعض مسرحياته ... فهو حيناً الرجل الذي يتفوق على تحديات المرض والتآكل والفناء ... وهو حيناً آخر يتجاوز التحديات الأخلاقية ، فيقفز فوقها – بقدرة قادر – نظيفاً ، متوحداً ... غير منقوص.

ورغم أن (السوبرمان) مجرد حلم من الأحلام ... إلا أنه حلم لم يقدم لنا بشراً سوياً. إنه يتخيل ما يشبه الإنسان الآلي ... مخلوق يملك قدرات هائلة من المعلومات ، أو قدرة هائلة على اختزال الزمن ، وحل المشاكل والتعقيدات ... وثباتاً صخرياً عجيباً إزاء الإغراءات والنوازع والرغبات ... ولكنه لن يكون إنساناً كاملاً بحال من الأحوال ...

لقد أبرز المجتمع الغربي (الجنتلمان) كمثل أعلى ، ولما فشلت المحاولة ، عاد العقل الغربي لكي يطرح البديل فحلّ (السوبرمان) محله ...

ولكن الغربي – يقيناً – ليس بمقتنع بهذا البديل ، تماماً كما أنه لم يكن مقتنعاً بسلفه (الجنتلمان) ... ومن يدري ؟ فلعل محاولة ثالثة تجري للبحث عن المثل المفقود.

وبمجرد أن نقوم برحلة قصيرة عبر مجتمعاتنا الإسلامية ... في الزمان أو في المكان ... فإننا سنعثر ببساطة ... على الإنسان ... ولا أقول الكامل ... فالكمال لله وحده ... ولكن الإنسان السوي ، المتفوق ، المتوحد ، المحبوب ... الإنسان الذي علمه دينه السمح الخلاق ... كيف يتجاوز النقص ، والتظاهر والادعاء ... كيف يصارع قوى الارتكاس والشد إلى أسفل ... وينطلق إلى أعلى ، متوحداً ، خفيفاً ، قديراً على التنفيذ الصعب والصبر عليه ... متمكناً من التحقق بالالتزام الأخلاقي بمرونة تثير الدهشة والإعجاب.

إن الإنسان السوي الذي يبعثه الإسلام ، يرفض المظهرية (الجنتلمانية) على الطريقة الغربية ، لأنه يرفض التمثيل ، والتصنع ، والظهور أمام الناس بوجه هو غير وجهه الحقيقي الذي يعرفه الله (سبحانه وتعالى) جيداً.

كما أنه يرفض المثاليات الطوباوية التي يحلم بها الغربيون ، لأنها لا تعدو أن تكون إسقاطات نفسية ، وسعياً مهووساً للتعويض غير الواقعي عن واقع ملئ بالشروخ ... يرفضها ؛ لأن دينه علمه كيف يحترم الحياة ... كيف يكون واقعياً حقاً ... فلا يجيئ تغييره إلا على خرائط الواقع ، ومن خلال حيثياته ومكوناته ... أما الحلم بسوبرمان قادم ... فإنه لا يعدو أن يكون نوعاً من العبث العقلي الذي يرسم ملامح أناس لا يملكون لحم بني آدم ودمهم وأعصابهم ... ولكن صلابة الحديد وبرود المعدن الذي صيغوا منه ...

في الرحيل عبر عوالم الإسلام ... في مدنه وقراه ... في شوارعه وأزقته وأحيائه ... في تاريخه الماضي وواقعه الراهن ومستقبله ... يمكن أن نعثر ببساطة على نماذج واقعية حيّة لما عجز الغربيون من العثور عليه ... ولا يزالون ...

ليجرب كل واحد منكم أن يقوم بالرحلة ، فإنه واجد حشداً من هذه النماذج الفذة بين أهله وأصحابه ... بين رفاقه وإخوانه ... فإن لم يجد أحداً ها هنا أو هناك ، فليلتفت قليلاً إلى الوراء إلى الجيل الذي سبقه فحسب ... أناس يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ... يضحكون ويبكون ... يمزحون ويجدون ... يتوقدون ذكاءً ... يتألقون أخلاقاً ... يشعون نظافة جسدية وجمالاً روحياً ... يتضوعون محبة والفة ووداً ... يثورون كالبركان إذا اقتضى الأمر أن يثوروا ... ويصبرون كالجبال الرواسي إذا اقتضى الأمر أن يصبروا ... أناس لا تفارق البسمة شفاههم حتى وهم يبكون ، ولا النور والوضاءة عيونهم وجباههم ، حتى وهم يجتازون الدروب المظلمة ، بل حتى وهم يغيبون في القبور ... أناس كانوا حاضرين دوماً في قلب العصر الذي ولدوا فيه ، وفي صميم الجماعة التي شرفوها بوجودهم ، ولأنهم كانوا حاضرين دوماً ، فقد أسهموا كل وفق قدراته المتاحة ، في تغيير التاريخ ... وفي صنعه كذلك ...

أين هؤلاء من (الجنتلمان) الغربي ذي البذلة الأنيقة والروح الخربة التي تنعق في أطلالها الغربان ؟ بل أين هم من (السوبرمان) الغربي ذي القلب الفولاذي الذي لا يعرف أخلاق الإنسان ... ولا أشواقه وأمانيه ؟.

يبدو أن تحليلي هذا أثار دهشة وإعجاب زميلي ذاك ، إذ ما لبث أن طالبني بالمزيد قائلاً : إن شارع الشانزليزيه يمتد لمسافات طويلة ، وان ملاحقة مارته بعيوننا وجوارحنا قد تصيبنا بعمى الألوان ... وقد تجرح مشاعرنا ، فلماذا لا نغض الطرف عن هذا كله ، وننظر إلى الآفاق الأبعد ... إلى عالم المثل والقيم والأفكار ؟!

أجبته : انك تذكرني بمداخلتك الذكية هذه بحوار جرى مع صديق عائد من الغرب حيث طرح هذا السؤال : ما الذي يجعلهم ينفرون منا ؟

لم نتطرق – بطبيعة الحال – للبعد المذهبي أو الديني ، أو حتى التأريخي ، فتلك مسائل أخرى قد لا يكون للغربي فيها أي مبرر موضوعي عادل على الاطلاق ؛ اللهم إلا مبرر الحقد ، والمصلحة ، ورد الفعل ، والانغلاق الديني ، وسموم الأنشطة المضادة وبخاصة الصهيونية والمادية والتبشير ... وما شئنا من سلبيات قد تكون بالفعل الدافع وراء كراهية الغرب الصليبي والمادي للشرق المسلم.

إنما كان الحوار ينصب على نقطة محددة ، كنا نجد أنه في إطارها المحدد هذا قد يكون للغربي أن ينفر من الشرقي المسلم والعربي على وجه الخصوص ، وهو أمر يعرفه جيداً معظم الدارسين هناك من طلبتنا أو الذاهبين إلى هناك من الأساتذة والمتطببين والسياح.

بعضهم يحيله على الدوافع التي ألمحنا إليها قبل لحظات ، فيحاول بذلك أن يتحايل على الأسباب الأكثر مباشرة وقرباً ، وبعضهم يحاول أن يتعامى عنه ولا يكترث به رغم أنه واقع مشهود ... وفئة ثالثة أقرب إلى الموضوعية وأكثر إحساساً بضرورة تجاوز " الوضع السيئ " تسعى لوضع يدها على الأسباب للداء المستعصي.

جرّنا الحوار إلى تركيز المسألة بكلمتين فحسب ؛ تأثيرات السلوك ، فإن الشرقي المسلم ، العربي على وجه الخصوص قلما يسعى ، وهو يحيا لفترات فد تطول وقد تقصر في لندن أو أدنبرة أو أكسفورد أو باريس أو ليون أو ميونيخ أو روما ... أو واشنطون أو موسكو ... أو غيرها ... للتحقق بسلوك متحضر ، مقبول ولا أقول متدين ، لأن معظم الذاهبين إلى هناك ليسوا متدينين رغم أن الدين ، هو في ناحية من نواحيه ، الضمان الوحيد للسلوك المتحضر الموزون ...

فبمفردات السلوك الجافي ، غير المتحضّر ، يمارس أصحابنا هناك خطيئة فادحة بحق كل ما هو عربي مسلم أو شرقي ... إنهم ، أو الغالبية منهم بعبارة أدق ، يضربون مثلاً عملياً يؤكد للقوم ، بالمنظور والملموس ، مدى تخلفنا عنهم ... مدى جفائنا المتأصل في العروق ، ويريهم الفارق الكبير بين المستوى الحضاري الذي بلغوه والمستوى المتدني الذي يخيل إليهم بما يرونه من هذه المفردات السلوكية ، أن الشرق المسلم ، والعرب على وجه الخصوص يتخبطون فيه ...

تحدثنا بألم عن كثير من الحالات السيئة وضربنا الأمثلة على العديد من المفردات ، مارسها هذا الرجل أو ذاك ، وقدمها للخصم وسيلة إعلام سيئة تتحول على أيديهم إلى سلاح مضاد ، وتستقر في نفوسهم وعقولهم مزيد كراهية ونفور وازدراء ...

ليس ثمة مبرر لطرح الشواهد ، ولا أعتقد أن ذا عينين يخفى عليه ما يجري هناك على أيدي العديد من الدارسين والسائحين في عواصم الغرب ... في المتنزهات والشوارع والفنادق والأسواق المركزية والنوادي والمسارح والمقاهي والمباغي والأزقة والشوارع ... وحتى في الشقق وغرف المنام ...

مفردات سلوكية سيئة ، متدنية ، جافية ، تحدّث عنها الكثير من العائدين ، أما الغربيون فلم يكتفوا بالحديث عنها ، والتقزز منها ، وإنما تجاوزوا ذلك – بنزعتهم البراغماتية المنفعية المعروفة – إلى استغلالها أدوات دعاية مضادة وابتزاز للأموال والأخلاق والعقول ، بل إنهم تجاوزوا ذلك إلى نوع من الاستعباد والقنانة يفرضونها على أولئك الذي ارتضوا ، بالشهوة الساقطة والسلوك المتدني ، أن يغدوا أدوات بأيدي مراكز التوجيه الغربي ، يدفعون بها إلى الشرق لكي تلعب دورها المرسوم ضد الأمة ... والوطن ... والعقيدة.

وتذكرنا بأسى ، والحديث يدلف بنا من مسألة لأخرى ، كيف أن سلاح السلوك المنظور هذا كان بأيدينا يوماً ففتحنا به العالم ، وكسبنا عقل الإنسان وقلبه ، وخفقت راياتنا في كل مكان ... وكيف أنه يتحول اليوم إلى سلاح مضاد نشهره ضد أنفسنا فننحسر في خرائط العالم ، ونزداد انكماشاً وتضاؤلاً ... ونُرغم على أن ننزوي ، وسط إحساس غامض بالدنية والمهانة ، وأكثر من مُركب نقص تجاه كل ما يتعلق بخصومنا أياً كان موقع هؤلاء الخصوم ...

قلت لصديقي : لقد رأيت نماذج منهم وهم يتحدثون ، بتباهٍ ، عما فعلوه هناك مع هذه الألمانية أو تلك ، وفي هذا البار أو ذاك ، ووسط هذه المناسبة العائلية أو تلك ... لقد أصابني القرف والاشمئزاز وأنا أتمثل ممارستهم هناك ... شيء يثير الاحتقار حقاً ، وهم أبناء بلدي ، محسوبون على الأرض التي انتمي إليها ، فكيف بالغربيين " الغرباء " ؟! كيف بالغربيين "

الخصوم " ؟ كيف بأعداء ديننا ووطننا إذا نظروا إلى هذه الممارسات الدنيئة الجافية ، البعيدة عن مطالب التحضر فضلاً عن مطالب الأخلاق والدين ؟ ماذا هم متصورون ؟ وماذا سيبنى على تصورهم هذا من مواقف وأحكام وسياسات ؟

ذلك هو أيها الزميل العزيز الوجه الآخر للصورة ... للمسلم المعاصر في رؤية الغربي ، تماماً كما كان الوجه السابق هو عرض لرؤية الإنسان المسلم للغربي ... والحق أننا إذا أردنا الوصول إلى النتائج الصحيحة في أية مسالة معرضة للنقاش أن نأخذ جانبيها معاً ... أن نسلّط كاميرتنا على أطرافها كافة ، وأن لا نتشبث بمبدأ (إما هذا أو ذاك) بل أن نستبدله بمبدأ (هذا وذاك) !!

وجدت زميلي ينصت إلي باهتمام بالغ ، إذ ما لبث بعد أن أنهيت حديثي أن قال : يا ليتني اسمع منك المزيد لكي اختزن في ذاكرتي المعطيات التي اتمكن من أن أناقش بها زملائي الفرنسيين الذين طالما أزعجوني بأطروحاتهم الملتوية ... برؤيتهم العوراء التي لا تكاد ترى إلاّ ما تتميز به الحضارة والحياة الغربية من قيم وكشوف ومعطيات ... انهم مصرون على موقفهم هذا وكأنهم قد أعطوا عهداً لأنفسهم وللآخرين إلا أن يتحركوا في سياقه ...

أجبته : يبدو أن رؤيتهم المادية ، وحتى العلمانية ، ومركزيتهم الأوروبية ، علمتهم هذا الذي تقوله ، وانني أحب أن أواصل حديثي في هذه المسألة بالذات لكي أمنحك وامنحهم هم أيضاً ، بعض المسائل الأساسية إذا أردنا أن نحيا حياتنا ككائنات كرمها الله (سبحانه وتعالى) وعجن في تكوينها نفخة الروح العلوية بقبضة الطين السفلية ... و ....

قاطعني متلهفاً : زدني أيها الصديق العزيز ...

قلت :

هل جرب أحدنا أن يؤمم حياته ووجوده وتجربته الذاتية وباطنه وظاهره ... لله ؟!

هل أحسّ أحدنا بالطعم العذب ، والنكهة الحلوة ، والإيقاع المتفرد ، والفرح الطاغي ، والاستقرار ، والتوحد ، والأمن ... وهو يمارس المحاولة ؟

هل قَدِرَ أحدنا على تجاوز الحزن ، والقهر ، والأسى ، والندم ، والخوف ، والتمزق ، والشقاء ، والضياع ... وهو يَهبُ نفسه بالكلية لبارئها يفعل بها ما يشاء ؟

لا أعتقد ... خصوصاً ونحن نعيش عصر العتمة المادية ، والتكاثر ، والإخلاد إلى الأرض ... عصر صراع المصالح ، وثقل الشهوات ، والارتكاس في حمأة الأهواء والظنون ، والإثارة والإغراء ...

عصر الخوف ، والقلق ، والحزن ، والتمزق ، والضياع.

عصر الاستلاب الفكري والنفسي والاجتماعي والسياسي والعقيدي.

عصر الطغيان ، والاستبداد ، وتعبيد الناس بعضهم لبعض ، أو تعبدهم لمصالحهم وشهواتهم وأمانيهم وأهوائهم ...

العصر الذي تطاولت فيه الجدران الفاصلة بين الإنسان وبين السماء ، وأخذت تزداد سمكاً وغلظاً يوماً بعد يوم ...

ومع ذلك ... بل من أجل ذلك ، كان لابد من المحاولة ، مهما كلفت من جهد ، وتطلبت من مشقة ، واقتضت من تضحية ... لابد من المحاولة كي يكسر الإنسان الطوق ، ويفتح ثغرة في الجدار الكالح ، ويتجاوز الحصار المضروب ...

ولن يكون ذلك مستحيلاً إن صدق العزم وخلصت النية ... وقد فعلها قبلنا كثيرون ... وسيظل الكثيرون يفعلونها لأن الثمرة الحلوة تستحق التضحية والمشقة والفداء ...

أن نؤمم جهودنا لله بالمحبة ، أو بالتفكير ، أو بالذكر ، أو بالعمل ، أو بالجهاد ... أو بالشهادة.

كثيرة هي أبواب التأميم ... وهي تدعونا كلاً من حيث يقدر على الاستجابة للنداء ، ويعتقد أنه جدير بتنفيذ مطالبه ، والتحقق به وتحويله إلى حياة واقعة تعاش ساعة بساعة ولحظةٍ بلحظة.

إن الإسلام بسبب من واقعيته ، ويسره ، وانطباقه الباهر على قدرات الإنسان وإمكاناته ، لا يلزم أتباعه بالصعود إلى هذا الأفق الذي قد يتكلف مشقة وجهداً ... ويضع دونه خطاً قريباً من متناول الإنسان هو خط الإيمان ...

لكنه لا يقف عند هذا الخط ، بل يعقبه بخطوط أخرى ، وينادي الإنسان المسلم بلهجة مترعة بالوعد والإثارة ، أن يتحرك لعبور هذه الخطوط صعوداً باتجاه القمة ...

إن التقوى هي الخط التالي باتجاه الإحسان ... هناك حيث يقف الإنسان ، صباح مساء ، قبالة الله (سبحانه وتعالى) ، ناذراً له حياته ، ووجوده وطاقاته ومعطياته كافة ... أي مؤمماً له الفرصة الوحيدة التي منحها الله إياه في هذه الأرض لكي يختبره ويبلوه ...

والإسلام ، بسبب من واقعيته ويسره ، يفتح الأبواب على مصاريعها أمام الإنسان المسلم لكي يتحقق بهذا الهدف العزيز فيجتاز الخطوط ، ويصل ، معانقاً مصيره المتفرد السعيد ...

فمن حيث يمتلك هذا الإنسان مقدرة ، أو إبداعاً ، في جانب من جوانب الحياة ، يستطيع أن ينطلق إلى هدفه المأمول ، محتسباً ما يتمخض عن تلك المقدرة ، مؤمماً إبداعه في مجرى الفعل الايماني الذي يتحرك صوب الله بانتظار لحظة المقابلة الفذة.

وهكذا يكون تأميم حياة المسلم بالمحبة لمن يفيض قلبه بالعشق ، وبالتفكير لمن يملك عقلاً فذاً ، وبصيرة نافذة ، وإدراكاً بعيداً ... وبالذكر لمن يخفق قلبه وعقله ووجدانه دوماً بإيقاع دائم واحد ، بوجود الله القادر المدبر ، المهيمن ، الفاعل ، المريد ... وبالعمل ، أياً كان هذا العمل ، لمن يبرع في هذا الجانب أو ذاك من جوانب القدرة على الفعل والتفنن ، والإنجاز ... وبالجهاد لمن يقدر على حمل السيف والتجوال في أطراف العالم لمجابهة الكفر وجعل كلمة الله العليا ... وبالشهادة لمن يعرف كيف يقابل الموت فيمتطيه ركضاً إلى الجنة !

ليس ثمة درب واحد لتأميم الحياة لله ، والتحقق بالإحسان ... بالتقابل المبدع مع الله ... وإنما هي دروب وطرائق شتى ... كل حسب قدرته ... كل وفق ما منحه الله (سبحانه وتعالى) من قدرات وطاقات ... ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ... ﴾(سورة البقرة ، الآية ٢٨٦).

وهكذا لم تكن هذه المحاولة ، كما لم تكن أية محاولة أخرى في دائرة هذا الدين ، لغزاً محيراً وأمراً مستحيلاً ، وإنما هو الطريق المفتوح ، والهدف المحدد الواضح ، والإعانة على الوصول ، بشتى الدوافع والمحفزات ...

وهكذا وجدنا عبر تاريخ الإسلام الطويل مئات بل ألوفاً ممن هُرعوا إلى السير نحو الهدف العزيز ... وهم رغم ما بذلوه من جهد وعانوه من مشقة ، كانوا يحسون دوماً أنهم سعداء متوحدون ، قديرون على التحقق بالفرح والأمن ، واثقون من أنهم سيصلون ... قصر الوقت أم طال ...

واليوم يغدو الهدف أكثر إغراءً رغم أنه يتطلب جهداً أكبر بكثير ، وأصعب بكثير ... لكنها الثمرة الحلوة التي تفوح عِطراً وتقطر عسلاً ، والتي تستحق الجهد والعناء في زمن الجدب والعتمة وعصر الآلام والمرارات ...

كنا قد وصلنا في مسيرنا إلى نهاية شارع الشانزليزيه وآن لنا أن نستقل الترمواي الذي يعود بنا من حيث أتينا ، فإذا به يقول : كم كنت أتمنى أن يطول هذا الشارع أكثر وأكثر لكي استمع منك المزيد مما سيعينني على الجدل مع أصحابي فلعلي اقنعهم ببعض ما تقول !

(١٩)

كان صديقي يلح دائماً في نقاشه معي على مسألة الاّ علاقة للدين بالتحضّر البشري ، وكان يدافع عن موقفه بحرارة محاولاً اثبات أن الحضارات البشرية كافة لم يكن للدين دور في نشأتها وصيرورتها.

دعوته يوماً لتناول العشاء في كازينو القبطان السياحي المطل على نهر دجلة في منطقة الغابات بمدينة الموصل ، فرحب الرجل بالدعوة ، ولكني قبل أن نتجه إلى الكازينو اشترطت عليه أن يفتح عقله ووجدانه لما سأقوله ، مخالفاً بذلك وجهة نظره بخصوص ارتباط الدين بالحضارة.

فأجابني : لا بأس ... فأنا من عشاق البحث عن الحقيقة من أي مصدر كان ، حتى لو ارتطمت بقناعاتي.

ما أن استقر بنا المطاف في كازينو القبطان ، حيث الهواء الرقيق ، والأشجار الباسقة المنتشرة في أنحاء المكان ، والنهر العريض المنساب جنوباً بمياهه النقية الزرقاء التي تفتح شهية الإنسان لعشق كل ما هو جميل في هذا العالم ... حتى قلت له :

إذا ما مارسنا التحليل بصورة معكوسة ، وبدأنا من الحضارة المعاصرة ... بالأحرى ... المدنية المادية المعاصرة ، بتفوقها المذهل ، وقدرتها الهائلة على الاكتشاف والتنفيذ ، لقلنا بأن الدين لم يلعب ذلك الدور المبالغ فيه في صيرورة التحضر البشري ...

فها هي ذي المدنية الغربية ترفض الله ، وتتجرد عن الدين ، وتلغي الروح من الحساب ، ثم إذا بها تقفز هذه القفزات العملاقة ، فتضع إحدى قدميها على الأرض والأخرى على القمر.

وبقليل من التمعن يبدو خطأ حكم كهذا ... بل خطله ... ذلك أنه ينطلق من منهج معكوس ، فيصل بالضرورة إلى نتائج معكوسة ...

والأحرى أن ينصب التحليل على البدايات الأولى للتكون الحضاري ... ثم ينطلق مع صيرورتها الزمنية على خط صاعد ... صوب القمة ... وحينذاك ، ومن خلال فحص واستقراء العشرات من الحضارات البشرية ، يتبين له أن الدين هو ، في معنى من المعاني المتدفقة التي يعج بها تياره المزدحم ، صراع من أجل التحضر ...

والجهود التي بذلها الأنبياء (عليهم السلام) ، لإخراج أممهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الحضارة ، جهود كبيرة اقتضت منهم عزماً يفل الحديد ... ومن ثم وصفهم القرآن الكريم بأنهم : ﴿ ... أُوْلُوا الْعَزْمِ ... ﴾(سورة الأحقاف ، الآية ٣٥) ، ولولا ذاك ما قدروا على تحمل ضغوط الجاهلية ، والانحطاط ، والشد ، والتخلف ، والنزعات الحيوانية الهابطة ، والارتكاز المادي ، والشهوات السافلة ... ما قدروا على تحديها والصبر إزاءها ، والانتصار عليها في نهاية الأمر ...

إن خروج الجماعات البشرية من مستنقعات الجاهلية إلى أرض الإيمان النظيفة ، المضيئة ، المتوحدة ... اقتضى صراعاً مميتاً ، وانتهى إلى انتصار للحضارة والقيم الحضارية

في مفهومها الشامل الذي لا يقف عند حدود تفوق مادي محدود ، بل يتجاوزه إلى آفاق الفكر والروح والعقيدة والمطامح الإنسانية ...

إن آدم (عليه السلام) ما جاء إلى العالم إلا بعد أن تعلم الأسماء كلها ... وبنو آدم بعثوا إلى العالم لكي يكونوا مستخلفين في إعماره وتحضيره : ﴿ ... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴾(سورة هود ، الآية ٦١).

ومن خلال هذين الخطين العريضين ، في صميم العقيدة الدينية التي تشكلت سماتها النهائية في الإسلام ، يبدو واضحاً ، ذلك الارتباط الصميم بين الدين والتحضر ... ويبدو كذلك حجم الدور الذي لعبه الدين في صيرورة الحضارات ...

وما أكثر علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ الذين أكدوا هذه الحقيقة ووجدوا أنفسهم أمام ثقلها الذي لا مفر من الاعتراف به ...

ثم إنه حتى المدنية المعاصرة ، في واجهتها المادية المتألقة التي تغطي على مأساة روحها الخربة ، وظلمة باطنها المتأزم ، المعذب ... حتى هذه ، كان للدين ، عبر صراعه التاريخي الطويل ، دور كبير في تحققها ...

أليست المدنية هي تراكم خبرات زمنية ، وثمرة لجهود أجيال تلو أجيال ... قدّم كل منها بعضاً من طاقته ... شيئاً من العرق والدماء والدموع لتحقيق هذا الكشف ، وتنفيذ تلك المهمة ؟ ... فتجمعت روافد الإبداع ، وتزايد عطاؤها ، يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، وقرناً بعد قرن ... لكي ما تلبث أن تصب في بحر مدنية القرن العشرين التي يبهر وهجها الأبصار ؟.

أيغفل أحد والغربيون يعترفون ويشهدون ، دور الإسلام والحضارة الإسلامية في إغناء مدنية العالم كشوفاً علمية ، وتطبيقات تقنية ، ومناهج بحث وتجريب ؟.

إنه ليس لأحد الحق في أن يدّعي احتكار الخبرة لنفسه ، فالخبرة أمر مشاع تتحقق به وتبنى عليه أمم الأرض كلها ، وحضارات العالم كله ... لكن ما ليس للدين علاقة به – حقاً – هو ما يعانيه الغرب الآن ، والعالم كله من ورائه ، من تأزم ، وتمزق ، وعذاب ...

يوم يتاح للدين الحق ، أن يلعب دوره حقاً في مسرح الحياة ، فإنه سيعرف كيف يداوي الأزمة ، ويقضي على التمزق ، ويمسح على العذاب ...

ويبقى الدين ... في الأمس واليوم وغداً ... صراعاً من أجل التحضر ، ما دام أن التحضر لا يعني التراكم الكمي للأشياء فحسب ... بل صياغة حياة نظيفة ، متوحدة ، سعيدة ... يكون فيها للإنسان مكان.

لمست في الرجل ، بعد طرحي هذا ، استعداداً لتقبل الكثير من مفرداته ، ولكنه ظل ملحاً على تشبثه بموقفه ذاك : ألا علاقة للدين بالتحضر !

قلت له : ليس هذا فحسب ، بل ان الدين ، والإسلام خصوصاً ، بما أنه جماع الأديان كلّها ، قبل أن يطالها التحريف فيخرجها عن مسارها الأصيل ، يضع للصراع مساحة واسعة في معطياته باعتباره (دينامو) الحركة الحضارية وأحد محفزاتها الأساسية ...

وكما أن الصراع وتأجيجه كلما أوشكت ناره أن تخبو ، يعد ضرورة من ضرورات العمل الدرامي من أجل تحريكه ومنحه الحيوية والإثارة ، فكذلك هو ضرورة من ضرورات الحياة البشرية نفسها ، بما أن الدراما هي محاولة لمحاكاة هذه الحياة ، أو عرض عينات منها بصيغة العمل المسرحي.

ولقد كان وضع إبليس منذ لحظة الخلق الأولى قبالة آدم في التحدي والمعارضة ، يحمل هذا المعنى ، بذر الصراع في صميم التجربة التي ستخوضها البشرية على ساحة العالم ، وتحريك هذه التجربة بسلسلة متصلة الحلقات من الأفعال وردود الأفعال بين الإنسان والشيطان.

إن قوى الشر والضلال التي هي امتداد للوجود الشيطاني قبالة الإنسان تحمل مغزاها الواضح على هذا الضوء ؛ استفزاز الإنسان باستمرار ودفعه إلى مواقع الفاعلية ، والتشكل ، والمجابهة ، والتغيير.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا التقابل الدرامي ، القائم على الصراع ، في اتجاهيه العمقي والأفقي.

فهنالك صراع بين الإنسان ونفسه لمجابهة قوى الشر التي تستفزه من الداخل ، وهنالك صراع بين الإنسان وبيئته لمجابهة قوى الضلال التي تتحداه من الخارج.

وفي الحالتين تتحرك الحياة البشرية وتتجاوز مواقع السكون إلى التشكل المستمر والصيرورة المبدعة.

وفي الحالة الأولى يقود الصراع إلى التغيير الذاتي الذي يبعث الإنسان القدير على الفعل والإنجاز : ﴿ ... إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ (سورة الرعد ، الآية ١١).

وفي الحالة الثانية يقود الصراع إلى تغيير العالم من أجل خلق الأرضية التي تليق بالإنسان: ﴿ ... وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة البقرة ، الآية ٢٥١).

ولنتصور حياة بشرية تخلو من الصراع ... حياة لا أبالسة فيها ولا شياطين ... حياة ينعدم فيها الشر والضلال ... حياة لا إثارة فيها ولا حركة ولا حوار بين الأفعال وردودها ... أُتراها حينذاك تعدو أن تكون بحيرة راكدة ؟ وهل تكون حينذاك جديرة بأن تُعاش حقاً ؟

وكيف يتحقق الفعل الحضاري والنمو العمراني إن لم يجد الإنسان نفسه يكافح القوى التي تستفزه وتتحداه وتقف في طريقه ؟!

إن (تشكل) الحضارات أساساً جاء – فيما يصل إليه " توينبي " عبر استقرائه لتاريخ البشرية – وليد هذا التقابل الذي يصطرع فيه الإنسان مع خصومه على كافة المستويات ، وإنه ليقف طويلاً في بدء تحليله الواسع عند قضية الخلق ودور الشيطان في خارطة العالم الذي سيهبط إليه الإنسان ، يقف طويلاً لأنه يدرك جيداً بأن خلق الشيطان منذ تلك اللحظات الأولى يحمل مغزاه الذي سينسحب فيما بعد على مدى التاريخ البشري.

ولنا أن نتصور سخف الدعوة الساذجة التي تأسف على أن الإنسان لم يُخلق في عالم لا أبالسة فيه ولا شر ولا ضلال ... عالم يتمحض بالخير والفضيلة ، ويعفى فيه الإنسان من الصراع والعناء.

إن " توينبي " نفسه يعتبر هذه الحالة التي وضع يده على بعض أنماطها في هذه الجهة أو تلك من العالم ، أمراً استثنائياً نقيضاً للوضع الطبيعي المناسب لموقع الإنسان ودوره ، لأنه وجد تلك الحالات تقود إلى الاستسلام والاتكالية والسكون والبدائية ، ولا تبشر بأية بادرة للفعل والتحقق الحضاريين.

فلابد من التحديات ، لابد من قوى الشد والإعاقة ، لابد من الأبالسة والشياطين ... من الشر والضلال ... من التعاسة والشقاء ، لكي يُستفز الإنسان ، ويتحرك للاستجابة ... فبهذه الاستجابة سيتفوق ويصنع حضارته المتألقة ...

لقد بُعث الإنسان لكي يصنع مصيره بفعله الخاص لا بمعجزة تأتيه من السماء ... بمدى قدرته على الإمساك جيداً بتعاليم السماء ، والسير على الأديان لصياغة عالم يليق به : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ (سورة البقرة ، الآيات ٣٦-٣٩).

ولن يتأتى ذلك بطبيعة الحال والإنسان قاعد مستريح لا يصارع ولا يقاوم ولا يبذل جهداً من أجل حماية انتمائه الديني ، وتنفيذ مقولاته على ساحة الأرض ، ولن يكون هناك صراع أو مقاومة ، أو حركة أو تقدم ، ما لم يكن نسيج العالم مزروعاً بالأبالسة ، والشياطين وقوى الشر والتعاسة والضلال ...

بدأ صديقي ذاك يتخلى عن الحاحه ، ويبدي إعجابه بهذه المفردة أو تلك مما كنت أطرحه من تحليل لظاهرة الصراع ودوره في التحضّر ... لذا وجدته يطلب مني أن أقدّم المزيد من الأدلة على دور الدين في تشكيل وحماية الفاعلية الحضارية ، فرأيتها فرصة للاستمرار في الحديث فلعلي أخرجه في نهاية الأمر من قناعته الخاطئة تلك ، متذكراً حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : **(لئن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها) !** فقلت :

إن " الإيمان " لا يمثل ضرورة عقيدية فحسب ، ولكنه يعد ضرورة " عملية " أيضاً إذا ما أريد للحياة البشرية أن تمضي بيسر إلى أهدافها ، وأن تتمكن من تحقيق مهمتها في الأرض.

ضرورة " عملية " على مستوى الفرد ، والجماعة ، والدولة ، والحضارة البشرية ...

وأحب أن أقف هنا قليلا إزاء هذه الضرورة بالنسبة للدولة ، لأن ما كتب وقيل عن الجوانب الأخرى قدم من الأدلة والقناعات ما فيه الكفاية ... ويزيد ...

إن الإيمان يمنح المواطن الوازع للإنجاز ، ويقظة الضمير ، والإحساس الدائم بالرقابة الإلهية على كل فعل وممارسة ... وهذه الميزات الثلاث تجيئ بمثابة قوى فاعلة ، وصمامات أمان ، من أجل تسيير شؤون الدولة ومؤسساتها وأنشطتها بأكبر قدر ممكن من الدقة والإخلاص والإبداع ، والانضباط الخلقي ، والروح الإنسانية.

ولن يكون بمقدور أي بديل وضعي أن يعوض عن هذه الميزات ؛ مهما كان ذلك البديل على قدر من النضج والدقة والاتساع ...

ورغم أننا نعيش عصر التقنية المتقدمة ... التقنية التي منحت الدول قدرات فائقة وإمكانيات فذة للرقابة ، والانضباط ، والتنظيم ، والإنجاز ، فإنه لن يكون بمستطاعها أن تفعل عشر معشار ما تفعله الميزات التي يشكلها الإيمان في عقل الإنسان وحسه ووجدانه.

وما أكثر الموظفين والعمال والفنيين الذين لا يقدمون جهدهم كاملاً خلال ساعات العمل ، دون أن يكون بمقدور مدير أو مسؤول أو جهاز رقابة دقيق اكتشاف نسبة تجميد الطاقة أو هدرها عبر تلك الساعات ، وما أكثر الموظفين والفنيين والعمال الذي لا يحسون بدافع ملح للإخلاص في عملهم أو إنجازه بالصيغة الأفضل ، دون أن يكون بمقدور مدير أو مسؤول أو جهاز متطور اكتشاف هذا الدافع السلبي واستبداله بما يجعل المواطن مندفعاً لتحقيق الإتقان

والإحسان فيما ينجزه من أعمال ، وما ينفذه من مهام وواجبات ... وما أكثر الموظفين والفنيين والعمال الذين يجدون أنفسهم في مساحات واسعة من نشاطهم وممارساتهم ، بعيدين عن الرقابة الخارجية ، لا تمسهم عين ولا تسمعهم أذن ، ولا يضبطهم جهاز ، فينفلتون من المسؤولية ، وقد يمارسون أعمالاً مضادة لإلحاق الأذى بمسيرة الدولة وأنشطتها.

وهكذا يجيئ الإيمان لكي يصنع المعجزة ؛ فيبعث المواطن الذي يمتلك الوازع والضمير والتقوى ... وتجد الدولة حشوداً من الموظفين والفنيين والعمال يسعون لتقديم جهدهم كاملاً عبر ساعات العمل ، دونما هدر ، أو تضييع ، ويتفننون لتقديم أقصى ما يملكون من قدرة على الإتقان والإحسان ، ويشعرون دوماً بأن هناك من يرقبهم ويراهم في كل صغيرة وكبيرة ، فيتحاشون سخطه بالأخطاء المقصودة أو التقصير ، ويسعون لرضاه بمزيد من العمل والإتقان.

كثيرةً جداً النتائج العملية المتمخضة عن دور الإيمان في تسيير عجلة الدولة وتصريف شؤون مؤسساتها المختلفة ، ونستطيع ها هنا أن نشير إلى بعضها فحسب ، بينما هنالك الكثير.

إنه يحمي أموال الدولة وطاقاتها وقدراتها المادية من السرقة والابتزاز والتفريط.

ويحمي حقوق المواطنين من الإهمال أو الضياع ، أو تحكيم المصالح والأهواء ...

ويدفع الموظف إلى بذل الحد الأقصى من الجهد لتقديم أكبر قدر من العطاء ، كما يدفعه أن يكون مخلصاً لعمله ، أميناً عليه ، ساعياً لتقديمه بالحد الأقصى المستطاع من الإتقان والإبداع.

وهو فضلاً عن هذا وذاك ينشئ تقاليد إنسانية في التعامل بين كوادر الدولة الوظيفية وبين المواطنين ؛ تحفظ كرامة الإنسان وتحميها من الامتهان أو الإذلال.

ومن أجل معرفة ثقل هذه المسألة فإن بمقدور أي امرئٍ أن يتذكر الخط الطويل من الموظفين الذين اضطر للتعامل معهم عبر حياته من أجل إنجاز هذه القضية أو تلك ...

إن قلة من هؤلاء سعت لأن تعينه على إنجاز مهمته بأكثر الأساليب نبلاً وشرفاً وإنسانية ، ولكن الأكثرية الساحقة ، بالعكس ، سعت ، لسبب ، أو آخر ، إلى عرقلة هذه المهمة واستخدام أكثر الأساليب استفزازاً ودناءة وبُعداً عن كرامة الإنسان ...

لقد كان المواطن يخرج من كل عشر معارك ، إذا جازت التسمية منتصراً مرةً واحدة ، منهزماً ، مطحوناً مرات ومرات ...

قد يحظى ببغيته ، وقد ينجز مهمته ، ولكن بعد أن يخسر الكثير ... يقيناً ...

تُرى لو كان الإيمان يملك حضوره وثقله في مجرى العلاقات الوظيفية ، أكان يمكن أن تحدث هذه المأساة ؟

باختصار شديد ، فإن الإيمان يعين الدولة ليس فقط على تحقيق أهدافها بأكبر قدر من النجاح والتفوق ، بل إنه يمكنها – كذلك – من اختزال حيثيات الزمان والمكان ، للوصول إلى الأهداف بأسرع وقت ممكن ، ويتيح لها أن تستجيب لأصعب التحديات فتزداد قوة ومنعة وعطاء ...

ولن يستطيع أحد – بعد هذا – أن ينكر دور الإيمان في نشاط الدولة أو المؤسسة ، أو ينفي كونه ضرورة عملية تدخل في نسيج النشاط العام وتلعب دورها في النتائج المتحققة على أرض الواقع.

إنه – إذن – ليس ضرورة عقيدية فحسب ، يقتضيها الوضع البشري في العالم ، أو تحتمها الحقيقة الكونية التي تشير صباح مساء ، بألف شاهد ودليل إلى حتمية الإيمان باعتباره الصيغة الأكثر صدقاً ، بل الصيغة الصادقة الوحيدة لعلاقة الإنسان بما يحيط به من حقائق وظواهر وموجودات.

ولكنه ضرورة عملية – كذلك – لمسنا قبل لحظات جانباً من مردودها الكبير. ويعرف الإنسان كيف يكون إشهار السلاح بوجه الإيمان ووقفه عن الفعل والتحقق ، أو حجبه عن العمل في واقع الحياة العامة ، موقفاً خاطئاً من الأساس قد يحمل نزعة انتحارية ، لأنه يتحرك ضد مصلحة الإنسان ومصلحة مؤسساته ...

هذا على فرض التسليم بالدافع البريء لهذا الموقف ... ذلك أن معظم هذه المواقف التي تتصدى للإيمان ، وتسعى إلى عرقلة حركته ووقف فاعليته ، إنما تتعمد هذا لهدف مرسوم لا يجد المرء كبير صعوبة في تلمس أسبابه ودوافعه !!

ختمت حديثي بالقول : أظن أن هذا يكفي لتأكيد ارتباط الدين والايمان عموماً بظاهرة التحضر على مستوى الأفراد والشعوب والدول والمؤسسات ... وأعتقد أن الجوع قد بدأ يداعبنا ، فما الذي ترغب في تناوله ؟

أجاب وهو يضحك. بعد هذا الجهد الذي بذلته : اعتقد أنه لن يسكت جوعتك الاّ طبق شهي من (باجة) الموصل الشهيرة.

فقلت : والله انه هو المطلوب !!

(٢٠)

قامت القيامة في كلية الآداب في سبعينيات القرن الماضي ضد الأساتذة الإسلاميين وانطلق خصومهم من إزلام السلطة يضيقون عليهم الحصار ، بل ويهددونهم بالنقل أو الفصل من عملهم الجامعي ، وشنت حملة عاتية ضد الفكر الغيبي باعتباره الأساس الذي يبني عليه الإسلاميون محاضراتهم ، وساد جو من الارهاب الذي يجعل ضعاف النفوس يترددون كثيراً في الاستمرار على قناعاتهم الإسلامية القائمة على جذورها الغيبية !!

وعبر محاضرة عامة مما كان يفرض على التدريسيين كل اسبوع قررت أن أصارحهم بحقيقة الموقف الغيبي ، وأبين لهم خطأ موقفهم وانحيازيته باتجاه المادية الديالكتيكية رغم أنهم قوميون وفي صراع معلن ضد الشيوعية. ولكن العقول البشرية عندما تسلط عليها أنشطة غسيل المخ يمكن أن تحوّلها إلى قطعان سائبة تتلقى التعاليم الخاطئة وترددها دونما أي قدر من اعمال العقل فيها !

بدأت محاضرتي التي حضرها لفيف من الأساتذة والطلبة بالآية الكريمة :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة التغابن ، الآية ١٨).

وما أكثر الحقائق التي تبدو لحواسنا وعقولنا بظواهرها ... أما البواطن فهي مغيبة ... ولكنها – مع ذلك – جزء من الحقيقة لا تنفصل عنها ...

إن الغيب والشهادة أشبه – إذا صحت الاستعارة – بعملة ذات وجهين ليس بمقدور أحد أن يفصل أحدهما عن الآخر ، وإلاّ فقدت العملة شكلها وقيمتها ... والفرق ... أن العملة يرى وجهاها ، أما الحقيقة فقد يُرى وجهها الآخر وقد لا يُرى ... ومع ذلك فهو (وجود) حقيقي لا يقل ثقلاً عن الوجه المنظور ... إن لم يفقه بكثير ... إن الغيب أشبه بالبطانة غير المرئية للشهادة ، أشبه ببعدها العمقي الذي يغور بعيداً عن إحاطة الحواس ...

ما من شهادة مجردة ... إنها بشكل أو آخر تجسيد لحقيقة مغيبة ... وإن التشبث بالشهادة وحدها ، والقول بأنها الحقيقة الوحيدة لا يعدو أن يكون نوعاً من العلم المبتور ... نوعاً من الأمية بحقائق الأشياء ... ولقد حكم القرآن الكريم بالعمى والضلال على أولئك الجاهليين الماديين ، الذين اتهموا الدعوة الجديدة باعتماد السحر ؛ لأنها جاءت بما لم تألفه معطياتهم الحسيّة ، الناقصة ، الرتيبة ... فقال : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الطور ، الآية ١٥). ودعاهم بذلك ، بل تحداهم أن يتخلوا عن أسلوب الاتهام الباطل ، الرخيص ، الذي لا يقوم على الحق ، إلى التبصر بالحقائق لكي يلموا بأبعادها الشاملة ، قبل أن يصدروا عليها حكماً ، اسوة بما يفعله الماديون المعاصرون ومقلّدوهم على غير هدى ، حذوك النعل بالنعل !!

فها هم بعض المثقفين منهم يتهمون كل من يؤمن بالوجه الآخر للحقيقة ، ويعلن إقراره للغيب ، باللا علمية ... وفي إحدى المحاضرات عن فلسفة (أرنولد توينبي) الحضارية اتهم الرجل من قبل أحد الأساتذة المتخصصين : باللا عقلانية ؛ لأنه حلّق بفلسفته في السموات ، وتحدّث عن أمور غيبية لا تمسك بها الحواس.

تُرى ... إذا حدث وأن تغزل إنسان بضوء الشمس ونادى أشعتها البيضاء قائلاً : يا من تضمين جوانحك على الأحمر والأخضر والأرجواني !! أتخرجه مقولته تلك عن حدود العقل ؟ والتبصر ؟ لأنه يتكلم عما لا تراه العيون ؟

أبداً ... بل بالعكس ... إنه أكثر عقلانية بالمفهوم الواسع ، الذي يتجاوز به العقل ، أسر الحواس ، إلى ما وراءها ، ويغادر دائرة المنظور القريب إلى المنظور الأبعد الذي يقره العلم المختبري ، وتؤكده الدراسات التجريبية ، رغم نأيه المباشر عن الحواس ...

إن الحديث عن " الحقيقة " ليس أمراً بسيطاً سهلاً ... كما أنه ليس حكراً على الذين أسرتهم ظواهر الأشياء المادية ، فحرنوا عندها ورفضوا تجاوزها إلى الأعماق ... والذين يقفون دائماً هناك ، هم عدد من الفلاسفة الظنيين ، الذين لم يحلّوا معادلة رياضية واحدة ، ولم يدخلوا مختبراً ...

أما العلماء الذين عاشوا في المختبر ، واستخدموا لغة الرياضيات ، لفك الطلاسم والرموز ، فإنهم على النقيض ، اخترقوا قشرة الظواهر والأشياء إلى بطانتها ... وتوغلوا إلى العمق ... وحدثونا ، وهم يحاولون هناك ، عن تهافت المادية ، وتفتت الصلابة ، وخداع الحواس ... وتكلموا عن الطاقة والحركة ، وتجاوزوا ذلك ، وقالوا بما يشبه التواجد الواعي في قلب الذرة ، وبالغيب الذي يصعب حصره والتعامل النهائي معه ... معترفين بذلك ، بأن الإحاطة التامة بالجانب الآخر للحقائق ... الجانب المغيب ... ليس في طاقة إنسان ...

وتبقى الحقائق تحمل دوماً وجهيها ... الشهادة والغيب ... ولهذا يقرن القرآن الكريم في أكثر من موضع هذين البعدين وهو يتحدث عن علم الله المحيط بكل شيء ...

أما الذين اختاروا أن يقفوا عند الأعتاب ، ولا يجرؤون على تجاوز القشور إلى العالم الداخلي للظواهر والأشياء ... فإنهم آثروا أن ينفوا ليس فقط من ساحة الدين ... ولكن ... من ساحة العلم أيضاً ...

نظر بعضهم إلى بعض وقد كست وجوههم ملامح الغضب ، لكن أحداً منهم لم ينبس بنت شفة اعتراضاً على محاضرتي لأني عرفت كيف أدخل إليها من البوابة التي طالما تشدقوا بها : الروح العلمية !!

ولما رأيتهم كذلك أردتها فرصة لكي أتوسع في تحليلي وأمضي به لكي أطال ادعياء التقدمية الذين لا هم لهم سوى الهجوم على هذا الدين وملاحقة المنتمين إليه ، فقلت :

لا يملك المرء إلا أن يحار ويدهش وهو يقرأ لبعض كتاب مصر الذين يطلقون على أنفسهم " التقدميين ".

إذ كيف يبيحون لأنفسهم أن يكيلوا الثناء والتقدير لعناصر رجعية – إذا استخدمنا مقاييسهم هم – لعبت دوراً سلبياً في مسار الفكر الحديث ، في هذا الجانب أو ذاك ؟ كيف يبدون إعجابهم برجال وقفوا مع الاستعمار ضد التحرير ، ومع العدو ضد الأخ والصديق ، ومع السلطة ضد الشعب ، ومع الغزو الفكري ضد الأصالة ، ومع الإقليمية ضد العروبة والإسلام ؟!

إننا ونحن نقرأ لحشد من هؤلاء الكتاب الذين تناولوا الحياة الفكرية والأدبية في مصر عبر النصف الأول من هذا القرن ، نجدهم ، رغم قدرتهم على تغطية هذه المثالب المضادة للفكر التقدمي ، بل رغم اعترافهم بها أحياناً ، يترددون في شن هجومهم على أصحابها أحياناً ، أو مسّهم بالنقد على الأقل ... بل يترددون حتى في توجيه لوم هادئ للمواقف التي اتخذوها ، والمواقع الفكرية التي تشبثوا بها ، ليس بإرادتهم واختيارهم – أغلب الظن – وإنما بتوجيه وإلزام من الجهات التي آلوا على أنفسهم أن يرتبطوا بها لأنها تعدهم وتُمنِّيهم ... والتقدميون يعرفون هذا جيداً !

هنالك نماذج كثيرةً ، لكننا نختار واحداً منها قد يُغني عن الصف الطويل ، لأن جُلّ من فيه لا يعدو أن يكون تكراراً نمطياً يتخذ الموقف نفسه ، ويصدر عن الرؤية ذاتها ، وتحركه الدوافع التي حركت الآخرين ... " أحمد لطفي السيد " ...

و " أحمد لطفي السيد " بالذات كان معروفاً عنه كراهيته للعنف ، ودعوته الملحّة لمقاومة الاستعمار بنشر التعليم ، وأن هذا هو السبيل الوحيد لطرده من مصر ... ومعروفاً عنه كذلك انتماؤه للطبقة الإقطاعية ، وموالاته للملك ، ونزعته الإقليمية التي تقف نقيضاً باتجاه كل ما هو عربي أو إسلامي.

ومع ذلك كله ، فإن الأقلام التقدمية التي أرّخت للحقبة كانت تكيل له المديح والثناء باعتباره واحداً من رواد التحرر والعلمانية ! هذه الأقلام التي ادعت أنها أشهرت سلاحها بوجه الملكية والظلم والاستعمار والديمقراطية المزيفة والإقليمية ... تجد نفسها تجاه رجل يمثل هذا كله ، عاجزةً عن توجيه النقد والتعنيف الذي صبته على رؤوس آخرين قد يكونون أقل بكثير من " أحمد لطفي السيد " ملكية وإقطاعية وإقليمية ومهادنة للاستعمار !

وهؤلاء الكتاب التقدميون الذين أسرتهم في الربع الثالث من هذا القرن ، هواية التفسير الطبقي للتاريخ ، والمجتمع والسياسة ، والثقافة ... واستعبدتهم أسطورة الشرائح الاجتماعية ، واعتقدوا أن تطمين المصالح هي الدافع والمحرك والهدف لكل نشاط إنساني ، وقسموا المجتمع المصري إلى طبقات وفئات ، وفسروا سلوك كل منها اعتماداً على ما تملكه من مال ، وما تتضمنه جيوبها من نقود هؤلاء الكتاب عندما يقفون أمام رجل " كأحمد لطفي السيد " يكفّون عن صراخهم ، ويترددون في تقديم استنتاجاتهم الرتيبة التي يأخذها الواحد منهم عن الآخر ، والتي تكاد أن تصبح تقليداً ثقافياً يحكم بالنفي على كل من يتجاوزه ، أو يقف لكي يقول رأياً مخالفاً لمعطياته الجامدة كالصخر ، الباردة كالجليد.

ورغم أن " لطفي " ينتمي إلى طبقة الإقطاعيين ، ويعمل في حزب يتبنى مصالحهم ويدافع عنها ، فإنه لا يتلقى الهجوم والنقد الذي كان يتلقاه بكثافة رجال كانوا أبعد بكثير عن طبقة الإقطاع ، وأقل ملكية بكثير من الرجل إياه ... بل إن بعضهم كان ينتمي لأحزاب تنبثق من قلب الشعب وتدافع بإخلاص عن قضايا الجماهير بمواجهة الإقطاع والسلطة والاستعمار.

ويجد المرء نفسه مضطراً للتساؤل عن دوافع هذا اللغز المحيّر ... عن الأسباب التي تكمن في هذا التناقض الذي يوقع الكتاب التقدميون أنفسهم فيه ؟

وقد لا يجد بعد بحث طويل مدعم بالأدلة المقارنة والوقائع ، ومستند إلى معطيات هؤلاء الكتاب أنفسهم ، سوى جواب واحد قد يمنح الإنسان القناعة المفقودة ، وهذا الجواب يتمثل بعبارة واحدة ، لكنها تعني الكثير ، وتفك الطلاسم والألغاز ؛ وتلك هي :

ليس مهماً موقع الرجل في خارطة الفكر والممارسة ، ولكن المهم أن يكون عدواً للإسلام ، مسخراً بأيدي خصومه !!

وما أن أنهيت محاضرتي حتى وجدت الحضور يتهامسون فيما بينهم وكأن لسان حالهم يقول : لقد قلت كل الذي عندك أيها الأستاذ الحاقد ، ولكننا من جهتنا لم نقل بعد كل الذي عندنا !

بعد أسابيع قلائل صدر أمر نقلي من الجامعة إلى متحف الموصل الحضاري ، فيما كنت أتوقعه من أولاد الأفاعي هؤلاء !!

(٢١)

ثار جدل عاصف في عدد من الفضائيات العربية بين صنفين من المتحدثين أحدهما يؤكد على الانتماء والآخر يدعو إلى صناعة الأشياء ... وثمة فرق حاسم بين الجماعتين ، ذلك أن أولئك الذين يدعون إلى صناعة الأشياء هالهم ما توصل إليه عالم الغرب من تقدم اسطوري في العلوم التطبيقية وما رافقها من تيسيرات الحياة والرفاهية ، والتقدم ... أما الجماعة الأخرى فرأت الانتماء إلى العقيدة ، أو الدين ، أو الفكرة ، انما يمثل الأساس الحقيقي للحضارة البشرية ، وآن علينا إذا أردنا أن نلاحق الغربيين ، وقد نتفوق عليهم في المدى البعيد ، فان علينا أن نتقدم إليهم بعقائدنا وأديانناوأفكارنا التي نتجاوز بها ضرورات الحياة الشيئية إلى آفاق أبعد وأرحب واليق بمكانة الإنسان في العالم ووظيفته في الأرض ، كما رأت أن اقتباس فكرة صناعة الأشياء عن الغرب لن تجعلنا متحضرين ما لم تستند إلى قاعدة دينية أو فكرية تجعل من الاقتباس وسيلة لا غاية ... وسيلة لأهداف أعلى وأغنى بكثير من مجرد اقتباس الأشياء ونقلها عن الآخرين !

هالني هذا الجدل المتصاعد ، وإلحاح كل طرف على تأكيد موقفه ... وكنت بطبيعة الحال من المؤيدين للطرف الثاني ... الانتماء وليس صناعة الأشياء ، فأجريت ، اتصالاً هاتفياً بإحدى القنوات الفضائية طالباً منهم اتاحة المجال أمامي للدخول إلى ساحة الجدل بين الطرفين ، فرحب مسؤولوها بعرضي واقترحوا علي تاريخاً محدداً للقاء ...

قلت لهم ... ابتداء فانا لا أريده جدلاً بين طرفين ، قد تتصاعد فيه الأصوات ، وربما الأيدي ولا يؤول إلى شيء بالنسبة لمشاهدي القناة ، ولكني أريد نصف ساعة من الوقت لكي أبدي وجهات نظري حول الموضوع فلعلها تقنع بعض من سيتاح لهم الانصات إليها ...

وافق المسؤولون على رغبتي وما لبثوا أن أعلنوا عن تاريخ الكلمة التي سألقيها في الموضوع ... وجاء الموعد فبدأت حديثي بالقول بأن الغرب ينتصر فعلاً بتفوقه في صناعة الأشياء وفي طرائق التعامل معها ، أما الشرق فقد جرّب أن ينتصر أكثر من مرة بتفوقه بالانتماء إلى المبادئ ، وفي طرائق التعامل معها ... وقد انتصر فعلاً ...

ليس ثمة تقسيم محتوم لجغرافية العالم إلى أصقاع وأقاليم بعضها يبدع الأشياء ، وبعضها الآخر يبدع القيم ... فكم طلع الغرب علينا بقيم ومذاهب لسنا في مجال تقييمها والحكم على ما فيها من خطأ أو صواب ... وكم طلع الشرق على العالم بأشياء وكشوفات مادية أضافت إلى رصيد المدنية البشرية الكثير الكثير ...

نعم ليس ثمة تقسيم محتوم ... ولكن استقراء التاريخ يمنحنا مؤشرات شاملة ، وخطوطاً عريضة تصبغ المساحة الأكبر من هذا الجانب أو ذاك ... وإحدى هذه الخطوط هي أن الغرب

الحديث إذا كان قد تفوق في صناعة الأشياء ، فإن الشرق لا يزال يملك القدرة على بعث المبادئ والتفوق في الانتماء إليها والتوحّد معها.

والأمم التي لا تتعلم من تجربة التاريخ ، فممّ تتعلم ؟ إنه إذ يتوجب علينا اليوم أن نلاحق الغرب في صناعة الأشياء كتحد لا مفر من مجابهته إذا أردنا أن نحقق وجودنا في هذا العالم ، وأن نتجاوز وصاية الغرب الحضارية ، فإن ممّا يتوجب علينا أكثر هو أن نعرف بوضوح كامل أنه ليس بالأشياء سنوازي المسيرة الغربية ونسبقها ... لأن الفارق الزمني في سباق (المدنيات) حاجز صعب الاجتياز ... أما في سباق (الحضارات) ، حيث تلعب الروح والقيم والأفكار ، والمطامح الإنسانية ، والعقائد ، دوراً كبيراً ، فإن الأمر ليس مستحيلاً ... ولقد تحقق أكثر من مرة ...

لكأن الغرب نفسه ، وهو يتضور ألماً ، وينزف من شروخه الغائرة دماً كثيراً ... يشير إلينا، بل يتوسل بنا ، أن نشمر عن ساعد الجد لا لكي نصنع ثلاجة أو سيارة ، ولكن لكي نبعث قيمة، ونرسم مبدأ ، ونطلع على العالم بعقيدة ... فها هنا تكمن قدرتنا الذاتية على التميز والتفوق ... والتأثير ... ها هنا تكمن خصوصيتنا ... وريادتنا ...

هذا على المستوى العام ... أما على مستوى تجربتنا الإسلامية بالذات ... على مستوى عقيدتنا الفذة التي تمد مطامح الإنسان الروحية إلى الآفاق البعيدة ، وتبعث في نفسه توتراً إيجابياً مشحوناً يتحدى الزمان والمكان ، ويلوي عنق التاريخ ... على مستوى ديننا الذي يمنح البشرية رؤية للكون والعالم والمصير ، ما شهدت البشرية رؤية أشد منها وضوحاً ...

وعمقاً ... وتوازناً ... وتناغماً ... وانسجاماً مع معطيات الفطرة ... وإقناعاً ...

على هذا المستوى يبدو الأمر ضرورة حتمية ليس للشرق المتخلف فحسب ... بل للعالم كله ... ولكن أنى لنا أن نرى المحتوم ، ونتعانق معه ، قبل أن ينزل بنا وبالعالم من الوقائع والكوارث ما هو أشد وأنكى ؟

ولن ننسى هنا ... أن هذه العقيدة التي تقدم هذا العطاء الكبير على مستوى الفكر والروح ، لا تغفل ، لحظة ، أهمية التفوق المادي ، وثقله ، وأثره الحاسم في التاريخ ... إنها تفتح صدرها لكل إنجاز مادي ، ما دام أن هذا الإنجاز مسالة (حيادية) لا تميل إلى الهدم أو البناء إلا أن توجهها إلى أحدهما يد آمنت بهذه الفكرة أو العقيدة ... أو تلك ...

ومرةً أخرى ... وعلى ضوء قدرة الإسلام على احتضان وحماية منجزات المدنية المادية الضخمة ... جنباً إلى جنب مع قدرته على بعث البشرية إلى عالم جديد تتجاوز به محنها ومصائبها ...

مرةً أخرى ... يبدو الأمر ضرورة حتمية لا محيص عنها ... للخلاص ...
إنها الطريق الوحيد ... فهل سيتاح لنا وللبشرية أن تسير فيه ... بله أن تراه ؟
ومضيت في تحليلي لقناعتي لكي استشهد بالآية الكريمة :
﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ﴾ (سورة مريم ، الآية ٧٤).

إنه ما من عصر كالقرن العشرين هذا يمكن أن يجسد أمام وعينا أبعاد هذه الآية القرآنية الموجزة ... إنه حقاً قرن الأثاث ... والري ... قرن التكاثر الشيئي والتسابق في المقتنيات والتطاول في البنيان ... القرن الذي غدا فيه (الإعلان) عن الأشياء علماً له أصوله ومناهجه ... وغدت أحاديث الناس في المجتمعات اليومية تنصب في معظمها على التزود بالحاجيات المستجدة ، وملاحقتها ، واصطيادها والتباهي بتكديسها في غرف البيوت وصالاتها ، حتى لو لم تكن وراءها أيما منفعة ... القرن الذي أصبح الناس فيه ينفقون نصف دخلهم على المظاهر المادية ، التي يعتقدون أنها تمنحهم وجاهة أكثر ، وتشيع في أنفسهم حاجات أعمق ... المظاهر في ملابسهم ، والمظاهر في مراكبهم ، والمظاهر في واجهات دورهم وعماراتهم ... حتى لقد غدا (الديكور) هو الآخر علماً له أصوله ومناهجه ... يتهافت الناس على أصحابه من أجل أن يبدو أحسن أثاثاً ورئياً !!

إن التقدم التكنولوجي ... بل النمو الذي تشهده (المدنية) عموماً ، أي : الجانب المادي من الحياة ، ليس سوى تراكم شيئي ... تكديس أثاث بعضه فوق بعض ، بتعبير القرآن الكريم ، ولم يكن بمقدور (الأثاث) يوماً ، مهما كان نظيفاً لامعاً جميلاً متقدماً متقناً ... أن يقف بمواجهة المصير ... أن يخلص أمة لم تحسن التعامل مع القيم ، التي هي أكبر من الأشياء والأثاث والديكورات ، يخلصها من مصائرها المفجعة ... من الهلاك النفسي ، والأخلاقي ، والصحي ، والاجتماعي ، والأدبي ، الذي يقتحم عليها جدرانها الشيئية ، ويكتسحها وأثاثها ، ورواءها الخارجي من مسرح التاريخ.

وبصيغة أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن هذه المأساة ، كما اعتاد أن يحدثنا عن كل قضية خطيرة من أكثر من زاوية ... فيطرح هذا النذير : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ... ﴾ (سورة يونس ، الآية ٢٤).

فها هنا أيضاً نلتقي ، بصيغة عكسية ، بين استكمال الزينة الخارجية ... زينة الأثاث والأشياء والديكورات ... وبين الدمار الحضاري الشامل الذي يصيب أمة ما انصرفت بكليتها إلى القشور ، ولم تحسن ، بل لم تعرف كيف تتعامل مع الجواهر والأصول ...

ولم تكن الحضارة في يوم ما مجرد تراكم في الأثاث ، وتكاثر بالأشياء والأموال .. إنه بدون معامل القيم ، وشدها ومؤشراتها ، فلن يكون بمقدور هذا الحشد المفكك من المقتنيات أن يصنع شيئاً ...

من أجل ذلك يطلق كبار المفكرين والفنانين المعاصرين نذرهم ضد هذا التكاثر المخيف الذي تختنق معه الرؤية الإنسانية ، ويضيع بين أكداسه الإنسان ... إنه يتزايد وفق توالٍ هندسي؛ فالقطعة الواحدة تغدو قطعتين ، والاثنتان تغدوان أربعة ... وهكذا ... تزداد عزلة الإنسان يوماً بعد يوم ...

ويزداد حصاره ... ولن يكون الحصاد سائغ الشراب ... وصدق الله العظيم : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴿٨﴾ (سورة التكاثر، الآيات ١-٨).

ما لبثت أن توقفت قليلاً لشرب شيء من الماء ، وواصلت حديثي.

نحن الآن ، وكما يقال ، في سباق حضاري مع الغرب ...

هم يسبقوننا بنصف قرن ، كما يقال أيضاً ، ونحن نحاول أن نختزل هذه المسافة الزمنية بجهد مضاعف لكي نلحق بهم ونتفوق عليهم ...

هذا كله صحيح ... بل هو ضرورة من الضرورات التاريخية بالنسبة لكل أمة حية تسعى لأن يكون لها مكان محترم في هذا العالم ، وإلى أن تتحقق بالشروط اللازمة لهذا الاحترام ... وإلا لما شهد التاريخ تلك المسابقات الحضارية المتواصلة بين الأمم والشعوب ، وذلك التغير المستمر في المواقع المتقدمة ، تارة لهذه الأمة المتقدمة ، وحيناً لتلك ... وتارة لهذا الشعب ، وحيناً لذاك ، قياساً على مدى القدرة التي تبذلها أمة ما من الأمم ، أو شعب ما من الشعوب ، للإسراع في الوصول إلى خط النهاية واحتلال الموقع المتقدم ذاك ...

والأمم التي لا تبذل الجهد الكافي ، أو تقدم الحد الأدنى على الأقل ، فإنها لن تبلغ هدفها أبداً ، بل إنها ستخرج منذ التصفيات الأولى للسباق الحضاري ، ولن تتاح لها حتى فرصة الاشتراك فيه.

وهنا يبرز السؤال الذي ينتظر جوابه الصريح : تُرى هل إنّ محاولتنا الراهنة للفوز بالسباق استكملت أسبابها حقاً ؟ وهل انطلقنا عند خط البداية على الخطوط المرسومة للوصول إلى الأهداف ؟

يكون المرء منافقاً لو أجاب بالإيجاب أو على – أقل تقدير – جاهلاً ، قصير النظر ، غير قادر على فهم واستيعاب مجريات الأحداث التي تتمخض أمام عينيه ، ولابد من الاعتراف بهذا الخطأ الكبير الذي ظللنا نمارسه منذ أكثر من نصف قرن ولا نزال ... لابد من الاعتراف من أجل ألا نضيع فترات أخرى من الزمن ونهدر طاقات وقدرات أخرى ... ونعطي الفرصة للغرب كي يبعد عن مواقعنا الحضارية ويحلّق في السماء السابعة ونحن لا نزال نتخبط في البرك والمستنقعات.

وإذا أردنا أن نشخّص السبب الرئيسي الذي قادنا إلى هذا الخطأ ، وضيع علينا هذا الذي ضيعه لوجدناه يكمن في عبارة واحدة : لقد فهمنا الملاحقة أو التنافس الحضاري على أنه نقل عن المتفوّقين وليس فعلاً يتحتم أن نمارسه بعقولنا وخبراتنا وأيدينا ، وأن نصوغه من عقيدتنا ورؤيتنا وإيماننا الخاص.

إنّ مدننا تشهد – كما قال بعض المعلقين – " ثورات كونكريتية " ... شوارع فسيحة ، تطل عليها عمارات أنيقة شاهقة كتلك التي تطل على شوارع نيويورك ولندن وباريس ...

وإن دُورنا تشهد تراكماً في مقتنياتها الصناعية الحديثة ، من الثلاجة ، إلى المجمدة ، إلى التلفزيون ، إلى الغسالة الفول أوتوماتيك إلى الفيديو ... إلى آخره ... وهي مقتنيات صنعت في الغرب ، أو أن أجزاءها صنعت هناك ولم نفعل نحن سوى أننا ربطنا هذه الأجزاء.

وإنّ مؤسساتنا تشهد اعتماداً متزايداً على آخر المبتكرات التقنية ، بدءاً بالمصانع الميكانيكية وانتهاءً بالحاسبات الالكترونية والروبوت ...

ولكن هذا كله لم يجعلنا نقف على قدم المساواة مع الحضارة الغربية ، بل إنه لم يقرب المسافة الحضارية بيننا وبينهم ولو شبراً واحداً ...

ظلت هذه المسافة كما هي ، بل إنها أغلب الظن زادت اتساعاً ... لماذا ؟ لأن كل ما فعلناه هو أننا نقلنا بعض معطيات الحضارة الغربية نقلاً شيئياً أو تجارباً صرفاً ، وجعلناها تتراكم في مدننا ودورنا ومؤسساتنا دون أن يكون لدينا أحياناً حتى الكوادر البشرية القديرة على استيعابها وتشغيلها ...

ووقفنا عند هذا الحد ؛ النقل من الثمار المادية للحضارة الغربية ... وهذا وحده لا يكفي ...

صحيح أنه يعد ، في مرحلتنا الراهنة ، ضرورة من ضرورات الحياة الملزمة ، لكنه بحد ذاته أي بالوقوف عنده دون اتخاذ الخطوة الأخرى التي توازيه وتحتويه ، لن نكون قد فعلنا شيئاً ...

قد نتحقق بالرفاهية المادية ... ولكننا لن نتحقق بشروط السباق الذي يمكننا من منافسة الآخرين ... بكل تأكيد ...

والخطوة المطلوبة هي أن نعكس المقولة الخاطئة ، فندرك أن الحضارة فعل وليست نقلاً ...

وهذا الفعل الذي يتحتم أن يتميز بالأصالة والذاتية وقوة الشخصية ، لا يتشكل في الفراغ أو ينبثق عن الفراغ ...

لابد أن تكون هناك عقيدة دافعة ، وإيمان محفز ، ورؤية شاملة ، وأهداف محددة ، وخصوصية متميزة.

ومن أين نأتي بالعقيدة ، والإيمان ، والرؤية ، والهدف ، والخصوصية ، إن لم نستمدها من الإسلام نفسه ... الإسلام الذي صنعنا وحضرنا أول مرة ، وهو قادر أبداً أن يعيد صنعنا وتحضيرنا ؟!

الإسلام الذي نفخ فينا يوماً روح العمل ، والفعل ، والإنجاز ، ومنحنا الشروط اللازمة ، ودفعنا لركض المسافات الطوال ، ومكننا من كسر الأرقام القياسية ، وصولاً إلى خط النهاية ، والتفوق ، والشهادة على الأمم والشعوب والحضارات.

إن أية محاولة لاعتماد عقيدة أخرى غير عقيدة الإسلام سوف تجعلنا نظل حيث نحن ، لأننا نمارس حينذاك خطيئة مزدوجة. ففي حالة النقل الشيئي كنا نأخذ عن الغرب ما يبتكره من أشياء ، وهذه مسألة ذات طابع حيادي ، قد لا تفعل بأكثر من جعلنا نلهث وراء الغرب باستمرار ...

أما في هذه الحالة فإننا ننقل عنه أفكاراً قد تتضمن الكثير من الأخطاء والانحرافات ، أو أنها ، في أحسن الأحوال ، تحمل قيماً مغايرة لقيمنا ، مرتطمة بها ابتداء ، الأمر الذي قد يقود ، أو هو قاد فعلاً إلى هذا الدمار الذي نعانيه ، وعلى هذا التزايد المحزن في المسافة الفارقة بيننا وبين الغربيين.

تُرى ... ألم يأنِ الأوان بعد للتفكير جدياً بهذه المسألة ، والانطلاق ثانية من خط البداية ونحن نمتلك الشروط التي تمكننا من قطع المسافات الطوال ؟!

غادرت الاستديو ، بعد أن تلقيت جملة من شهادات التقييم من مدير القناة وعدد من العاملين فيها ، وأنا أقول في نفسي : أليس هذا أولى من الجدل الذي يصل حد الخصام في معظم الأحيان ، بحيث يكاد يغطي على الحقائق المبتغاة من لقاءات كهذه ؟ ومع ذلك فإن الجدل في جانبه الايجابي يفتح أبواباً وقنوات عديدة قد تكون غائبة عن ذهن المتحاورين وتجعلهم يبدعون في متابعتها وتقليب النظر في جوانبها كافة ... وعلى أية حال فان النية إذا كانت مخلصة ، وتبتغي الوصول إلى الحق ، فان أي طريق قد يقود إلى المطلوب ... جدلاً متواصلاً، أم طرحاً مستقلاً ، فانما كما يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) **(الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى)** وصدق رسول الله !!

(٢٢)

كنا نستقل سيارة في موكب تشييع لأحد الأساتذة ، توفي بسكتة قلبية وهو في عز الشباب، وقال أستاذ للفلسفة واللاهوت في الكلية نفسها ، يلبس ملابس الرهبان : ها هنا يتذكر الإنسان ما قاله الفلاسفة الوجوديون عن الموت ... هيدجر ، وكيركغارد ، وغابرييل وغيرهم ... أنه ما من شيء يلوي عنق الوجود ويخنقه ... كالموت ... ما من شيء غير مبرر على الاطلاق كالموت ... يجيء هكذا على حين غفلة ... يضرب ضربته المفجعة ويغيب عن العيان ...

بعد حوار قصير .. تذكرت ، عبر دقائق الصمت المشحونة ، التي أعقبته ، والجسد الشاب يوسد الحفرة الضيقة ... تذكرت مقولة كامي عن الموت : إنه الرياضيات الدامية ، وإنه ما من شيء مبرر إزاء واقعة الموت ... وإنه ما من معنى للحياة والموت واقف لنا بالمرصاد ...

رؤية سوداوية للحياة ... أليس كذلك ؟ وإذا كانت حياة أي واحد منا تنتهي بضربة كهذه ... فهي المعادلة المفجعة التي تسحّ دماً ...

والموقف الإيماني يتألق أكثر ما يتألق في مواقف كهذه ... ولذا أمرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بزيارة القبور ، وتشييع الموتى ... هنالك حيث تتمزق الأقنعة ، وتتساقط البهارج ، وتتعرى الحقيقة ... ناصعة بيضاء ... بلون الأكفان التي تلف الأجساد ، وهي تودع الدنيا ...

وتذكرت ... في الدين ... يتحول الموت إلى شيء آخر تماماً ... شيء مبرر ومنطقي ومرسوم ... شيء في محله تماماً ... ضروري كضرورة الحياة نفسها ... حتى كحتمية الكهولة والشيخوخة بعد الطفولة والصبا والشباب ... موقف (علمي) إذا صح التعبير ، ما دام أن منحنى الحياة الإنسانية يقتضي ، في مرحلة المغيب ، هذا الانحدار السريع ، الفجائي نحو الظلام ...

في الدين يتحول الموت إلى رياضيات عادلة بمعنى الكلمة ... سواء وضعناه في معادلة من الدرجة الأولى أم من الدرجة الرابعة ... فالنتيجة محسوبة بمنطق رياضي صارم لا يخطئ ولا يضل !!

ماذا لو بقي الإنسان حياً لا يموت ؟ مجرد فرض مناقض لمقولات علم الحياة ... أيوجد في تاريخ بني آدم موقف (لا أخلاقي) ، ناهيك عن لا علميته ، يوازي هذا الموقف في شناعته ؟ أن يظل الإنسان حياً لا يموت ؟ بمجرد أن نتذكر صفاً من الطغاة الذين ظلوا إلى آخر لحظة من حياتهم ، يجلدون المغلوبين والمستضعفين ، ويحصدونهم وهم يعرفون أن الموت ينتظرهم هناك على بعد خطوات ؟ ماذا لو تأكد أي واحد من هؤلاء الطواغيت أنه باقٍ لا يموت ، حي خالد لا تسري عليه قوانين الفناء ؟

شيء مرعب حقاً ترتعد له الفرائص ... أن يظل الطواغيت خالدين وأن يظل بنو آدم دونهم محنيي الظهور ... عراةً ... يجلدون ... ويحصدون ...

وبمجرد أن نتذكر – في مقابل هذا – حشوداً من المضطهدين ، المطاردين ، الذين ظلوا يجلدون حتى آخر لحظة فلم ينقذهم إلا الموت .. نتذكرهم ، هكذا ، يتلقون السياط إلى أبد الآبدين ... دون أن تتاح لهم فرصة الرد والانتقام بسبب من طبيعة المرحلة التاريخية التي وضعتهم هنا ووضعت الطواغيت هناك ...

وبمجرد أن نتذكر كيف أن مئات ، بل ألوفاً وملايين ، من المظلومين والمستضعفين ، ضاعت حقوقهم ، ولم ينالوا على ما قدمت أيديهم أي جزاء ... ولو طال بهم السرى لازدادوا مسغبة وضياعاً ... بينما يقف في المقابل مئات وألوف من الظالمين والمستعبدين والمتخمين ... كانوا لولا واقعة الموت سيزدادون تخمة وظلماً واستعباداً ... وليس ثمة من يأخذ من هؤلاء لهؤلاء ، ومن ينصف هؤلاء من أولئك ... قد تقع ثورة وثورتان وثلاث ... وقد ينتصر المستعبدون هنا وهناك وهنالك ... وقد تسود قيم الحق في هذا الموقع أو ذاك ... ولكن رغم هذا كله ، فستظل أعداد هائلة من الذين لم ترد إليهم حقوقهم بعيدة عن قبضة الحق ونظراته ... غير قادرة على استرداد حقها ... بل إن ظلماً جديداً وأفواجاً مستحدثة من المظلومين تبرز إلى حيز الوجود في صميم الثورات نفسها ... فتضيع.

وتجيء واقعة الموت لكي ترد الطرفين إلى مولاهم الحق ، الذي يعرف (سبحانه وتعالى) كيف ينتقم للمظلومين من الظالمين ، وكيف يضع الموازين القسط التي ما عرفت الحياة البشرية – على ادعاءاتها – طعمها العذب ...

إن الموت هو ذلك الوسيط الذي لابد من مجيئه إذا أريد لقيم الحق والعدل أن تتحقق في صفحة الكون كله ... يجيء فيحيل كافة القضايا المعلقة إلى القاضي الأكبر الذي يعرف كيف يسوي الحقوق ... وكيف يرفع رؤوس المظلومين ... وكيف يدس أنوف الطواغيت في نار جهنم ورمادها ...

ومن ثم نعرف كيف يكون الموت رياضيات عادلة من أية زاوية نظرنا إليه ...

ولا يخطرن على بال أحد أن تحليلاً كهذا يقود إلى دعوة المظلومين لإلقاء السلاح بانتظار حكم الموت ... بل على العكس تماماً ... إن حتمية الموت تعجل بثورتهم وتمنحهم قدرة أكبر على اجتياز المخاوف ، ومجابهة الخصم الذي سيقتلهم أو يقتلونه ...

وفي الحالتين سيكونون هم المنتصرين ...

وعلى هذا الضوء نعرف كيف تمكن أجدادنا الفاتحون من تغيير خرائط العالم والتفوق على قوى تفوقهم بكثير ، ودك عروش كانت قد استعلت على المستضعفين قروناً وقروناً ...

ساقني المنولوج الداخلي الذي كنت أحاور فيه نفسي إلى جانب آخر من حقيقة الحياة الدنيا ورحت أعمل ذهني في البحث عن العنوان المناسب لهذا الجانب ... وعثرت عليه إنه (دراما الحياة) ، فاننا إذا أردنا أن نكثف تجربة الحياة البشرية بعبارة واحدة ... الحياة المترعة بالأخذ والرد ... بالخير والشر ... بالانتصار والهزيمة ... بالفرح والحزن ... بالضحك والبكاء ... بالانشراح والغم ... بالإقدام والإحجام ... بالانتشار والانكماش ... بالفاعلية والضمور ... بالتماسك والانسحاق ... وبسائر الثنائيات والتناقضات التي تحفل بها حياة أي واحد منا ...

إذا بحثنا في تجارب الآخرين ممن لعبوا دورهم في مسارح العالم ووضعوا بصماتهم على صفحات الحركة التاريخية ، ودونوا سيرهم الذاتية ومذكراتهم.

إذا قرأنا فكر المفكرين وفلسفة الفلاسفة وأدب الأدباء في عشرات المؤلفات ومئاتها وألوفها ...

إذا توغل كل واحد منا في تجربته الخاصة ومارس ما يسمى بالتأمل الذاتي أو الاستبطان لاكتناه سر التجربة ومفتاح الحركة في الأعماق ...

إذا فعلنا هذا وذاك بحثاً عن عبارة واحدة تكون بمثابة العلامة الأكيدة على صيرورة الحياة البشرية ونسيجها ... فإننا لن نجد أروع وأعمق وأشمل من الآية القرآنية : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴿٦﴾ (سورة الشرح ، الآيتان ٥-٦) ، وذلك هو إعجاز الكلمات عندما تصدر عن صانع الكلمات والتجارب على السواء.

ثمة تطابق هندسي باهر بين الكلمة والتجربة وفق أشد الصيغ اقتصاداً وتركيزاً وقدرة على التعبير ...

إنها – في الحق – (دراما) الحياة ، ومقولتها التي يعرفها كل واحد منا والتي تجيء حياتنا بمذاقاتها الحلوة والمرة في كل يوم ، بل في كل ساعة ودقيقة ، لكي تكون مصداقاً لها وتأكيداً ...

إن قراءة هذه الآية والتعمق في مدلولها يمنحنا – إذا صح التعبير – نوعاً من التطهر (الكاثرسيس) الذي كانت تمنحه التراجيديات اليونانية للمشاهدين ... التعامل مع الحزن المنظور والعناء المشاهد لاستخراج الحزن والعناء من الأعماق ، وطردهما والتفوق عليهما ...

إن لصوص التعاسة والشقاء والانهزام في منحنيات نفوسنا ودروبها كثيرون جداً ، وما لم تتحول الأشباح إلى شخوص مرئية ، محددة الملامح والسمات ، فإنه يصعب إلقاء القبض عليها وسوقها للمحاكمة وإصدار الحكم المناسب ، والإحساس – من ثم – بالأمن والسعادة والثقة واليقين.

إن قراءة هذه الآية تمنحنا نوعاً من الانشقاق على الذات ... من التحرر منها والاستعلاء عليها ، والقدرة على معاينتها من الخارج وهي تتقلب بين السعادة والعذاب ... بين الفرح والحزن ... بين النور والظلمة ... وحينذاك لن تأسرنا حشود المتناقضات ولن يسحقنا سيل لا أول له ولا آخر من الثنائيات التي تحكم حياتنا من أول لحظة للوعي وحتى يُغَيّبَ الإنسان في التراب.

بل على العكس ، إن إدراك سر هذا التقابل المشحون في صميم الحياة وفي أعماق التجربة يمكن أن يقود إلى (الحكمة) التي جعلت حياة الإنسان معجونة بالثنائيات.

إنها بمثابة المحرك أو المحفز الذي يدفع حياة الإنسان صُعداً صوب الأحسن والأرقى ... إنها بمثابة فرصة ممتازة للاختيار والانتقاء ، وقائمة منوعة بالمفردات لن يفيد منها إلا الذين قدروا على فهم السر وصاغوا منها قصائد حياتهم المترعة بالقيم والكفاح والجهد والتعاليم.

وعندما تصدر مقولة كهذه عن خالق الإنسان جَلّتْ حكمته ؛ فلنا أن نتصور مقدار الحرية التي تمنحنا إياها ... ونحن نظن ، لعجزنا وجهلنا وقصورنا ، أننا قد انتهينا لدى كل نازلة ، وتفككنا عند كل مصاب ، وانسحقنا تحت كل ضربة ، وهُزِمنا إلى الأبد أمام هذه المحنة أو تلك.

كلا فإن ما يقابل هذا في مجرى الحياة نفسها حشد آخر من معطيات الكسب والإنجاز والانتصار والتماسك والتحقق والتجاوز ... لمن يقدر على استلهام المصائب والنوازل ، ويتوغل في صميم المحن والضربات ... ويقبل التحدي ...

فقط لمن يدرك أن داينامو الحياة البشرية ومفتاح قدرتها على التمخض هو هذا التقابل الأبدي بين العسر واليسر.

ليس ثمة " عسرً " ينوء بكلكله علينا فيسحقنا إلى الأبد ...

وليس ثمة " يسر " يفتح أحضانه الأبدية فينسينا ويطغينا ...

ولكنه الشد والجذب الذي يجعل الشخصية البشرية في حالة وعي دائم ، وقدرة مستمرة على المجابهة والفعل والتجاوز والعطاء والإبداع ...

وإذا كان بعض الكتاب الوجوديين في الغرب قد رأوا أن الإنسان مغبون إذ قُدّرَ عليه أن يؤخذ بسلسلة من الأفعال وردودها ، وأن يقيد بسلاسلها ... وإذا كان بعضهم الآخر قد أعلن بأن ضياع الإنسان يكمن في أنه يعيش أبداً حشداً من التناقضات النفسية ...

فإن الآية القرآنية بمنطقها المعجز تجيء لكي تكتسح هذه الرؤية " السوداوية " وتقدم بدلاً منها " موقفاً " شمولياً فاعلاً يكثف تجربة الحياة المعقدة المتشابكة بعبارة واحدة ، ويمنحها القدرة على التجدد والانبعاث والفاعلية ... بالعبارة نفسها ... وصدق الله العظيم.

(٢٣)

قررت يوماً أن ألقي محاضرة عامة على أساتذة وطلبة كلية الآداب عبر موسمها الثقافي ، فاخترت لها عنواناً استفزازياً يدفع إلى التساؤل عن مضمون المحاضرة : (لعبة كل يوم) بدأتها بهذه الآيات : (لعلهم يتذكرون) (لعلهم يتفكرون) (لعلكم تعقلون) !!

فإذا بأحد الأساتذة ينهض قائماً ويقول وقد اكتسى وجهه ملامح الغضب والانفعال : ما الذي تريد أن تقول أيها الأستاذ المحاضر الذي اخترت لمحاضرتك هذه (لعبة كل يوم) ؟ !!

أجبته وأنا أحاول أن أرسم على وجهي ابتسامة هادئة لعلها تلطف موقفه المتشنج الذي لا مبرّر له.

﴿ ... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(سورة البقرة ، الآية ٢٢١) ، ﴿ ... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(سورة الأعراف ، الآية ١٧٦) ، ﴿ ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(سورة الحديد ، الآية ١٧).

عشرات المرات ، بل مئاتها ، والقرآن الكريم يدفع الإنسان دفعاً ، يهزه بعنف ، يأتيه من كافة الزوايا من أجل أن يُعمل عقله فيما يحيط به ... لأنه بمجرد إعمال عقله هناك فإنه سوف يكشف النقاب عن الحقيقة ... وما جاءت الأديان إلا لكي تقود الإنسان إلى الحقيقة ...

ابتداء من لحظات نزول القرآن الكريم الأولى ، وإلى أن يشاء الله ، ترددت وستتردّد هذه النداءات القرآنية الموجهة للإنسان كي يُعمل عقله ...

وعبر مسيرة الإسلام الطويلة ، استجاب للنداء من استجاب ، ورفض من رفض ، وبقي النداء يحمل حرارته وتدفقه في مجرى الزمن ...

ومع ذلك يبرز بين الحين والحين ، من أدعياء البحث والفكر ، من يقول بأن الدين جاء لكي يقف بمواجهة العقل ، يحاصره ويضيق الخناق عليه ، ويسدّ إزاءه منافذ العمل والانطلاق ... وأنه – إذا ما أردنا إطلاق العقل من عقاله لكي يعمل بحرية تامة – يتوجب علينا أن نزيح من طريقه عوائق الدين ...

أتراهم لم يقرؤوا كتاب الله ولو مرة واحدة ؟! أتراهم لم يمروا على صفحاته ولو مروراً سريعاً؟ وفيهم الأساتذة المتخصصون الذين يتباهون بقراءاتهم الواسعة ليل نهار ؟

تُرى كم من المواقف القرآنية حكم عليها من قبل هؤلاء الأدعياء بعكس ما ذهبت إليه أو أرادت أن تقوله ؟!

إنه احتقار للعقل نفسه ، أن يصدر الإنسان حكمه على قضية لم يكلف نفسه عناء الاطلاع على تفاصيلها وابعادها ... تماماً كما أنه احتقار للقانون أن يصدر الحاكم حكماً خطيراً في قضية لم يستدع فيها شاهداً واحداً ...

احتقار للعقل نفسه أن يتشبث الإنسان بموقف لا تبرره الحجج والأسانيد ، موقف حمله معه منذ طفولته أو صباه أو مراهقته ، أو لقنه تلقيناً ... في هذه المرحلة أو تلك ... ثم لم يحاول بعد استكمال نضجه أن يقوم بتفحص مدى صدق موقفه ذاك ...

وأغلب الظن أن المسألة ، بالنسبة لمتخصصين كهؤلاء ، ليست مسألة حمل ولا تلقين ... ولكنها مسألة (تحميل) ، أرغموا عليها ، وهم يواصلون دراساتهم العليا هناك ، لكي يمنحوا الشهادة ويرجعوا إلى بلادهم فيجدوا المناصب الخطيرة تستقبلهم هناك.

والدليل أنك إن حاولت أن تناقشهم ، وتقدم لهم الأدلة تلو الأدلة لووا رؤوسهم ، ورفضوا الاستمرار في الحوار ... خوف أن تتكشف أبعاد اللعبة ، التي كلفوا بأداتها قبل أن يرجعوا إلى بلادهم ...

وليس ثمة من خطر أن يرجع كل المتخصصين ، وهم يحملون أسفار الخرافات الغربية ، المادية أو الصليبية ، عن الإسلام وعقيدته وتاريخه ...

ولكن الخطر يكمن في صفوف الطلبة الجدد الذين سيجلسون تحت أيديهم يتلقون عنهم المعرفة بنظرة ملؤها التقدير والإعجاب والاحترام ...

وإزاء نظرة كهذه يُطمس على الحقائق ... وتمرر الأكاذيب والخرافات إنها – للأسف – لعبة كل يوم !!

ما أن قطعت شوطاً في حديثي حتى لحظت الأستاذ المذكور ينكفئ في مكانه وكأنه اقتنع ببعض ما سردته من أدلة تؤكد ممارسة اللعبة يوماً بيوم ، من قبل حشود كبيرة ، وكبيرة جداً من جماهير الناس ومن مثقفيها على السواء ... فأراد أن يتحقق بمزيد من الاقتناع ، فقاطعني قائلاً: قد يكون في كلامك هذا الكثير من الأدلة التي تقنع المتشككين ، ولكنها في سياقها العام مارست قدراً من التنظير ، ونحن نريد منك أن تعطينا الدليل الواقعي المنظور على صدق ما تقول !!

أجبته : ما طلبت إلا حقاً ، فان الوقائع المنظورة تحمل قدرتها على الاقتناع ، أكثر بكثير من التحليلات التي تميل إلى جانب التنظير ... وها هنا في ميدان الوقائع نجدنا قبالة حشود من الأدلة القاطعة التي لا تفسح أي مجال على الاطلاق للشكوك والأوهام ...

– كيف ؟

– الأدلة كثيرة وإليك أحدها فحسب :

الأدلة كثيرة ... والحقائق والممارسات التي تشع ضوءً حتى ليكاد تألقها يسلب الأبصار أكثر ، والبديهيات أكثر بكثير ... بديهيات في الفكر وأخرى في السلوك اليومي المنظور وفي حشود المفردات التي تشكل أخلاقية الرسول (عليه أفضل الصلاة والسلام).

ولكن أين العقول التي تفقه ... والعيون التي ترى ... والقلوب التي تؤمن فتطمئن ؟!

ثلاث وعشرون سنة ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يغادر فراشه في جوف الليل لكي يؤدي صلوات كانت تتورم لها قدماه ، وتتقرح الأجفان ، ويكاد الجسد يئن نصباً وإعياءً ...

ثلاث وعشرون سنة ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينهض من فراشه حتى والبرد يلسعه في ليالي الشتاء الجليدية ... حتى ونداء النوم يدعوه لكي يرتاح قليلاً من عناء نهار ليس كنهار الناس العاديين.

لماذا ؟ ولمن ؟ وعلام هذا العناء وهذا الالتزام الصارم وهذه الممارسة التي لم يتنازل عن أدائها يوماً واحداً فقط على مدى ثلاث وعشرين سنة هي عمر الرسالة والرسول عليه أفضل الصلاة وأزكاها ... وأطيبها ؟!

وما كان ينام وحده لكي يتسلل الشك الشيطاني إلى النفوس المريضة فتستسلم له وتقول : ربما ؟ من يدري ؟ لعله صلى يوماً وتجاوز أياماً ؟

لم يكن ينام وحده ... ومعنى هذا أن ممارسة كهذه غدت أمراً تاريخياً مُسلماً به ... فمن خلال (شهود) يومي لنسوته – أولاً – حيث كان يتبتل في داره ، ومن خلال شهود يومي أكثر اتساعاً لصحابته الكرام الذين ما تخلى عن إمامتهم في صلاة الفجر يوماً ، تغدو المسألة يقيناً يكتسح كل وسوسة ، وشهادة منظورة تفرض حضورها على الملاحدة قبل المؤمنين ...

ومرةً أخرى ... لماذا ؟ ولمن ؟ وعلام هذا العناء ؟!

وحاشا لمؤمن أن يتوجه بسؤال كهذا لنفسه أو للآخرين ... وإنه لأمر بديهي كبديهية الإيمان نفسها ، أن ينهض الإنسان المسلم في جوف كل ليل ملبياً نداء الله ، منفذاً واحدة من الصلوات الخمس التي كتب الله مواقيتها على المؤمنين ، فكيف بالرسول (عليه الصلاة والسلام) ؛ ولكنه سؤال نقذف به وجوه المتشككين بنبوة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، الموسوسة صدورهم بصدق رسالة الرسول ...

ليس سؤالاً في حقيقة الأمر ، ولكنه تحدٍ يحمل واحدة من أشد الحقائق ثقلاً وحضوراً لكي يقول للناس : ها هي ذي ، مفردة واقعة تؤكد صدق محمد بن عبد الله ، مع نفسه ومع الناس ، وقبل هذا وذاك مع الله (سبحانه وتعالى) الذي لم يكن بصلواته الليلية الصعبة تلك يلبي أمره فحسب ، ولكنه يتجاوز هذا إلى التعبير عن حبه وشكره وعرفانه.

تُرى ... كم من أمثال هذه المفردة المتألقة كضوء الشمس ، الواقعة كحقيقة الحياة والموت، المؤكدة كما لم تتأكد ممارسة من قبل ، شهدتها حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟

كثيرة جداً ، بحيث إنها بمجموعها تشكل سلوكاً متناغماً لم يتعرض يوماً لنشاز ، ولم يضعف خفقانه حتى اللحظات الأخيرة ...

كثيرة جداً ، وإنّ أية منها لكفيلة بأن تبلغ بالإنسان حافة النصب وتدفعه إلى طلب الراحة بشيء من التفلت وبشيء من التساهل بنوع من اللا اكتراث الذي قد يتطلبه الجسد والعقل والجملة العصبية بين الحين والحين.

ولكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مضى ثلاثةً وعشرين عاماً يواصل التزامه ليلاً ونهاراً ... لم يتساهل ولم يرتح لحظة واحدة ... مضى لكي يؤدي المطالب الصعبة ويضرب بسلوكه النبوي مثلاً للذين يعايشونه ، ولكل القادمين فيما بعد علهم ينفذون عُشر ما كان (عليه الصلاة والسلام) ينفذ ...

ومن يدري ، فلعله كان يجد راحته في هذا الكدح الطويل ، ويتحقق بالتوازن الصعب إزاء ربه الذي منحه الأمانة الثقيلة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ومن يدري ؟

ولكن السؤال المتحدي يظل دائماً قائماً ، تقذف به وجوه قوم يلتقي بهم المرء في كل زمان ومكان ... أولئك الذين يتسلى بهم الشيطان فيجعل متعتهم القصوى ممارسة الوساوس والشكوك ... هؤلاء هم المعنيون بالسؤال ... لماذا ؟ ولمن ؟ وعلام ؟! إن لم يكن هناك إله واحد يبعث نبيه للناس ، أكان محمد بن عبد الله يلتزم بممارسة هذا الجهد المضني على مدى عمره الذي قضاه

قائداً وزعيماً ؟ حيث كان يتحتم بمنطق التشكيك نفسه أن ينهل من الطيبات ، وأن يستغل – وحاشاه – مركزه هذا لكي يسعد ويتنعم ويرتاح ؟ أكان يفرض – أساساً – هذه الصلاة الصعبة بين الصلوات على نفسه وأمته ؟!

بلى إنها النبوة الحقة ... وإنها مطالب التقابل الكبير بين الله (سبحانه وتعالى) وبين مبعوثه بالصدق المطلق ؛ لكي يقود الناس ، في كل زمان ومكان ، إلى الصراط.

ما أن انهيت محاضرتي حتى رأيت الأساتذة والطلبة يعربون عن اقتناعهم بما سقته من شواهد ، ويطلبون المزيد من المحاضرات التي تضيئ أمامهم مسالك الطريق المعقد المتشعب ، المترع بالظلمات والشكوك والأوهام ، تلك التي نصبها في طريقهم أبالسة العصر وشياطينه الكبار ... فوعدتهم خيراً وأنا أحمد الله (سبحانه وتعالى) على أن وفقني في محاضرتي هذه لما كنت أتوق إليه وأتمناه.

(٢٤)

دعيت يوماً للمشاركة في جلسة حوارية حول قضية المرأة ، دعت إليها احدى الصحف اليومية التي تصدر في العراق ، فقلت في نفسي : والله إنها لفرصة طيبة أن أدلي بدلوي في هذا الموضوع الساخن الذي تحدّث فيه عشرات الكتاب ، رجالاً ونساءً ، أولئك الذين استهوتهم لعبة النقل الحرفي عن الغرب المتفوّق ، فظلموا المرأة ، وغبنوا هذا الدين العظيم الذي وضعها في مكانها المناسب تماماً !

تحدّث الكثير من المدعوين ، ومعظمهم من النمط إياه المتأثر بالفكر الغربي والذي لا يعدو أن يكون ناقلاً له بالحرف الواحد ، حذوك النعل بالنعل ، فلما جاء الدور علي قلت :

في مسألة تحرير المرأة نجد أنفسنا كمسلمين أمام إحدى اثنتين : الصخب أو الإحصاء ... وبما أننا في عصر العلم ، فأحرى بنا أن نأخذ الثانية ، لكي نقيس بها مكانة المرأة في ديننا السمح العظيم ...

بما أننا في عصر العلم ... أحرى بنا أن نتجاوز الصخب ، والفوضى ، والصراخ ، والصراع الدونكيشوتي الموهوم ... ونحن نعالج قضية المرأة ...

لو رسمنا جدولاً بيانياً بالمواقف التي اتخذها الإسلام في كتابه الكريم وسنة نبيه (عليه السلام) ، وفقهه الواسع المتشعب ، وبالتطبيقات التي نفذت فعلاً في واقع تاريخنا الطويل ، منذ فجر الدعوة الإسلامية حتى اللحظة الراهنة ، وقارناه بجدول بياني آخر بالمواقف التي اتخذتها هذه النظرية الوضعية أو تلك ، ورسمها هذا التشريع البشري أو ذاك ، أو بالتطبيقات التي شهدتها هذه التجربة في العالم أو تلك ، لرأينا بأم أعيننا الفرق النوعي الشاسع بين هندسة الله

وهندسة العبيد !! بين الموقع الذي اختاره الله (سبحانه وتعالى) للمرأة في خارطة العلاقات الاجتماعية المعقدة المتشابكة ، ذات الأبعاد العديدة ، وبين الموقع الذي اختاره لها العبيد في هذه الخارطة ... بين المكانة التي حظيت بها المرأة في أرض الإسلام وتلك التي منيت بها في أرض الوضاعين والكهنة ...

ولو رسمنا جدولاً بيانياً آخر بالظروف والملابسات والمتغيرات والاجتهادات والتطبيقات التي اتخذت إزاء موقف واحد من المرأة ، ولتكن قضية الزواج مثلاً ، أو (الطلاق) على وجه التحديد ... وأجرينا مقارنة بين أكثر من جدول يمثل كل منها هذا الموقف في مذهب ما من المذاهب أو تجربة ما من التجارب ، أو دين ما من الأديان ... السماوية أو الوضعية ... لرأينا تفوق الموقف الإسلامي ، ومنطقيته وتماسكه ، وانسجامه ... وعمق الأسس النفسية والاجتماعية والحضارية التي يقوم عليها ...

ولو اعتمدنا جهاز الحاسبة الالكترونية (الكومبيوتر) بتقديم مجموعة من المعلومات النمطية وفق الصيغة الأولى أو الثانية ، الصيغة الأفقية ، أو العمودية ، لتوصلنا – يقيناً – إلى النتيجة نفسها ...

كلنا نعرف – على سبيل المثال – ما حدث بالنسبة لسماح الإسلام بنظام الطلاق ... كيف بحّت أصوات ، ومزقت حناجر ، وشقت جيوب ، ولطمت صدور ، هناك في الغرب من قبل طلائع الاستعمار الفكري مبشرين ومستشرقين ، وهنا في الشرق من قبل صنائع الاستعمار الفكري من كتاب وأساتذة وصحافيين وهي تنعى على الإسلام موقفه المتعصب ، المتحجر ، الرجعي هذا من قضية المرأة ، ومن بناء الأسرة المقدس ... ونعرف ما حدث – بعد ذلك – من تراجع الكثير من القوانين والتشريعات في الدول المتقدمة في روسية وأوربة والأمريكيتين وإباحتها الطلاق ، بعد ضغوط تاريخية واجتماعية متزايدة ، ومناقشات برلمانية وإعلامية واسعة متشعبة ... ونعرف كذلك – على سبيل المثال – ما حدث في إيطالية من موافقة أكثر من ثلثي أعضاء البرلمان على الإباحة رغم المعارضة الهائلة التي بذلتها المجامع الكنسية هناك وحاضرتها الفاتيكان ... والترحيب الذي قوبل به هذا الإجراء من قبل أشد الأحزاب يسارية وتقدمية ... وحتى لو لم يحدث هذا التراجع على مستوى القوانين والتشريعات ... فإن نظرة سريعة إلى صحف القوم التي تعكس واقع حياتهم اليومي ترينا كيف أن الطلاق كان ضرورة حتمية ، وكيف أنه مورس بنسب تفوق بشكل هائل ما حدث في أرض الإسلام وتاريخه ...

إن قضية المرأة ليست قضية مسطحة ذات بعد واحد ، لكي ننادي بضرورة مساواتها المطلقة مع الرجل ... ومسألة الأسرة ليست مسألة مبسطة ذات وجه واحد ، لكي نحكم عليها

بالسجن المؤبد ، بتحريم الطلاق تحريماً مطلقاً ، وبفرض نظام الزوجة الأبدية الواحدة بقوة القانون ...

كل قضية من قضايا المرأة أو الأسرة ... أو أي من القضايا التي تحتل فيها المرأة والأسرة موقعاً هاماً ... ليست من البساطة بمكان لكي نعالجها كما نعالج أرقاماً رياضية بالجمع والطرح والضرب والقسمة ... أو كما نعالج مشروعاً للري بجرف التربة من هنا وتكديسها هناك ... وسد مجرى النهر من هنا وفتحه هناك ...

إنها مسألة شديدة التعقيد ، ذات أطراف عديدة ، وطبقات يعلو بعضها بعضاً ... ترتبط إحداها بالأخرى ... واي تغير يحدث في جانب ، يؤثر ولا ريب على كافة الجوانب الأخرى ... إنها – إذا صح التعبير – ليست معادلة بسيطة ذات وجه واحد ، ولكنها معادلة مركبة من الدرجة الرابعة أو الخامسة ... وإذا لم ينظر إليها المشرع نظرة شمولية تلاحظ جيداً كافة الأطراف ، وتعالج جيداً كافة الزوايا على ضوء ارتباطاتها الدقيقة المعقدة ، فإنه سوف يضر بها، وهو يريد لها نفعاً !!

من هنا يتفوق الموقف الإسلامي من المرأة على سائر المواقف الوضعية أو الدينية المنحرفة ، كما يتفوق دائماً في كل مواقفه الأخرى من الكون والعالم والحياة والإنسان ... ذلك أنه تصميم الله الذي خلق الإنسان وهو أعلم بمن خلق ... الله الذي ينظر بعلمه الشامل المحيط في أبعاد كل قضية ، وإلى ارتباطاتها كافة ، فيجيء حكمه عدلاً لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه ...

إنه عصر العلم ... فلنجرّب أدواته ووسائله في تفحص معجزة الإسلام تجاه المرأة ... بدلاً من توّهم مشاكل للمرأة يتصور الكثير من البلهاء والسذّج ، أو الخبثاء والماكرين أنها من صنع الإسلام ...

وبالصخب والضجيج والصراخ ... بالتوتر والغضب والانفعال ... يسعون لحلها فيمارسون بهذا خطأين ينقلبان عليهم وبالاً ... خطأ بحق ديننا العظيم ، الذي لم يكن في يوم من الأيام سبباً في خلق مشكلة ما تعاني منها المرأة ... وحاشاه ... وخطأ بحق العلم ومناهجه التي تمنحنا الوسائل والأدوات للوصول إلى الحقيقة ، فنضرب بها جانباً ونستبدلها بالصخب والضجيج والصراخ : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(سورة المائدة ، الآية ٥٠).

لما رأيتهم ينصتون إليّ باهتمام بالغ ، رغم أن ملامح وجوههم عكست بدرجة أو أخرى ، قدراً غير قليل من التوتر والانفعال ، أردتها فرصة لتقديم المزيد عن قضية المرأة لعلي أمضي

بهم إلى شاطئ المعرفة الحقيقية والمنهج السليم في التعامل مع هذا الكائن الفريد ... فواصلت حديثي :

إن الأمر لا يقتضي هذا الإلحاح لو أن الأمور سارت وفق مجراها الطبيعي ، وأخذت هذه الكائنة الفريدة ، المتميزة ، مكانها المرسوم في خلق الله وتصميمه المعجز للحياة والأشياء ...

ولكنهم أرغموها ، بشكل أو بآخر لكي تخرج عن مكانها فتضل وتضيع وتصبح مشكلة تزداد مع الأيام تعقيداً ، بينما هم يتصورون أنهم قد وجدوا لها حلاً !

إننا نتذكر هنا تلك العبارة الذكية التي استعملها الناقد الإنكليزي " جون سترايتشي " في كتابه " الصرخة المختنقة " وهو يناقش رواية " باسترناك " الشهيرة " دكتور زيفاغو " ، ويضع يده على عناصر الارتطام بين معطياتها وبين نسيج التجربة الماركسية.

والعبارة هي : " الاصطراع مع التاريخ " ... وباختصار فإن الماركسية ، شأنها شأن العديد من المذاهب الوضعية ، جعلت نفسها في حالة اصطراع مع التاريخ ، لا وفاق معه ... اصطراع مع التاريخ بمعنى الوقوف ضد قيمه وبداهاته وأقانيمه ومؤسساته التي أجمعت عليها الأمم والشعوب والحضارات وغدت بمثابة أحجار الزاوية لكل نشاط حضاري يمارسه الإنسان.

والتاريخ هنا يعني الخبرة البشرية المنبثقة عن تركيب الإنسان وفطرته ومطامحه ، وميوله وأشواقه وقدراته ، المتوافقة معها.

لقد بذلت الماركسية جهداً مضاعفاً من أجل تحقيق انتصارها على البداهات ، لا لشيء إلا لأن " ماركس " ورفيقه " أنغلز " استنتجا نوعاً من الارتباط الميكانيكي بين هذه الخبرات وبين التركيب الطبقي للمجتمعات البشرية.

وفي هذه المعركة انتصر المذهب بصيغ القسر مرة ، وانهزم أمام الخبرات الأكثر حركية وعمقاً ودواماً ، مرات ... ولكن الإنسان كان في كل الأحوال هو المنهزم على حساب المذهب ...

هذا ما أرادت الرواية أن تقوله كما يتصور " سترايتشي " من خلال تعبيره ذاك " الاصطراع مع التاريخ ".

ويبدو أنّ المسألة تنسحب على الموقف الغربي عموماً من المرأة ... هذا الموقف الذي سعى المقلدون الشرقيون إلى جره إلى الساحة الإسلامية ، وإرغام المرأة على أن تمثل الدور نفسه.

إنهم باصطراعهم مع وظيفة المرأة الطبيعية المصممة على حجمها ، والمنسجمة مع فطرتها وتركيبها وقدراتها ، قد اختاروا الارتطام بواحدة من الحقائق الأساسية للتاريخ البشري ، وهم عبر

معاركهم التي لا مبرر لها كسبوا مرةً وخسروا مرات ، ولكن المرأة بالذات خرجت في معظم الأحيان مهزومة تلعق المرارات ، رغم ما يبدو في الظاهر من بريق يُعشي عيون من لا يقدرون على التبصر بحقائق الأمور. دعونا نتساءل : هل بمقدور قوة في العالم أن تحقق المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة ؟

والجواب : كلا ... بطبيعة الحال ، لأن هناك في تصميم الكائنين من الفروق النوعية على كافة المستويات الجسدية والفسيولوجية والنفسية والعاطفية ما يجعل الأمر مستحيلاً. ولكن لنتصور أن الأمر تحقق ، فهل يمثل كسباً حقيقياً للإنسان ؟ والجواب مرةً أخرى : كلا !

لأن المساواة المطلقة حتى على مستوى الموقع الاجتماعي للجنس الواحد أمرٌ يناقض مفهوم العدالة من أساسه ، فليست المسألة عملية حسابية أو رياضية لكي تحقق التطابق بين المساحات أو التعادل بين الأرقام. إنها أعقد بكثير ، وأصعب بكثير ... وهي تتضمن شبكة من المنحنيات وخطوط التعارض ، التي تجعل أية محاولة لتنفيذ مساواة رقمية غير ممكنة أساساً ، وإذا ما حدث وأن اعتمدت صيغ القسر والإرغام كانت النتيجة سلباً ... كانت بمثابة دمار للإنسان وضياع لقيم العدل في أبعادها الإنسانية المعقدة ، المركبة الشاملة ... فكيف بالمساواة التامة ، أو المطلقة بين الرجل والمرأة ؟!

لا شك أن معطيات الواقع المنظور أشد ثقلاً وإلزاماً من تحليلات المذهب النظري واستنتاجاته ، وقد أكد الواقع المرة تلو الأخرى أن ما يحاوله الغربي في هذا الصدد لا يعدو أن يكون خطيئة بحق الإنسان ، ثم ما يلبث أن يجد نفسه ملزماً بالرجوع إلى المنطلقات الأساسية التي تمرد عليها واصطرع معها.

إنها واحدة من أشد الأزمات التي يعانيها المذهب الوضعي ؛ الاصطراع مع التاريخ ... إعلان الحرب على فطرة الإنسان ومؤسساته الحضارية وخبراته الأساسية وتركيبه الفذ المتفرد ، ومحاولة صياغة " إنسان " آخر ذي فطرة مغايرة وخبرات جديدة وغريبة ... وهذا لن يتأتى ولن يكون.

وفي مقابل هذا تبدو واحدة من جوانب الإعجاز والتصميم الفذ للإسلام ، إنها الوفاق مع التاريخ والإنسان ، التطابق الباهر بين العقيدة وبين صيغ الخبرة التاريخية وفطرة الإنسان.

فإذا ما حدث وأن خسر الغربيون مرةً واحدة وهم يحاولون إعادة صياغة المرأة ، فإننا هنا في عالم الإسلام سنخسر مرتين ، لأننا كمن يضحي بصيغة التوافق الصحيحة المرسومة بدقة وإعجاز ، ويستبدل بها صيغة اصطراع خاطئ قد تضيع معه المرأة المسلمة ، والرجل بطبيعة الحال.

ما لبث الوقت المتاح لي أن انتهى ، فغادرت المنصة سعيداً بما قدمته من طرح حول قضية المرأة التي تقاذفتها رياح التشريق والتغريب ... وشكرتهم على حسن اصغائهم وتقبلهم للحق ، وما ذلك إلا لأن الصحيفة التي جمعتنا للتحاور في هذا الموضوع عرفت كيف تستقطب المثقفين الجادين الذين لا يراءون ولا يمارون .... فبارك الله فيكم ، وقد تسعفنا لقاءات أخرى بقول المزيد.

(٢٥)

كان صديقي المعجب بكل ما يطلع في الغرب ، وبتفوقه المدهش ، يقول لي مردداً القول عن ضمانات الاشباع التي تحققها الحكومات الغربية لمواطنيها مأكلاً ومسكناً وملبساً وجنساً ، وكأنها الهدف الأوحد للحياة البشرية !

دعوته يوماً لوجبة غداء في مطعم (الساعة) المشهور في مدينتي الموصل قائلاً في نفسي. لا بأس أن أخسر عليه قيمة ما سيأكله من الطعام ، فلعلي اربح في المقابل ما هو أثمن من الدراهم والدنانير.

لبى الرجل الدعوة وهو لا يدري انني قد نصبت له فخاً محكماً لكي أحاول اقناعه بخطأ تصوراته عن الغرب والحياة الغربية ...

بعد أن تناولنا غداءنا ، وانتحينا جانباً من صالة المطعم الفارهة لشرب الشاي ، قلت له : آن لنا أن ندلف إلى عالم الأفكار بعد أن ملأنا بطوننا بطيبات الطعام ...

أعرب الرجل عن استعداده ، وقبل أن يبدأ بطرح كل كلائشه المكررة عن الاشباع والتنظيم في الحياة الغربية قلت له ... انني أعرف رأيك الذي طالما حدثتني به وكررته على مسامعي ، ولا أريد التكرار حرصاً على الوقت ، فهل تسمح لي بأن اطرح وجهة نظري حول الموضوع ؟

أجاب : بكل تأكيد ، فأنا ما لبيت دعوتك إلا لهذا الغرض ، فقل ما تشاء ...

أجبته :

إذا كان الالتصاق بالأرض وتنظيمها من أجل تحقيق أكبر قدر من ضمانات الإشباع مأكلاً ومسكناً وملبساً وجنساً ، هو الهدف الأوحد للحياة ، فإن النمل والنحل ودود القز ستغدو ولاشك ، أذكى المخلوقات لأنها تعرف بغريزتها – التي أودعها الله فيها – كيف تحقق هذه الضمانات بأكبر قدر من الجهد والتنظيم والإنجاز ...

ومن منا لا يعرف قدرة هذه الحشرات الثلاث على الإنتاج ، وتنظيم العمل ، والبناء ؟.

لكن الحياة البشرية ليست إشباعاً للضروريات فحسب ... إن هذه مسألة مفروغ منها ، متفق عليها بين كافة الذين يريدون معالجة هذه الحياة بشكل واقعي جاد ... إلا أنّ هنالك – أيضاً – أهدافاً أخرى وراء هذه الحدود الدنيا من الإشباع والتطمين للضروريات ... هنالك القيم ، والمُثل ، والمبادئ والعواطف ، والوجدانيات ... والأشواق ... والمطامح الدينية ، والجمالية ، والأخلاقية.

إن الروح البشري يحن دوماً إلى الإشباع هو الآخر ... والنفس البشرية تميل دوماً إلى تحقيق منازعها والاستجابة لدوافعها التي تتجاوز حدود الجنس والطعام والشراب ...

وإذا كان التنظيم المادي الذي تتفوق فيه علينا أصغر الحشرات ، لحكمة يعلمها الله !! يمثل الجانب (المدني) من الحضارات البشرية ... فإن هنالك جانباً لا يقل أهمية وخطورة ، إن لم يفقه بكثير ... ذلك هو الجانب (الثقافي) من الحضارات بكل ما يتضمنه من قيم ، ومبادئ، ومنازع تتجاوز نطاق التعامل المباشر مع التراب ...

وهذا الجانب هو الذي يمنح الحضارات لونها ، وشكلها ، ويهبها شخصيتها المستقلة ... وبذا يتنوع التاريخ البشري ... ويتألق بالتغاير والاحتكاك ...

ماذا لو جعلت الحضارات البشرية همّها الأول والأخير إنتاج مقادير أكبر من الطعام ، وبناء مجمعات سكنية أكثر ، ونسج مساحات أوسع من الملابس ، أيمكن أن يكون حينذاك تمايز حضاري على الاطلاق ؟

سيكون هناك تغاير كمي فحسب ... هذه الأمة تنتج حنطة وشعيراً أقل من تلك بنسبة خمس وثلاثين بالمئة ... وتلك الدولة تقذف إلى الأسواق بمنسوجات تفوق الدولة المجاورة بنسبة خمسين بالمئة ... وهذا الشعب يبني في السنة الواحدة عشرين مجمعاً سكنياً بينما لا ينجز جاره أكثر من ثمانية مجمعات !!

ليس ثمة تغاير أصيل في شخصية الحضارة ... في لونها وطعمها ورائحتها ، وماذا تكون قيمة التاريخ البشري لو افتقد هذا التمايز الحضاري الأصيل ؟

إن الذي ميّز الشرق عن الغرب ، والهند عن الصين ... وعالم الإسلام عن عالم أمريكة وأوربة ، ليس بمقدار ما تبنيه أو تنجزه أو تنسجه ... ولكن كيف تحب كل أمة من هذه الأمم ... كيف تصلي وتصوم وتعبد الله ... كيف تكتب أشعارها وقصائدها وفلسفاتها ، وكيف تفكر في المصير ...

إن الاهتمامات الكبيرة هي تلك التي تتجاوز شدّ الأرض وضروراتها ، على قوة هذا الشدّ وثقل هذه الضرورات وأهميتها القصوى ... تتجاوز إلى الآفاق الرحبة ، الممتدة ... التي جاءت

الأديان على وجه الخصوص لكي تقود بني آدم إليها بعد أن تحررّهم من شدّ الضرورات ، وتضع عنهم إصرهم والأغلال ...

ودون هذه الحرية التي يعطينا إياها الدين ... لن تفعل بأكثر مما تفعله دودة القز وهي تنسج الحرير ... ومجتمعات النمل وهي تخزن الغلال لأيام الشتاء ، ومماالك النحل وهي تبني خلاياها وفق هندسة معمارية غاية في الإتقان ...

نظرت إليه لأرى رد فعله ازاء تحليلي للمسألة فإذا به يبتسم ... وإذ دهش لانزعاجي من ابتسامته تلك قال كالمعتذر ، آسف أيها الزميل العزيز ، فرغم كل ما قدمته من أدلة حول الموضوع فانني من جهتي لا زلت متشبثاً بموقفي. أن الغرب يعرف كيف يتعامل مع المواطن فيحقق له الاشباع مأكلاً ومسكناً وملبساً وجنساً !

لم أشأ أن أواصل ردّي عليه ، بعد إذ رأيت تشنجه على موقفه ذاك ... وكان بمقدوري أن أمضي للحديث عن الشرائح الكبيرة المنتشرة في شرايين الحياة الغربية ، تلك التي تعاني من الجوع والعري والنوم في الشوارع والأرصفة واللجوء إلى الطرق الملتوية والمرفوضة للإشباع الجنسي ، فأنهيت الكلام قائلاً له : لو كنت أعرف أن جهدي معك لن يأتي بطائل لما كلفت نفسي بدعوتك التي استنزفت مني الكثير من المال !

(٢٦)

قال لي أحد الأخوة يوماً : ما الذي يدفعك إلى أن تشكل شبكة من العلاقات مع ذوي الاتجاهات المختلفة ، ملاحدةً وعلمانيين وأنصاف مؤمنين وأرباعهم ، وتضرب معهم المواعيد وترتب الجلسات المشتركة والدعوات المتبادلة ؟

أجبته : وماذا في ذلك ؟

قال كالمندهش : كيف أيها الأستاذ الفاضل ، كيف تضيع الساعات الطوال من وقتك ، بين الحين والحين ، مع نماذج كهؤلاء لا يرجى منهم خير ؟!

قلت : أبداً ، فان كل الخير يمكن أن يتأتى من إقامة العلاقات الوثيقة مع هؤلاء ...

أجابني مقاطعاً : كيف وأنت ترى ما هم عليه من وجهات نظر مغايرة تماماً لقناعاتك الايمانية ؟

قلت ؛ لهذا السبب بالذات آثرت أن يكون لي هذا العدد الكبير من الأصدقاء الذين تغاير أفكارهم قناعاتي التي تتحدث عنها ...

قبل أن يمضي الرجل في اعتراضه قلت له : ألم تسمع حديث الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) : **(لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها)** ؟

قال : بلى ... ولكن ما الذي ترجوه من هداية أناس لا يملكون الاستعداد مطلقاً لقبول الهداية ؟

أجبته : ومن قال ذلك ؟ إن الكثيرين منهم بعد جملة من المناقشات معهم آذنوا للحق ، وتخلوا عن قناعاتهم الملتوية تلك !

سكت الرجل ولم يحر جواباً ، وواصلت حديثي : سأضيف لك مثلاً واحداً من عشرات الأمثلة التي تحدثت عنها في هذا الكتاب الذي بين يديك ، على صدق ما أقول ...

أجابني : تفضل أيها الأستاذ فقل ما عندك لكي أحظى بالاطمئنان على مصداقية نظريتك هذه ...

قلت له : في يوم ليس ببعيد ضربت موعداً مع صديق علماني التوجه ، ولا أدري كيف جرى الحديث إلى تحليل الموقف الوسطي للإسلام من كل المسائل التي تعرض للمسلمين في العالم ... بدأ الرجل حديثه بجملة من الاتهامات المكرورة لجمود الإسلام ، ورجعيته ، وعدم انفتاحه على ما تتطلبه التحديات من مرونة وديناميكية في التعامل ... وما أن أنهى طرح تلك الكلائش التي طالما رددها العلمانيون ، حتى قلت له : أتأذن لي بخمس دقائق أو عشر من وقتك للرد على مقولتك الخاطئة هذه ؟

أجابني ببروده المعروف ، قل ما تشاء فلن يغير ذلك من رأيي شيئاً !

بدأت حواري معه بتلاوة الآية الكريمة التي تقول :

﴿ ... وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ ... ﴾(سورة آل عمران ، الآية ١٥٩).

ثم قلت :

ذلك هو الموقف الوسطي المتميز الذي يتناول القضية من جانبيها ، كما يعلمنا كتاب الله دائماً ... إنه لا يجمد على الطرف الواحد ، ولا يتأرجح دوماً بين اليمين والشمال ... ولكنه ينظر إلى كافة الأطراف ... إلى مختلف الزوايا والأوضاع ... ثم يتخذ موقفه ...

إن مأساة الفكر الوضعي تكمن دوماً في إحدى اثنتين : التجمد على الطرف أو الوضع الواحد ... والتأرجح الذي لا يستقر على طرف أو وضع ...

وفي كل مسألة من المسائل الخطيرة في حياة الجماعات البشرية يقف الإسلام وقفته الوسطية ، التي تجمع في اللحظة الواحدة بين المرونة والصرامة ... بين الانفتاح والتجدد ... بين شمولية الرؤية وواقعية القرار !!

إن القرآن الكريم يطلب من الرسول (صلى الله عليه وسلم) – ها هنا – أن ينفتح بالمشاورة على كافة الاتجاهات والآراء ، ولكنه يطلب منه في الوقت نفسه ألا يطيل التأرجح بين الآراء ويستمر – باسم الانفتاح واختبار وجهات النظر المختلفة – على التداول والتشاور ... والمسألة مسألة ستراتيجية حرب ... والزمن محسوب فيها بحساب ... فعليه إذاً أن يستكمل أطراف المعادلة ، أن يعزم ويتوكل على الله ...

المشاورة ... والعزم ... ذلكما هما طرفا المعادلة ، وسرّ الانتصارات الكبيرة التي حققتها مسيرة الإسلام الأولى في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه الراشدين ... المشاورة ... والعزم ... ولا يقف الأمر عند حدود اتخاذ القرارات العسكرية أو السياسية ... ولكنها استراتيجية حياة شاملة تنبثق عن قاعدة الإسلام الكبرى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ... ﴾ (سورة البقرة ، الآية ١٤٣).

إن إحدى جوانب مأساة أنظمة الحياة الوضعية في كل زمان ومكان ، إنها أحادية الموقف ... فها نحن في العصر الحديث نلتقي بنمطين رئيسيين للحياة : نمط الديمقراطيات الغربية ، ونمط الديكتاتوريات الشرقية أو الغربية !!

في التجربة الأولى يتجاوز التشاور والانفتاح ، وتبادل الرأي حدوده الطبيعية ... وحتى المبادئ الأساسية والاستراتيجيات الكبرى تغدو لعبة بأيدي الأحزاب تتداول فيها الآراء ، ويستمر الشد والجذب ، وتطرح وجهات النظر المتضادة ... وتتحول القضايا الخطيرة في حياة الأمة إلى مسألة تجريبية أو اختبارية قد لا يسمح الموقف بها ... فتكون العاقبة الوخيمة ...

وفي التجربة الثانية يتجاوز العزم ، ومركزية الرأي ، وصرامة اتخاذ القرار ، حدوده الطبيعية ، ويتحوّل إلى تسلط ديكتاتوري أناني قهري ، على رقاب الناس ومقدراتهم ، يسلب أمنهم وحريتهم ... وقد يكون مخطئاً ، وما أكثر ما يكون ، بسبب من انغلاقه على وجهات النظر المختلفة والآراء المتباينة ، فتكون العاقبة الوخيمة ...

وها نحن قد رأينا على مدى نصف قرن من الزمن ما حلّ ويحلّ بهذين النمطين من الحياة، من هدرٍ للطاقات ، وتضييع للوقت ، واستهانة بإنسانية الإنسان ... رأيناه في تجارب الديموقراطيات الاستعمارية الغربية ، والدكتاتوريات الستالينية ، والنازية والفاشية ... وغيرها ...

ويبقى الموقف الوسطي الذي لا يتشنج على الصيغة الواحدة والذي يحتوي (الوضع) من كافة أطرافه ... هو الموقف المنطقي العادل ...

وتبقى استراتيجية الإسلام هي الاستراتيجية التي يمكن لها دوماً أن تقود البشرية إلى برّ الحق والعدل ... والسلام ...

لم يجد الرجل أيما ثغرة يتسلل منها الطعن في تحليلي ، فالتزم الصمت ، وراح وقد تجاوز بروده ولا أباليته المعهودة ، ينصت باهتمام بالغ إلى كلامي ، بينما واصلت أنا حديثي :

ما أجمل موقف الإسلام من كل قضية ، وما أشد منطقيته مع كل مسألة ، وما أروع رؤيته المهندسة المتفردة لكل شيء ...

إنه الموقع الوسطي العادل الذي اختاره الله (سبحانه وتعالى) لهذه الأمة لحظة انتمائها لدينه القويم ، الموقع الذي يتعامل مع معطيات الكون والحياة والإنسان وفق صيغة متوازنة ، ورؤى شاملة وتحليلات موضوعية لا تنحرف ذات اليمين وذات الشمال.

لقد جاء الإسلام لكي يحقق الوفاق بين الموجودات ، والتناغم بين الإنسان والعالم والكون ، ويتوجّه بها جميعاً صوب الخلاق ، قما ثمة بد من أن تتحقق في كل جزئية من جزئيات الإسلام هذه النظرة المنطقية الطبيعية إزاء المشاكل والقضايا والمعضلات.

لقد أريد للإسلام أن يكون الإطار الأمثل لحركة الكون والحياة والعالم والإنسان ، ومن ثم كان هذا الانسجام المعجز والتناغم العميق.

وللوهلة الأولى تتبدى بعض مواقف الإسلام من هذه القضية أو تلك غامضة ، أو ناقصة ، أو متطرفة ، أو غير مقنعة على العموم ، ولكن بالتمعن في الموقف ، باختباره على مستوى التحقق الذاتي أو التاريخي ، يتبين صدقه ومنطقيته وإقناعه.

وكثيرة هي المواقف الإسلامية التي أعلنت إزاءها صيحات الرفض والتشكيك والاحتجاج ممن يجهلون البعد الحقيقي للموقف ، أو ممن يتعمدون أن يتجاهلوه ، ولكن الحركة التاريخية ، حركة الواقع البشري نفسه ، سرعان ما تكشفت عن زيف هذا الادعاء وصدق الموقف الإسلامي ... ليس هذا فحسب ، بل لترغم في الكثير من الأحيان هؤلاء (المحتجين) على الأخذ بمقولات هذا الموقف والإذعان لهندسته البارعة.

ذلك أنه موقف يتميز بالوسطية في رؤيته للظواهر وتحليله لها ، وطرحه الحلول والبرامج لمشاكلها ومعضلاتها.

ولا يذهب الظن إلى أن الموقف الوسطي يعني الحل الوسط ، أبداً ، فالموقف رفض للجنوح ذات اليمين أو ذات الشمال ، والحل الوسط قبول لتفاريق من اليمين واليسار ... أجزاء من هذا الجانب أو ذاك ... الموقف أصالة وذاتية ، والحل الوسط ترقيع وفقدان للهوية ... الموقف جوهر متفرد ، والحل الوسط مركب من عديد من المواقف.

فهو وسطي إذن بشموليته ، وموضوعيته ، وإدراكه الفذ لمطالب الحياة والإنسان ، وقدرته الفريدة على وضع الحلول المناسبة التي تنطبق على الوضع أو المعضلة انطباقاً رياضياً باهراً.

إن إيجابية هذه الوسطية تتبدى لحظة إحالتها على المحاولات الوضعية[1] لمجابهة مطالب الحياة ، إنها حينذاك تميل وتجور وتتطرف وتبتعد عن نقطة التوازن ، وتلح في البعد ، فتذهب ذات اليمين ، ثم تتوغل فيه صوب حده الأقصى ، أو تتجه ذات الشمال ثم تتوغل إلى حده الأقصى.

وفي كلتا المحاولتين تفقد المحاولة قدرتها على مجابهة كافة أطراف المعضلة ، ووضع الحل الذي ينطبق على مساحاتها وخطوطها كافة ، وتنكمش بدلاً من ذلك لكي تغطي جانباً محدوداً منها فحسب ، وهي – مع ذلك – لا تغطيه بالحل الذي يملك التركيز والإدراك ، ولكن ، في معظم الأحيان ، بالظنون والأهواء.

كثيرة جداً هي المعضلات والقضايا التي تتطلب حلولاً ، ممتدة على مساحات الزمان والمكان ، متجددة تجدد الحياة نفسها.

وإزاء كل واحدة من هذه القضايا أو المعضلات نلتقي بالوسطية الإسلامية ، ونلتقي – كذلك – بجنوح المذاهب الوضعية وفقدانها التوازن والشمولية.

قضية المرأة مثلاً ، إن المذاهب الوضعية لم تستطع أن تجد إلى الآن الصيغة المناسبة التي تضع هذا المخلوق موضعه الحق ، ومن ثم تميل بها ذلك الميل العظيم الذي حدثنا عنه كتاب الله ، وتتأرجح في أقصى حديها بين الإباحية التي تهبط بها إلى درك الحيوانية ، وبين الكبت الذي يدمر طاقاتها المبدعة ويفقدها دورها المتميز الأصيل.

أما في المنظور الإسلامي فإنها – من خلال رؤية وسطية عادلة – تأخذ مكانها الحق بما ينسجم تماماً مع تكوينها ومطالبها ؛ إنسانة ، وأنثى ، وابنة ، وأختاً ، وزوجة ، وأمّاً ، وليس هنا بطبيعة الحال مجال الدخول في التفاصيل.

في قضية الفرد والمجتمع قالت المذاهب الوضعية – ولا تزال – كلمتها في معادلتها الصعبة ؛ إما الفرد أو المجتمع ... إما الحرية أو العدل ... إما هذا أو ذاك ... أما الإسلام فإنه قدر بوسطيته على أن يلم حدي المعادلة ويعطينا الجواب المقنع الصحيح : هذا وذاك ، الفرد والمجتمع ، الحرية والعدل.

في مسالة الروح والجسد نلتقي بالمذاهب الوضعية والأديان المحرفة وهي تضرب في التيه، محلقة حيناً في سماوات الروح والمثال ، وهابطةً حيناً آخر لكي تلتصق بالجسد والتراب ... والحصاد في كل الأحوال هو دمار الإنسان وعدم قدرته على التحقق بالوئام والانسجام ، أما

---

(١) المقصود هنا المعنى اللغوي لا الاصطلاحي للكلمة.

الإسلام فإنه يتفرد من بين سائر المذاهب والأديان ، ويقدر في الوقت نفسه ومن خلال رؤيته الوسطية المتكاملة أن يمنح الإنسان انسجامه ووئامه ، وأن يتجاوز به مأساة التمزق والازدواج.

وما يقال عن هذا يمكن أن يقال عن قضايا أخرى كثيرة ، الطبيعة والغيب ، الثبات والتطور ، الدين والعلم ، الأرض والسماء ، القدر والحرية ، الدنيا والآخرة ، وغيرها خط طويل من الثنائيات أو التقابلات التي أقامت المذاهب الوضعية بينها سداً ، فعزلت بعضها عن بضع وقطعت عليها طريق التواصل والالتحام ، وجاء الإسلام لكي يقودها بوسطيته الشمولية إلى التوحد واللقاء.

وتكون النتيجة ليست سعادة الإنسان وإئتمانه الذاتي فحسب ، ولكن منحه قدرةً أكبر على الفاعلية والإنجاز.

إن الموقع الوسطي الذي اختاره الإسلام ليس مكاناً جغرافياً محدداً ، ولكنه استشراف وشمول واستراتيجية عمل ، وقدرةً فذة على تحقيق الوفاق والانسجام بين كافة الثنائيات ، الأمر الذي يمنح المسلمين مركز التفوق والصدارة ، ويمكنهم من قيادة الأمم والشعوب : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...﴾(سورة البقرة ، الآية ١٤٣).

حدقت طويلاً في نظرات الرجل لكي أتبين رد فعله ازاء طرحي هذا فإذا به يقول : الحق أن هنالك في هذا الدين الكثير الكثير من الجوانب المضيئة التي لا يصل إليها إلا أولئك المخلصون في البحث عن الحقيقة. وها قد تبيّنت لي ، في ضوء تحليلك للمسألة ، بعض تلك الجوانب ، ولسوف أغير موقفي السابق من هذا الدين بزاوية مائة وثمانين درجة ، وانقلب على قناعاتي السابقة ، وأبدأ مثلك في البحث عن هذه الجوانب المضيئة ، فمن يدري فقد يأتي اليوم الذي أتجاوز فيه شكوكي ومبادئي العلمانية وأتحوّل إلى الخط الإسلامي ؟!

قلت له وأنا أشد على يديه مودّعاً : لقد جاء هذا اليوم أيها الأخ والصديق ... والتفت إلى أخي الذي اعترض على تشكيل العلاقات مع العناصر التي تكيد لهذا الدين قائلاً : هذه حالة واحدة من بين عشرات غيرها من الحالات التي ساقتني فيها إرادة الله وحده (جلّ في علاه) إلى هداية العديد من الملاحدة والعلمانيين فالحمد لله !!

(٢٧)

جمعتني إحدى المناسبات بصديق قديم ... ورحنا نتجاذب أطراف الحديث ريثما يحين موعد تناول العشاء ... وتذكرنا المناقشات الحامية التي كانت تشتعل بيننا لسبب أو آخر قبل أكثر من عشرين سنة يوم كانت جمرات الصبا والشباب تحرقنا بنارها اللذيذة ، فكان شررها يتطاير في كل ما نقوم به ونمارسه ... وكان لمناقشاتنا نصيبٌ من الشرر المتطاير كرشاش الماء !!

قلت : لا أعتقد أننا الآن سنشعل ناراً ... فالفكر الجاد هو الذي يضيئ ... ولكن ...

قال مقاطعاً : ولكن ماذا ؟

أجبت : إذا اقتضى الأمر فانه يتوجب عليه أن يحرق ... ولن يستطيع أحد يومها أن يفصل بين النور والنار ...

قال مبتسماً : أرجو ألاّ يصيبني الحريق ، أنا على الأقل.

قلت : لن يصيبك بإذن الله ، ما دمت قد انتزعت من نفسك كل ما يمكن أن يكون وقوداً للنار ...

ما لبث أن راح ينشد باحثاً عن مكان ما من المنضدة يمارس عليه الايقاع بيده :

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء ...

وأنت تريد أن تخلّصني من الحريق ... والوقود قد وضعه الله (عزّ وجل) في كياني مذ أمر بخلقي ...

قلت : ها قد عد إلى (بيتك) المفضل القديم ... أتراك لا تزال تعزف عليه ؟

قال : وسأظل حتى أجد البيّنة التي تمنحني القناعة ...

سألته : أتراك قرأت كتاب الله مرةً واحدةً في حياتك ببصيرتك لا بعينيك ... لن انتظر جوابك المعهود فأنا متيقن من أنك لم تفعل ... وعشرات ... بل مئات غيرك ، لم يفعلوا ... ولذا فهم يترنمون دوماً بأبيات كهذه يبّررون بها عجزهم وقصورهم !! إنك لو قرأت كتاب الله بعقل مفتوح فانك ستجد أن معظم آياته تؤكد على الموقف التالي : إن الله (سبحانه وتعالى) لا يطبع على قلب إنسان ويختم على مصيره بالكفر أو الايمان إلاّ بعد علم مسبق بتكوين هذا القلب وطبيعة نبضه كماً ونوعاً وهذا التكوين المسبق ليس أمراً مجبراً عليه الإنسان ، بل هو ثمرة اختياره الحرّ المتأثر بظروفه البيئية والوراثية ... ومن ثم فان اصرار القرآن الكريم على أن يكون المجتمع المسلم خاصةً ، أو أي مجتمع مؤمن عامة ، ملتزماً ايجابيته العقائدية وموقفه الايماني الحركي الصحيح ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وإقامة لحكم الله (سبحانه وتعالى) في

الأرض معناه السعي الجاد لإيجاد البيئة والأرضية والمناخ التي تتيح لأكبر عدد ممكن من الناس والجماعات أن تتفتح قلوبهم للحب والايمان والخير ، وأن تمتلك أفئدتهم القدرة على التعامل الفعّال مع شريعة الله (جلّ في علاه) ، لكي يصوغوا وجودهم ومصيرهم بما يطمح إليه ويتمناه كل إنسان ... ألم تقرأ هذه الآيات ؟

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾(سورة الإسراء ، الآية ٨٤) ، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾(سورة الإسراء ، الآية ٧٢) ، ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (سورة الإسراء ، الآية ١٥) ، ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾(سورة الزمر ، الآية ٧٠) ، ﴿ ... وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ... ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٦٤) ، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾(سورة الإنسان ، الآية ٣) ، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴿ ٣٩ ﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴿ ٤٠ ﴾ (سورة النجم ، الآيتان ٣٩-٤٠).

وإذْ أنست في إنصاته متابعة واهتماماً واصلت حديثي قائلاً : لقد منحتنا الرؤية القرآنية أفضل مركز في الكون وأعطتنا مكان السيادة على العالمين ، وفضلتنا على كثير من خلق الله تفضيلاً ... ومن خلال هذا المركز والمكانة والتفضيل منحنا حرية للاختيار والفعل لم تمنح لأحد من العالمين ، وجاءت على درجة من الامتداد والتوغل والانتشار بحيث تغطي تغطية كاملة الوجود البشري الحرّ لأي واحدٍ منا كإنسان فرد ، ولأية جماعة في التاريخ كوحدة تشدها قيم ومبادئ وأهداف ... ولقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع ، هذه الحرية ، وقدم عشرات النماذج الواقعية لمجالها الواسع على المستويين الفردي والجماعي ... ولكنه كان ينبهنا دائماً ، كي لا يفلت الخيط من أيدينا وتتحول مواقفنا التاريخية إلى درامات كلاسيكية مصطنعة وصراع (دون كيشوتي) لا مبرر له ، كان ينبهنا دائماً إلى أن حريتنا الكاملة المنطبقة انطباقاً هندسياً باهراً مع وجودنا أفراداً وجماعات ، ما هي إلا دوائر تعمل بتوازن وتناغم وتداخل ضمن الدائرة الأكبر التي يرسمها علم الله (جلّ في علاه) الشامل وتحيط بها إرادته التي لا يصدّها شيء ... ويعود فيؤكد لنا مراراً أن النتائج النهائية للفعل البشري – الفردي والجماعي – تجيئ منبثقة ، بمنطق عادل لا يعرف زيفاً أو التواءً عن أفعالنا ، تحمل طبيعتها وتكوينها وملامحها وتتغذى بعجينتها التي جبلناها نحن ، وتشرب من شرايينها التي سهرنا على مدّها بالدماء النقية الحمراء أو الكالحة الزرقاء التي تسودّ وتسودّ حتى لتكاد تحترق فتكون دخاناً !!

ويجب ألا يخطر على بالك أن القرآن الكريم يبقي مسألة القدر والحرية في نطاق ... الإنسان الفرد ولا يخرج بها عن دائرة التأويلات والزوايا الفلسفية والنفسية والأخلاقية. ذلك أننا نلتقي ، إلى جانب الآيات التي تحكي عن المستوى الفردي ، بعشرات من الآيات والمقاطع القرآنية التي تنتقل إلى المستوى الجماعي وتعرض المسألة في صيغها التاريخية والحضارية ... وهي – كعادة المنهج القرآني الذي يرفض التجزئة والانفصالية – تربط دوماً بين الأرض والسماء وتتخذها مسرحاً ذا خشبة واحدة عريضة تتحرك عليها الجماعات البشرية لتؤدي دورها ولتكافأ على هذا الدور بما يوازي حجمه ويتلاءم مع جنسه ، هنا في الأرض أولاً ، ثم هناك في السماء فيما بعد ...

قاطعني قائلاً : ولكني أريد أن اسمع شيئاً من شواهدك القرآنية لكي اطمئن إلى صدق استنتاجاتك ...

أجبته : هنالك العديد من النماذج القرآنية تطرح علينا المسألة وفق أكثر الزوايا موضوعية وأشدّ المواقف عدلاً وتماسكاً ، وأوسع الرؤى توغلاً في صميم التجربة البشرية ، وهاك بعضاً منها: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴿١١٣﴾ (سورة النحل ، الآيتان ١١٢-١١٣) ، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾(سورة الأعراف ، الآية ٩٦)، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴿٦٦﴾ (سورة المائدة ، الآيتان ٦٥-٦٦) ، ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾(سورة هود ، الآية ٥٢) ، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾(سورة النحل ، الآية ٤١) ، ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً ﴾(سورة الجن ، الآية ١٦)، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾(سورة غافر ، الآية ٥١) ، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(سورة البقرة ، الآية ١٣٤).

إننا نرى بوضوح من خلال هذه النماذج القرآنية – وغيرها كثير – كيف أن أية جماعة أو أمة انما هي مسؤولة عن فعلها فحسب ، إذ ليس من العدل أن تحمّل نتائج أفعال غيرها من الجماعات ، يفصلها عنها الزمن أو المكان ، كما نرى كيف تكافأ الجماعة الواحدة بجزاء يستمد عجينته من بنية التجربة التي تمارسها هذه الجماعة إن خيراً أو شراً ... ومن ثم تجيئ رحمة الله أو يجيئ ختمه على القلوب والأسماع والأبصار ... إن الله (عزّ وجل) يمنح نعمه التي تنزل وفق النواميس الطبيعية بالقسطاس على الأمم والشعوب ، إلاّ أن الجماعة التي تسيئ التصرّف ، وتطغى وتتجبّر ويسوقها الطغيان والجبروت إلى الكفر والمروق والتمرّد على النظام الكوني ومبدعه ، فان العقاب في الانتظار. وإننا لنلمح في أكثر من آية موقعاً مغايراً تماماً لما عودتنا عليه الرؤى الغربية منذ عهد (أسخيلوس) و(سوفوكليس) وحتى (يونسكو) و(كامي) و(بكت) ... موقف التعاطف بين الله (جلّ في علاه) والإنسان وغفران الله لكل ما من شأنه أن يصدر عن ضعف الإنسان وعجلته وأخطائه غير المتعمدة ، ونسيانه ... ودعوة الإنسان لخالقه ألاّ يحمله في حياته الدنيا أكثر من طاقته !!

وفي آيات أخرى نجد تأكيداً دائماً على استمرارية الجزاء على الفعل وتواصله في الأرض والسماء ، وثمة آيات عديدة تبين لنا أن من يرد (لاحظ فعل الإرادة) ثواب الدنيا فله ذلك ومن يرد ثواب الآخرة فلن يصده عن هدفه شيء ... وكثيراً ما تنتهي الآيات القرآنية الكريمة في هذا المجال بعبارة : ﴿ ... بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(سورة النحل ، الآية ١١٢) كما نلتقي بالأفعال البشرية : (اذهبتم) (استمتعتم) واضحة في نسبتها إلى الإرادة الحرّة ، الأمر الذي يجعل الجزاء عادلاً ازاء جماعة أذهبت بإرادتها طيباتها واستمتعت بها بغير الحقّ. وما أكثر ما كانت دعوات الأنبياء والمرسلين للجماعات البشرية تجيئ لكي تناديهم أن (يختاروا) طريق الايمان لكي يحظوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وما كان لأي من هؤلاء المرسلين أن يلزمهم إلزاماً بالانتماء إلى دعوته إذ : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾(سورة البقرة ، الآية ٢٥٦) بعد أن ﴿ ... تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴾(سورة البقرة ، الآية ٢٥٦) ...

إن الله (سبحانه وتعالى) ما كان ليضرب جماعة ما ، أو أحداً من عباده ، قبل أن يبعث إليهم بالنذير ، ويدلّهم على الطريق ، ويعطيهم الفرصة لكي يختاروا بملء إرادتهم أن ينتموا للحق ، أو تسوقهم الشهوات إلى التشبث بمواقع الباطل حيث يحق العقاب كجزء من خطة العدل الإلهي الشاملة في سياسة الكون كله ...

قال : إن هذا يبدو مغايراً في جوهره للصيغ التي طرحها الغربيون منذ عهد اليونان وحتى القرن العشرين عن العلاقة بين الله (سبحانه وتعالى) وعباده ...

أجبته : بالضبط ... إن القدر في تصورهم ضربةً مفاجئة تجيئ على حين غفلة لكي تقصم ظهر الإنسان ، ودعابة درامية ثقيلة ومحزنة تصور الآلهة وهم يرسمون الخطط الخبيثة لإيقاع العباد في الشباك التي نصبت بمهارة ... إن الصورة القرآنية الجميلة تكتسح في طريقها هذا الغثاء ، لكي تعيد صيغة العلاقة بين الناس وأقدارهم إلى موقعها الإنساني ، المنطقي ، العادل : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴿١٨﴾ (سورة الأنبياء ، الآية ١٦-١٧).

هنالك ما هو أكثر من هذا ، إن القرآن الكريم يبين لنا بوضوح أن الله (سبحانه وتعالى) وضع الحجة والبرهان في قلب كل واحد منا ، وركز الدلالة إليه في فطرة كل إنسان لحظة بعثه إلى الحياة ، ومن ثم حمله المسؤولية ، وفق هذا الامتداد الباطني ، في أن يختار – بإرادته – الطريق الذي يقوده إلى الله (جلّ في علاه) ، انسجاماً مع تكوينه الذاتي ومعطياته الفطرية الأساسية ... وبهذا يؤكد الإسلام موقفه الإنساني المفتوح ورفضه التام للقدرية التراجيدية القائمة على الغشم والمفاجأة ... هذا التأكيد الذي يجيئ وفق تحذيرات وإشارات تنبثق من داخل كل إنسان كشهادة حرة – ابتداء – ثم تصدر إليه مرةً أخرى من الخارج عن طريق رسل الله .. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴿١٧٣﴾ (سورة الأعراف ، الآيتان ١٧٢-١٧٣).

ورأيت شيئاً غير قليل من ملامح الاقتناع والرضا تكسو وجهه وسمعته يرتل مع نفسه : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(سورة الروم ، الآية ٣٠).

قلت له وأنا أتقدمه إلى غرفة الطعام : ها أنت ذا تذكرني بالشاهد الآخر الذي غاب عن ذاكرتي ... وسيجيئ اليوم الذي اتعلم فيه منك ... فالذين يرحلون من محطات الشك إلى مواقع اليقين يعرفون – أكثر – كيف يعلّمون الآخرين ...

(٢٨)

كان القطار الذاهب من حلب إلى بيروت ينهب بنا السهول المنبسطة المترعة بالخضرة الفاقعة ، وأشار بيده عبر النافذة إلى حصن قديم يقف بأطلاله على مرتفع من الأرض وقال : إنه واحد من شواهد التاريخ الكثيرة المنتشرة في المنطقة ... ها هنا أدار الزمن صراعاً بين المسلمين وبين الغزاة الصليبيين بلغ ما يقرب من القرنين.

قلت ، وأنا أجاهد لكي أركز أبصاري بالحصن القديم : من كان يتصوّر – يومها – أن الصراع سوف يستغرق هذا المدى الطويل ؟ من كان يصدّق أن الغزاة بعد أن ثبتّوا أقدامهم هنا عشرات السنين ، سيضطرون للرحيل ، وترجع الأرض إلى أصحابها ... ؟

قال ، وملامح الأمل ترتسم على وجهه : ان تقادم الزمن على إسرائيل لا يعني شيئاً ، فها هي ذي عبرة التاريخ ... وراح يتلو : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴿ ١٣٧ ﴾ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴿ ١٣٨ ﴾ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿ ١٣٩ ﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿ ١٤٠ ﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴿ ١٤١ ﴾ (سورة آل عمران ، الآيات ١٣٧-١٤١)

ووجدتها فرصةً طيبةً لكي أسأله عن الموضوع الذي ظل يلّح على ذهني ردحاً طويلاً ... إن القرآن الكريم يفرش مساحات واسعة من سوره وآياته للقصة التاريخية ... وإن المرء ليتساءل عن الأسباب والدوافع التي تكمن وراء هذا الاهتمام المتزايد على مدى القرآن كله ...

قال : إنها الدوافع التي تكمن وراء أية مطالعة جادة ذكية واعيةً للتاريخ : إثارة الفكر البشري ودفعه إلى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق ... تقديم خلاصات مركزة للتجارب البشرية عبراً يسير على هديها أولو الألباب ... إزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة لكي تظل في مقدمة قوّاه الفعّالة التي هو بأمسّ الحاجة إلى تفجير طاقاتها دوماً وهو يواصل الكفاح في عالم يرفض الذين يعانون الغفلة والكسل الذهني والتواكل واليأس والنسيان ... تقديم الدليل على علم الله (سبحانه وتعالى) الواسع الذي أحاط بحركة التاريخ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ... ثم تأكيد البرهان على الحق الواحد الذي جاء به الأنبياء السابقون جميعاً وسعوا إلى أن يقودوا أممهم إلى مصدره الواحد الذي لا إله إلا هو : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(سورة هود ، الآية ١٢٠) ، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ... ﴾(سورة يوسف ، الآية

١١١)، ﴿ . . . فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(سورة الأعراف ، الآية ١٧٦) ، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾(سورة الأنبياء، الآية ٢٤) ، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾(سورة البقرة ، الآية ٢١٤).

قاطعته متسائلاً : هذا عن الأسباب الأساسية لا يراد القصص والوقائع التاريخية في هذه المساحات الواسعة من القرآن الكريم. ولكن ماذا عن النتائج النهائية المتمخضة عن دراسة حركة التاريخ البشري والتمعن في وقائعه وأحداثه ؟

أجاب ، وهو يشير بإعجاب إلى بسيط من الأرض تفجّر في خضرته الريانة مهرجان من الألوان منحته حركة القطار السريعة تداخلاً يثير الوجدان : إن القرآن الكريم يطرح علينا لأول مرة مسألة السنن والنواميس التي تسيّر حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ ، وعبر مسالكها المقنّنة التي ليس إلى الخروج عليها سبيل ، لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقاً وفكراً وعواطف ووجداناً ، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة الجغرافية أو الوضع الاقتصادي لكي تتسّع للفعل التاريخي نفسه ، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلباً وايجاباً.

وهكذا ، فان حكمها على هذه الحركة يجيئ منطقياً تماماً لأنه أشبه بالجزاء الذي هو من جنس العمل ، ومن خامته الأصيلة ، وعادلاً تماماً لأنه يكافئ الإنسان ، فرداً وجماعةً ، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسوه ، حتى لكأن القرآن الكريم يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نبني على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية ، سلفاً ، نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها العضوي بمقدماتها اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها ... وعلى العكس ، فان أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن سوف يؤول إلى تميّع الحركة التاريخية وعدم انضباطها جزائياً ، وبالتالي سيؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل ... ومن أجل أن نطمئن يبين لنا القرآن الكريم في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها أو تحولها ... إنها موجودة أساساً في صميم التركيب الكوني وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم ... ولم يفعل القرآن الكريم سوى أن كشف عنها النقاب وأكّد وجودها وثقلها في

حركة التاريخ. هذا في وقت ظل فيه المؤرخون والمفكرون عامة يتخبطون في دراساتهم ومعطياتهم التاريخية لأنهم – حتى القرن الماضي – لم يستطيعوا أن يصلوا إلى هذه السنن التي تحكم حركة التاريخ ويطمئنوا إليها ، ويجروا تحليلاتهم وتفكيرهم وفق مؤشراتها ودلالاتها ... ولم يحدث إلا أخيراً ، وفي القرن الماضي ، أن اكتشف كبار رجالات الفكر الأوروبي ناموسية الحركة التاريخية ، هذا إذا استثنينا بطبيعة الحال (ابن خلدون) الذي سبقهم بخمسة قرون ، ولكنهم سلطوا عليها معاييرهم النسبية ومقاييسهم الجزئية فجاءت انعكاساً صارماً لفكرة ما أو اعتقاد مذهبي محدّد ...

أما في القرآن الكريم فان هذه السنن والنواميس لا تتحدّد ولا تأسر نفسها بتفاصيل وجزئيات موقوتة ، بل تمتد ، مرنة منفتحة شاملة ، لكي تضم أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات وتبقى دائماً بمثابة الحصيلة النهائية ، والرموز المكثفة ، والدلالات الكبرى لحركة التاريخ. إنها تريد أن تقول لنا – باختصار وتركيز بالغين – أن حركة اي جماعة في التاريخ ليست اعتباطية ، وأنها ، بما قد ركّب فيها من قوى العقل والروح والإرادة – خلافاً لما هو سائد في العوالم غير البشرية – مسؤولة مسؤولية كاملة خلال حركتها تلك ، حيث ينتفي العبث واللاجدوى ، وحيث تتحرك الحرية من شكلها المهوّش المتميّع الغامض ، إلى عمل مدرك مخطط يقف به الإنسان بمواجهة الله (جلّ في علاه) والعالم لكي يحقق اعماره ورقيّه وتقدمه ، وفق ما يجيئ به انبياء الله (سبحانه وتعالى) ، حيناً بعد حين ، من تعاليم وخطط تأخذ بيد الجماعة البشرية في هذا الطريق ... وحيثما انتفت هذه العلاقة الايجابية بين الإنسان والله والعالم ، وأسيئ استخدام الحرية ، وضاعت المسؤولية ، وانعدم التخطيط المدرك الواعي ، وتميعت القيم الأخلاقية المنبثقة عن قوى العقل والروح والإرادة ... جاء الجزاء الموازي لجنس العمل ، وآل الأمر بالجماعة البشرية إلى التدهور والتفتت والانهيار : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾(سورة الإسراء ، الآية ٧٧) ، ﴿ ... فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(سورة فاطر ، الآية ٤٣) ، ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴿٢٣﴾ (سورة الفتح، الآيتان ٢٢-٢٣).

إن كتاب الله لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ، ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المدركة الملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار ، وأن تحسن التعامل مع قوى الكون والطبيعة ، مستمدةً

التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه وبهذا يتجاوز التاريخ في القرآن الكريم أطره النظرية ، أو القصصية الفنية ، أو الأكاديمية ، إلى حركة وبحث وجهد وابداع تجيئ دائماً لخدمة المعاصرة وللسير نحو المستقبل بفهم أعمق وإلمام أكبر بسنن التاريخ. ومن ثم نلتقي بآيات الله (جلّ في علاه) وهي تطلب من أية جماعة معاصرة أن تسير في الأرض لكي تنظر لا أن تنظر فحسب، بل أن تتعلم من هذا السير (السنن) التي حاقت بالذين خلوا من قبل من أجل بناء عالم لا تدمره تجارب الخطأ والصواب التي دمرت أمماً وجماعات وشعوباً :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (سورة محمد ، الآية ١٠) ، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الأنعام ، الآية ٣٤) ، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ (سورة الروم ، الآية ٤٢) ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (سورة النحل ، الآية ٣٦).

وسألته عن المردود النهائي لهذا كله.

فقال : أترى إلى حركة هذا القطار ؟ إن بداياتها الأولى قد أصبحت ماضٍ بالنسبة لنا جميعاً ... وذلك الجدول الصغير الذي سنجتازه عما قريب سيفقد بعده المستقبلي ويتحول إلى حدث ماضٍ ... إن القرآن الكريم يعرض علينا الحركة التاريخية من خلال هذا المنظور ... التوجه الدائم صوب المستقبل ، إذ ليس ثمة سكون في مكان ما على الاطلاق ... إنه التيار الذي تتدفق مياهه فتختلط فلا يكاد أحد يميّز ، وهي تصبّ في البحر ، ماءها القادم من المنابع البعيدة من ذلك الذي أرفدها وهي تقترب من البحر ... ألم تسمع مقولة (كروتشة) الفيلسوف الايطالي ، وأحد رواد فلسفة التاريخ في العصر الحديث ؟

أجبته : أليست هي قوله : إن التاريخ كله تاريخ معاصر ؟

قال : بالضبط ... فلنرجع إلى القرآن الكريم لكي نجده يؤكد في أكثر من موضع على أن النظر والبحث والتجوال في تاريخ البشرية ، انما هو جهد ايجابي لن يكون مردوده إلاّ على الحاضر والمستقبل ، ولن يفيد منه إلا الذين يشحذون كافة حواسهم وقدراتهم العقلية لكي يستخلصوا المعنى والمغزى ويسيروا على هداهما : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ

بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴿٤٦﴾ (سورة الحج ، الآيتان ٤٥-٤٦) ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴿٥﴾ (سورة القمر ، الآيتان ٤-٥) ، ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴿١٢﴾ (سورة الحاقة ، الآيتان ١١-١٢) ، ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(سورة النور ، الآية ٣٤).

ويبلغ من تأكيد القرآن الكريم على ايجابية البحث التاريخي واتساعه وشموله أن يسعى إلى مدّه إلى ما وراء التجارب البشرية الأولى على الأرض ... إلى بدء الخلق وحجر الزاوية على المستويين الجيولوجي والبيولوجي بما يتيح للإنسان رؤية أنفذ لقدرة الله المبدعة ، ولسننه الدائمة التي رافقت مجرى التاريخ ، منذ تكويناته الأولى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٢٠﴾ (سورة العنكبوت ، الآيتان ١٩-٢٠).

وعبر عدد من المواضع يؤكد القرآن الكريم على أن سنن الله في التاريخ ثابتة ماضية إزاء الجماعات البشرية التي تتنكب عن الطريق ، بغض النظر عن حجم هذه الجماعة وعن مدى دورها الحضاري ومقدار منجزاتها المادية والأدبية في مقاييس الكم ومعايير المساحات والأحجام ... فدائماً يكمن وراء هذه المعايير والمساحات ، المقياس الحقيقي والمؤشر النهائي اللذين نستطيع بالتمعن فيهما أن نحكم على مسيرة الجماعة وعلى مصيرها السعيد أو المفجع. إن وراء العطاء والتعامل الحضاري شيئاً أكبر واخطر وأشد تأثيراً على المصير ، إنه (نفسيّة) الأمة ، أفراداً وجماعات ، وأخلاقيتها ، ونظرتها الشاملة إلى الحياة ، وطبيعة علاقاتها الإنسانية ، والمواقع التي تتخذها بمواجهة الله (جلّ في علاه) والعالم :

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾(سورة محمد ، الآية ١٣) ، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(سورة الروم ، الآية ٩) ، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ﴾(سورة مريم ، الآية ٧٤) ، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ...﴾ (سورة القصص ، الآية ٧٨) ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(سورة غافر ، الآية ٨٢).

وإذ كان القطار ينطلق على الخط الساحلي حتى ليوشك أن ينزلق إلى البحر ، كانت بيروت ترتسم في الأفق لكي ما تلبث أن تضيع في الضباب ... وكان صوت محدثي المترع بالدفء والايمان يمنح الحوار متعةً وحلاوةً ... وكنت أتمنى أن يطول الحديث ولكن وصولنا إلى المدينة اضطرنا إلى التوقف ريثما نبحث عن سيارة تنطلق بنا إلى مصيفنا الأثير ... (بحمدون) !!

(٢٩)

عندما كنت طالباً في قسم التاريخ في مطلع الستينيات ... كان أستاذ علم الاجتماع ، لسبب ما ، يسعى ، في كل محاضرة من محاضراته إلى تأكيد مسالة أن القرآن الكريم جاء لكي يطلب من الناس أن يضعوا السلاح ازاء السلطات التي تحكمهم ، وإلى ضرورة طاعة أولي الأمر منهم وإلاّ خرجوا من حظيرة الايمان ... وكان يقتطع بعض الشواهد القرآنية لكي يؤكد وجهة نظره ... وفي كل مرة كان يتلو الآيات مضيفاً إليها ، أو منتقصاً منها ... وعندما يتحول إلى كتب الفقه كان يقف طويلاً عند (الخراج) لأبي يوسف ويقول : ها هو ذا يؤلف كتابه للخليفة هارون الرشيد ويدعو الناس كافة إلى الطاعة وإلاّ مرقوا عن الدين كما يمرق السهم عن منزعه ...

وكان هدفه من وراء هذا كله أن يصوّر الإسلام كما لو كان ديناً سلبياً يخلق جماعات ممن اعتادوا لوي رؤوسهم لكل سلطة ، وانعدمت في نفوسهم أية قدرة على الرفض والمجابهة ... كان يريد أن يقول – بشكل غير مباشر – ان الإسلام هو دين السلطات تبرّر به طغيانها ، حتى إذا ما حاول أحد الوقوف بوجهها أتهم بالكفر والمروق وأخرج من حظيرة الايمان فأصبح شريداً منفياً ليس له من ملجأ يأوي إليه ، فيضطر للعودة ثانيةً لتقديم الولاء وممارسة تقاليد العبودية ...

وكنت أحاول أن أردّ عليه ، الا أن ضيق الوقت الذي كان يمنحني إياه ، وضعف قدرتي على الرؤية الشمولية يومها ، لم يمكناني من دحض افتراءاته كافة ... وفي اللحظة التي كان يشعر فيها بالحرج كان يستخدم سلطته كأستاذ لإرغامي على السكوت بشكل أو آخر ...

ومرّت على ذلك أعوام طويلة ، عقدان من الزمن ، ووجدتني أتذكر يوماً وأنا استمع إلى أحد المرتلين يتلو: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(سورة آل عمران ، الآية ١٣٢).

محاضرات الأستاذ إياه وتأكيده المستمر على استسلامية المسلم ازاء السلطات ... فقررت أن ارجع إلى القرآن الكريم نفسه ... ان اقرأه مرةً ومرتين وثلاثاً لمتابعة موقفه من هذه المسألة

الخطيرة : العلاقة بين الحاكم والحاكم ... وإذا بي في ختام الرحلة أجد المعطيات القرآنية تخالف تماماً ما ذهب إليه الأستاذ.

إن القرآن الكريم ، كما يتضح من السياق العام ، لا يعلّق المسؤولية على الزعامات الجائرة فحسب ، وهي تمارس غرورها وترفها وطغيانها وأخلاقياتها الهابطة ، انما هي القواعد التي أعانتها في البدء على الوصول ، وهي تعينها الآن بتأييدها المعلن أو الضمني ، المادي أو الأدبي ، الفكري أو الأخلاقي ، أو بسكوتها على الأقل على مواصلة المسير بالجماعة صوب البوار ... ومن ثم يصدر القرآن الكريم تحذيراته إلى هذه القواعد من أن يتبلّد وعيها ، ويتجّمد حسها الجماعي فتنساق في مجرى الطاعة والاندماج في مسار السلطة حيث لا تستطيع حتى أن تقول (لا) بل انها – أكثر من ذلك – تقرّ في سرائرها هذا الطغيان الذي تمارسه السلطة ، ولا تستطيع أن تجد في نفسها أي مبرّر للرفض أو المقاومة.

وهكذا تجد الجماعة نفسها وقد غفلت عن أهدافها وقيمها ومطامحها لأنها لم تدع مسافة كافية بينها وبين السلطة للرؤية والنقد والتمحيص والرفض والمقاومة ، بل اقتربت منها رغباً ورهباً واندمجت بها وأصبح من المحتم أن تتحمل معها المسؤولية حتى لو لم تحصل باندماجها هذا إلاّ على الفتات ... أو الاحتقار والازدراء ...

إن القرآن الكريم يبيّن لنا ، بأسلوب ينضح سخرية واحتقاراً ، شكوى هذه القواعد التي دانت بالطاعة الاختيارية لحكامها وطواغيتها : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴿٦٨﴾ (سورة الأحزاب ، الآيتان ٦٧–٦٨). وهنالك آيات ومقاطع أخرى كثيرة يدور فيها الحوار على هذا النسق بين التابعين والمتبوعين يمكن أن نجدها في إطار المشاهد التي يعرضها القرآن الكريم عن القيامة : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴿١٦٧﴾ (سورة البقرة ، الآيتان ١٦٦–١٦٧)، ﴿ وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٢٢﴾ (سورة البقرة ، الآيتان ٢١–٢٢).

ما الذي يطلبه القرآن الكريم من القواعد كيلا تلعب عليها وبها الزعامات الطاغية والطبقات المترفة ؟

إنه – في البداية – يطلب منهم جميعاً أن (يتحركوا) ، أن يردوا على الظلم ، أن يرفضوا الانتماء إليه ، أو قبوله كمسلّمة لا تقبل نقضاً ولا جدلاً ... إن بمقدورهم كذلك لن يغادروا المواقع التي يسود فيها الطغيان لكي لا يسهموا في الجريمة ، بشكل أو بآخر ، يغادروها إلى أي مكان فأرض الله واسعة ... وليس معنى هذا دفعهم إلى الفرار ... أبداً ... انما هو فكّهم من هذا الاندماج المخزي بالسلطة ، وابعادهم عن هذا الالتصاق المذّل بمواقع الطغيان ، فإذا ما تمكنوا أن يحدثوا بحركتهم فاصلاً بينهم وبينها تمكنوا آنذاك من رؤية الموقف على حقيقته ، حتى لو دفعتهم حركتهم إلى الهجرة إلى أقصى الأرض لأنهم سوف لا يلبثون أن يكّروا عائدين ، مسلّحين هذه المرة بالوعي والقوة لكي يستأصلوا شأفة الظالمين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ (سورة النساء ، الآيتان ٩٧–٩٨).

وفي أية أخرى ينعى القرآن الكريم أولئك الذين آثروا السكون على الحركة واختاروا الالتصاق بالظلم والعمل تحت يديه ، على رفضه والانشقاق عليه : ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾(سورة إبراهيم ، الآية ٤٥) وفي آية ثالثة يبرز هدف هذه الهجرة (الحركية) التي يدعو لها القرآن الكريم واضحاً نقياً : إن الإنسان المؤمن يجب ألا يعبد إلاّ الله (جلّ في علاه) ... هذا هو دوره الحقيقي في العالم ، بل هذا هو مبرّر وجوده في الكون ... وعبادة الله (جلّ في علاه) – كما هو واضح – ليس في أن نتصل به في شعائرنا اليومية أو الموسمية فحسب ، بل أن نرتبط به في كل فاعليات حياتنا ، وأن نتوجه إليه في كل خطوات وجودنا الداخلي ، والا نأخذ إلا منه ، ولا ننتمي ونخضع إلاّ له ... فإذا ما سعت القيادات الجاهلية الطاغية أن تزيّف هذا الدور البشري الأصيل فتصدّ القواعد المؤمنة عن التوجه إلى خالقها توجهاً سليماً كاملاً أصيلاً ، من أجل أن تلتصق بها وتمارس خدمتها ، فان على هذه القواعد أن ترفض: ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(سورة الأعراف ، الآية ٣) وأن عليها أن تتحرك وتهاجر إذا اقتضى الأمر: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾(سورة العنكبوت ، الآية ٥٦).

الهجرة التي تعقب عودة واعية مسلّحة إلى مناطق الطغيان لوقفه قبل أن يقود بقية الناس إلى الدمار : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾(سورة التوبة، الآية ١٤). وتبدو هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) – ها هنا – مصداقاً تاريخياً لهذه المقولة.

وثمة حقيقة على قدر كبير من الخطورة ينبه القرآن الكريم القواعد المؤمنة عليها ، لكي يكونوا على وعي تام بها ، وعلى حذر كامل منها في الوقت نفسه ، ذلك أن الفتنة التي تتمخض حتماً عن ممارسة الطغيان وانحراف القيادات عن أمانة المهمة التي عهدت إليها لن تنزل على رؤوس هذه القيادات فحسب ... انها ليست ممارسة (هندسية) لكي تجيئ منطبقة تماماً على مساحة الواقع التي يحتلها الطغيان ، لأنها تجربة اجتماعية ، والتجربة الاجتماعية تجيئ دائماً متداخلة المساحات ، متشابكة الممارسات ، مرتبطة الوشائج ، بحيث يصعب تفكيكها وتجزيئها بأسلوب رياضي صارم ... وان مسؤولية الطغيان لا تقع – كما يؤكد القرآن الكريم دائماً – على عاتق القيادات ، وانما تتحمل القواعد نصيباً كبيراً منها لسكوتها واقرارها وعدم رفضها ومقاومتها وتحركها.

من أجل هذا كله ، فان الفتنة أو العقاب الذي سينجم عن ممارسة الطغيان والظلم ، سوف ينزل على رؤوس الجميع ، مدوّماً ، مزلزلاً ، شاملاً ، لا يعرف (أحداً) في البنية الاجتماعية التي يمارس فيها الانحراف ، ظالماً كان أم مظلوماً ، ولم يكن العقاب ، أو تكن الفتن ، في يوم من الأيام ملكاً أو نبياً ... ان القرآن الكريم يحذر القواعد المؤمنة ويمنحها الوعي الكافي كذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٢٥﴾ (سورة الأنفال ، الآيتان ٢٤–٢٥).

على مستوى القيادة يحدثنا القرآن الكريم كيف أن ساعة السقوط تحين يوم يتسنّم المسؤولية حفنة من المترفين الفسقة ، أو الاداريين الظلمة ، أو المجرمين الطغاة ، فيمارسون من مواقع السلطة تلك كل أسلوب من شأنه أن يؤول إلى الحاق التفكك والدمار بالجماعة أو الأمة التي ارتضتهم قادةً لها : الترف ، الفسوق ، الطغيان ، الفوضى ، الاستغلال ، المكر ، رفض الدعوات الجديدة ، واستخدام أقصى درجات القسوة والطيش لصدّ قومهم عن الانتماء إليها ، واعتبار مبادئهم ورؤاهم وتشريعاتهم الذاتية القاصرة ، المفككة ، الحدود النهائية لموقف الإنسان في العالم ، وهو اعتبار يقوم على أقصى درجات الطغيان ، وأشد المواقف بعداً عن مفهوم

التوحيد العادل ، السمح ، الإنساني : ﴿ ... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾(سورة غافر ، الآية ٢٩).

وأبرع ما في التعبير القرآني أنه يصوّر هؤلاء الطواغيت ، وهم في قمة الجاه والثروة والسلطان ، أدوات بيد الله (سبحانه وتعالى) يسخرهم ، من حيث لا يدرون ، لإنزال عقابه العادل بطرفيْ الجريمة : السلطة التي تظلم والقاعدة التي ترضى بالظلم :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٢٣) ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾(سورة الأنعام ، الآية ١٢٩) ، ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴿١٧﴾ (سورة الإسراء ، الآيتان ١٦-١٧) ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴿٦٨﴾ (سورة الأحزاب ، الآيتان ٦٧-٦٨) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ (سورة سبأ، الآيتان ٣٤-٣٥).

في الجهة الأخرى ، ومن أجل أن تظل مقاييس السلطة والقيادة موضوعية ثابتة بيّنة في أذهان الجماهير المؤمنة ، يطرح القرآن الكريم : البديل في أكثر من آية ، وعلى أعرض جبهة يمكن أن يتحرك عليها المسؤولون عن قيادة الأمم والشعوب ، جبهة التلّقي عن الله وحده ، والتزام قيم الحق والعدل ، ومواصلة العطاء على هذا الطريق :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (سورة الأنبياء ، الآية ٧٣) ، ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾(سورة الأعراف ، الآية ١٨١) ، ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة القصص ، الآية ٨٣).

وكم تمنيت وأنا أتابع أطروحات القرآن الحاسمة بصدد العلاقة بين الجمهور والسلطة وهي أطروحات ممتدة متشابكة مفروشة على مساحات واسعة لا يتسع المجال لاستعراضها جميعاً تمنيت أن يرجع الزمن بي القهقرى إلى أيام الدراسة الجامعية ، أو أن التقي بالأستاذ الذي كان

يتشنج متعمداً على جانب ضيق محدود من الصورة لا يفسّر شيئاً – ان ارجع إليه لكي أقول له هذا واقنعه على الأقل بقراءة كتاب الله بالتجرّد العلمي المطلوب ، مرةً واحدة فقط !!

(٣٠)

ها قد بلغت الحوارية رقم ثلاثين فلأكف عن ملاحقة الآخرين والتحاور معهم ، ولأرح قرائي الأعزاء من المتابعة المجهدة للجدل المتواصل معهم ... وقلت في نفسي وأنا اختتم حواراياتي هذه: لأجعل خاتمتها منولوجاً داخلياً أي حواراً مع الذات وأنا أردّد هذا البيت المعروف :

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره

وأتذكر في الوقت نفسه كيف يمنح الإسلام الإنسان فرصة فذة لمدّ رحلة حياته القصيرة ، وإغنائها وجعلها أعماراً لا تعد ولا تحصى ، بدلاً من العمر الضيّق ، المسطح ، الواحد ، القصير الذي يعرفه الإنسان العادي ويتألم من ضيقه وقصره وسرعة انصرامه !!

إن الشاعر يريد أن يقول هنا بأن إدراك التاريخ ، والالمام بدقائقه المتلاحقة الموغلة في الزمن ، ومعايشتها كما لو كانت واقعة اللحظة ، يمنح حياة الإنسان امتداداً في الماضي يضيف من خلاله الكثير من التجارب والمواقف والأحداث إلى مكونات هذه الحياة المحدودة ، فيمتد بها ويغنيها بأعمار جديدة لا تعد ولا تحصى.

في القرآن الكريم دعوة (يومية) في الاتجاه نفسه ، إن آياته البينات ترحل بالمؤمنين ، عبر كل تلاوة في مجرى الزمن ، وتحكي لهم عن وقائع التاريخ المزدحمة وأحداثه المتلاحقة ، ومعطياته المتمخضة عن القيم والعبر والدلالات ... معظم سور القرآن الكريم تضرب على الوتر نفسه ، فلا تخلو من واقعة تاريخية ، أو حدث ماضٍ ، أو دعوة لاستلهام المغزى من هذه التجربة أو تلك ... إن الامتداد الذهني والوجداني إلى الماضي يشكل مساحة واسعة في كتاب الله ... إن تأكيد القرآن الكريم على المعايشة التاريخية ، وأعاده عرضها المرة تلو المرة ، بأسلوب مؤثر وصيغ تهز الوجدان ، يمارس ، دوره في اغناء حياة الإنسان ، ومدها وتكثيفها ومنحها الفرصة لأن تكسب – بتعبير الشاعر – أعماراً أخرى ... لكن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ ... ان القرآن الكريم والتجربة الايمانية عموماً ، تسعى لأن تحدّ أبصار الإنسان إلى المستقبل القريب والبعيد ، جنباً إلى جنب مع التوجه صوب الماضي وهذا النزوع المستقبلي كما أنه يؤكد حركية الإسلام على المستوى العام ، فانه على المستوى الوجودي الخاص يمنح الإنسان فرصةً أخرى لمدّ حياته واغنائها ، وكسب رصيد زمني تتضاءل ازاءه السنون الخمسون والسبعون ، أو حتى التسعون التي تحسب عمراً للإنسان !

وأي مستقبل هذا الذي يتواصل معه الإنسان المسلم ؟!

إنه زمن مفتوح على مصراعيه ، ممتد في الأبدية ، لا تقطع فيه ولا حواجز ، ولا زوال ... انها الرؤية التي تلغي واقعة الموت من حسابها ، فتحرر الإنسان من عمره المحدود وتطلقه في المدى عبر آلاف السنين صوب يوم الحساب ! ويوم الحساب في كتاب الله قريب بعيد ... ومهما يكن من قربه أو بعده فانه يجيئ بمثابة بدء لزمن الخلود الذي لا ينتهي أو ينعدم أبداً !!

كل منا تملكه هذا الاحساس اللذيذ ، المطلق ، العزيز ، بين الحين والحين ، وأن عمره ليس بمحدود ، وأن زمنه ليس بفانٍ ، وأنه ممتد بمشيئة الله (جلّ في علاه) وقوة الروح في الزمن القادم ... وليس الموت حاجزاً أو فاصلاً ، ليس الموت نهاية طريق أو باباً موصداً ... انه مجرد نقلة ، نقلة سريعة ، ينطلق الإنسان بعدها لمواصلة الحياة بهذا الشكل أو ذاك ، مما لا يعلم كنهه إلا الله (سبحانه وتعالى) ...

كل منا أحسّ ، في مجابهته الضغوط النفسية ، والمتاعب التي لا تنقضي ، والأحزان المتجددة ، أنه قدير على تجاوز الأسر ، والانطلاق في الزمن حيث لا خوف ولا تناقص ولا عد تنازلي باتجاه لحظة الأفول الأخيرة.

إن رحلة الإنسان في التصوّر الإسلامي ماضيه إلى هدفها ... طويلة مديدة ... وانها وهي تتوجه صوب يوم الحساب القريب البعيد لتأمل في معانقة خلودها الموعود. وما أروعه من احساس يملأ وجدان الإنسان وعقله وقلبه باقتناع ليس إلى تعريفه من سبيل ، ويدفعه إلى نفور جارف ورفض حاسم لكل أولئك الذين رأوا في حياتهم الدنيا فرصتهم الأولى والأخيرة ، وفي سنيهم الخمسين والسبعين عمرهم الوحيد ... أيكون الإنسان ، بعد هذه الرحلة القصيرة ، لقمة سائغةً للعدم ؟ إنه تصور تضيق معه نفس المؤمن الذي رفض خرافة العدم هذه ، حتى ليكاد يختنق وهو يعاينها من بعيد !!

لقد خلق الإنسان لكي يظل موجوداً ... لكي يمتد في الزمن فلا يكون عرضةً لانعدام أو فناء ... ان هذا هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان والأشياء ... انها مرهونة بعمر محدود ، تتلاشى بعده وتضيع ، أما الإنسان فانه يتفرد على الكائنات ويظل ممتداً في الأبدية ، دائماً في الزمان ... ليس الإنسان (شيئاً) أو (حيواناً) !

والقرآن الكريم معروفةً طرائقه الفنية المؤثرة في التعامل مع الزمن ... انه يتنقل بحرية بين الأزمان الثلاثة .. يلغي الحواجز ويزيل المتاريس ، ويمضي يحدثنا ... عن وقائع الكون والحياة والعالم ... الماضي وكأنه يتخلق أمام أعيننا ... المستقبل وكأنه أصبح ماضياً ... الحاضر وكأنه ممتد ، ممتد ، ماضياً ومستقبلاً ، فلا أوّل له ولا انتهاء ، من أجل هذا يغدو التاريخ في

القرآن الكريم وحدةً زمنيةً ، تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وتتعانق هذه الأزمان الثلاثة عناقاً مصيرياً ... حتى الأرض والسماء ... زمن الأرض وزمن السماء ... قصة الخليقة ويوم الحساب ... تلتقي دائماً عند النقطة الحاضرة في (بانوراما) القرآن الكريم ... فهذا الانتقال السريع بين الأزمان الثلاثة يوضح حرص القرآن الكريم على إزالة الحدود التي تفصل بين الزمن باعتباره وحدةً حيويةً متصلة ، فتغدو حركة التاريخ التي يتسع لها الكون حركةً واحدةً ، تبدأ يوم خلق الله السماوات والأرض وتتجه نحو يوم الحساب. ان الحياة الدنيا فعل تاريخي مستمر يتشكل من الماضي والحاضر ويرتبط بمستقبل يوم الحساب الذي هو بمثابة المصير النهائي لفاعلية الإنسان في العالم ... ولهذا يقدم لنا القرآن الكريم وصفاً رائعاً يتميز بالحيوية والتدّفق لمجرى التاريخ البشري ، وبهذا التوافق بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وينقلنا بخفة وابداع بين الآونات الثلاث حيث تذوب الفواصل والحواجز وتسقط الجدران.

وثمة ما يمنح المسلم امتداداً لحياته ، واغناء لتجربتها ، وتكثيفها لوجودها باتجاه آخر ... العالم والطبيعة والكون !

إن الإسلام يدعوه صباح مساء ، وكتاب الله (سبحانه وتعالى) يناديه ليل نهار أن يفتح عقله وقلبه وحسّه ووجدانه وبصيرته على العالم والطبيعة والكون ... أن يعيشها ويعيش فيها ... أن ينمي تجربته لكي تستوعب العالم والطبيعة ، وأن يوسّع مدى رؤيته لكي تعانق السماوات العليا وتلف أقطار الكون.

يكفي أن نطالع في القرآن الكريم دعوته الملحة للنظر في صفحات النفس والطبيعة والعالم في كتاب الكون المفتوح ، لكي يتبين لنا المدى الشاسع الذي لا تحدّه حدود ، والذي يريد هذا الدين للمنتمين إليه أن يتحركوا خلاله ويجوسوا عبر آفاقه البعيدة :

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً﴿٢٧﴾ وَعِنَباً وَقَضْباً﴿٢٨﴾ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْباً﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴿٣١﴾ (سورة عبس ، الآيات ٢٤-٣١) ، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾(سورة الأعراف ، الآية ١٨٥) ، ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ (سورة ق ، الآيتان ٦-٧) ، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (سورة الغاشية ، الآية ١٧) ، ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي

الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(سورة الروم ، الآية ٥٠) ، ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الأنعام ، الآية ٩٩) ، ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾(سورة يونس ، الآية ١٨١) ، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(سورة العنكبوت ، الآية ٢٠) ، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾(سورة الحجر ، الآية ١٦).

إن الإنسان المسلم يحس إحساساً غامراً ، مترعاً بالغبطة والنشوة والفرح ، بأن موطنه الحقيقي ليس المدينة التي يولد فيها ، أو الإقليم الذي يحيا فيه ، أو الدولة التي يحسب عليها ... بأن وطنه هو العالم كله ... وأرضه هي الطبيعة على امتدادها ... وبلاده الكون على مداه ... إنها قد سخرت له جميعاً ، وهو سيد المخلوقات وأكرمها عند الله ... يتحرك فيها كما يشاء ويصوغ من طاقاتها وكنوزها حياته السعيدة المؤمنة ، ويتوجه من خلال ابداعها وجمالها وتنظيمها المعجز ... إلى الخلاق المبدع الذي صنع هذا كله !!

إنه – مرةً أخرى – إحساس مترع بالغبطة والثقة ، والاستعلاء والنشوة ، والفرح والامتداد ، هذا الذي يحتويه صدر المسلم وعقله ووجدانه وقلبه ، وهو يحس بأنه ابن هذا العالم ، وأن وطنه الحقيقي الكون كله على امتداده المفتوح !

إن الإسلام هنا يمدّ العمر الإنساني في الطبيعة والعالم والكون ، كما كان هناك يمدّه في التاريخ والمستقبل ... هنا يمده في المكان وهناك يمده في الزمان ... وهو في كل الأحوال يمنح الإنسان ألف فرصة وفرصة لتجاوز عمره المسطح المحدود ، صوب عمر مترع عميق غير محدود !!

ومن خلال هذا الامتداد الأفقي في الزمان والمكان ، يخطو المسلم بامتداد عمقي في الروح والنفس والفكر والحس والوجدان ... إن رؤيته الايمانية تتطلب منه أن يجعل من حياته تجربة جياشة بالفعل ، والديمومة والتحقق ، مترعةً بالحس والتأمل والتفكير ... طافحةً بالغبطة والفرح والاطمئنان واليقين ... إن الروح لتزداد غنىً (بالنظر) الدائم الذي يدعو إليه كتاب الله والعقل ليزداد إدراكاً (بالتفكر) الدائم الذي يدعو إليه كتاب الله ... والحس ليزداد امتلاءً بالتعامل المكثف مع الطبيعة والعالم ، ذلك الذي يدعو إليه كتاب الله ... والوجدان ليزداد شفافيةً ورقةً

وصفاءً ، بالمعاناة الدائمة التي يدعو إليها كتاب الله ... ان العمر الحقيقي الذي يليق بمكانة الإنسان في العالم هو ذلك الذي يتحدث عنه القرآن الكريم وهو يحكي عن أولئك :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (سورة آل عمران ، الآية ١٩١).

إنها – من حيث التفتنا – دعوة لتعميق الخبرة البشرية ... لمدّها في الجذور البعيدة ... وانها لفرصة فذة للعمر المحدود أن يزداد اتساعاً وتوغلاً وامتداداً صوب الأعماق ، تماماً كما كان هناك يزداد اتساعاً وتوغلاً وامتداداً صوب الآفاق ... هنا في صميم النفس ، وهنالك في أبعاد الزمان والمكان ...

ترى ... أبعد هذا كله ، دعوةً لمد الحياة البشرية ، وتكريمها ، واغنائها ، ومنحها الفرصة لأن تعيش عمرها كاملاً غير مسطح ولا منقوص ... كدعوة هذا الدين ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

التصنيف الموضوعي لمؤلفات الدكتور عماد الدين خليل

المجموعة الأولى : التاريخ ومناهجه وفلسفته

(١) المنهج والفلسفة

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ.
(٢) في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل.
(٣) ابن خلدون إسلامياً.
(٤) حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي.
(٥) المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات).
(٦) المنظور التاريخي في فكر سيّد قطب.
(٧) دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو).
(٨) التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي.

(٢) السيرة والتراجم

(٩) دراسة في السيرة.
(١٠) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز.
(١١) عماد الدين زنكي.
(١٢) نور الدين محمود : الرجل وتجربته الإسلامية.
(١٣) كتابات معاصرة في السيرة النبوية.

(٣) البحوث والدراسات

(١٤) الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام.
(١٥) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي.
(١٦) دراسات تاريخية.
(١٧) تحليل للتاريخ الإسلامي : إطار عام.

(١٨) نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم.
(١٩) الحصار القاسي : ملامح مأساتنا في إفريقيا.
(٢٠) الوحدة والتنوّع في تاريخ المسلمين.
(٢١) مدخل إلى التاريخ الإسلامي.
(٢٢) مدخل إلى الحضارة الإسلامية.
(٢٣) خطوات في تراث الموصل.
(٢٤) محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية.
(٢٥) محاضرات إسلامية.

المجموعة الثانية : الفكر الإسلامي

(١) البحوث والدراسات

(١) لعبة اليمين واليسار.
(٢) أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار.
(٣) تهافت العلمانية.
(٤) مقال في العدل الاجتماعي.
(٥) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم الحديث.
(٦) العلم في مواجهة المادية.
(٧) أصول تشكيل العقل المسلم.
(٨) مدخل إلى إسلامية المعرفة.
(٩) قالوا عن الإسلام.
(١٠) القرآن الكريم من منظور غربي.
(١١) المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي.
(١٢) الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي.
(١٣) غربيون يتحدثون عن الإسلام.
(١٤) الله أو الطاغوت.

(٢) المقالات الطويلة

(١٥) مع القرآن في عالمه الرحيب.
(١٦) كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس).

(١٧) مقالات إسلامية.
(١٨) حوار في المعمار الكوني.
(١٩) رؤية إسلامية في قضايا معاصرة.
(٢٠) متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة.
(٢١) دراسات قرآنية.
(٢٢) رحلة في عالم الكتاب الإسلامي.

(٣) المقالات القصيرة

(٢٣) آفاق قرآنية.
(٢٤) مؤشرات إسلامية في زمن السرعة.
(٢٥) في الرؤية الإسلامية.
(٢٦) الرؤية الآن.
(٢٧) أولى ملاحم القرن.
(٢٨) مذكرات حول واقعة ١١ أيلول.
(٢٩) أمريكا مرة أخرى.
(٣٠) في دائرة الضوء.
(٣١) من النافذة الإسلامية.
(٣٢) العالم ينتظر البديل.
(٣٣) آيات قرآنية تطل على العصر.
(٣٤) أحاديث نبوية تطل على العصر.

المجموعة الثالثة : الأدب الإسلامي

(١) التنظير

(١) في النقد الإسلامي المعاصر.
(٢) مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي.
(٣) حول ستراتيجية الأدب الإسلامي.
(٤) متابعات في دائرة الأدب الإسلامي المعاصر.

(٢) النقد

(٥) محاولات جديدة في النقد الإسلامي.

(٦) في النقد التطبيقي.

(٧) من يوميات الأدب الإسلامي.

(٨) في النقد التطبيقي الإسلامي.

(٣) الدراسة الأدبية

(٩) الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي.

(١٠) فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر.

(١١) الفن والعقيدة.

(١٢) " الكلمات " : رؤية جمالية.

(٤) الإبداع

أ – المسرح

(١٣) المأسورون.

(١٤) معجزة في الضفّة الغربية.

(١٥) خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد.

(١٦) الشمس والدنس.

(١٧) المغول.

(١٨) العبور.

(١٩) التحقيق.

(٢٠) الهمّ الكبير.

ب – الرواية

(٢١) الإعصار والمئذنة.

(٢٢) السيف والكلمة.

(٢٣) مذكرات جندي في جيش الرسول (صلى الله عليه وسلم).

جـ – القصّة القصيرة

(٢٤) كلمة الله.

(٢٥) رحلة الصعود التي لا نهاية لها.

د – الشعر

(٢٦) جداول الحبّ واليقين.

(٢٧) ابتهالات في زمن الغربة.

هـ – أدب الرحلات

(٢٨) الرحيل إلى إسطنبول.

و – أدب الحوار

(٢٩) ريبورتاج : حوار في الهموم الإسلامية.

(٣٠) الطريق إلى فلسطين.

(٣١) لقاءات صحفية.

ز – السيرة الذاتية

(٣٢) سيرة ذاتية.